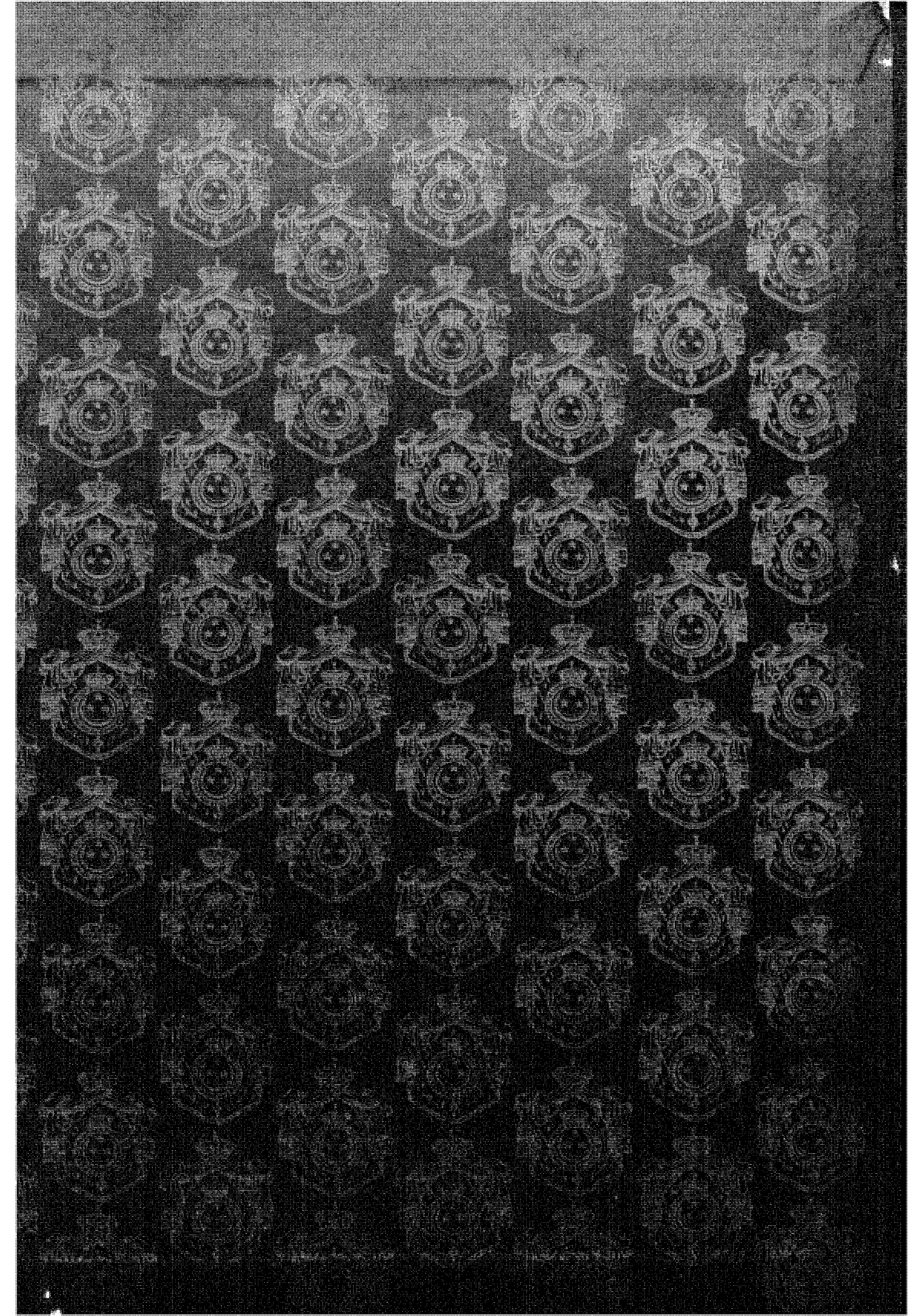
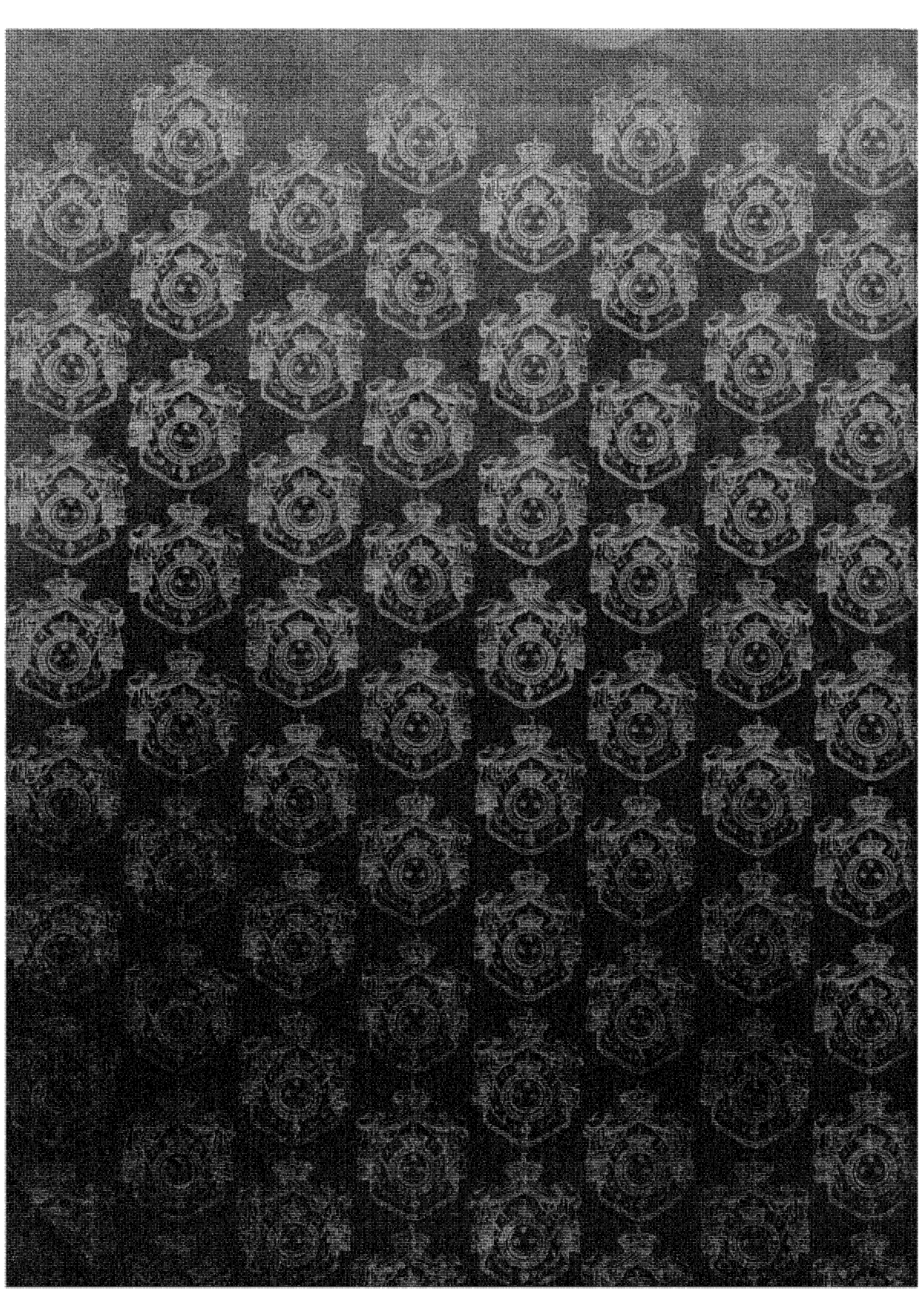


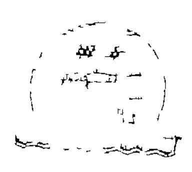
الملكة فريدة

لوتس عبد الكريم






الملكة فريدة
لوتس عبد الكريم



المــؤلفــــة

لوتس عبدالكريم

صاحبة ورئيس تحرير مجلة الشموع العربية الثقافية وشعارها «من أجل قيمة الجمال فى الأدب والفن والحياة».

- تخرجت فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية قسم الفلسفة.
- أتمت دراستها العليا بجامعات لندن وباريس.
- سجلت دراسات قيمة عن شعب اليابان وفنانيه وأدباء آسيا وأوروبا أثناء إقامتها الطويلة بتلك البلاد كزوجة لسفير عربى فى أهم تلك البلاد، مما أتاح لها اكتساب خبرات ثقافية وفنية واجتماعية.
- بدأت صداقتها بالملكة فريدة منذ مجيئها للإقامة بالقاهرة وخلال آخر أربع سنوات فى حياتها وكان لتلك الصداقة أثرها الفنى و الثقافى بعد وفاة الملكة، فظلت قاعة «الشموع» للفنون التشكيلية التى كانت مرسما ومعرضا للوحات الملكة فى حياتها.. تعرض بعد ذلك لكبار الفنانين وتحمل اسم وذكرى الملكه فريدة.

هذا الكتاب أعد بعد رحيل الملكة فريدة بعام. ولكن لظروف التجهيز والتحضير للطبع تأخر نشره



بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى روحـها الطاهرة ..

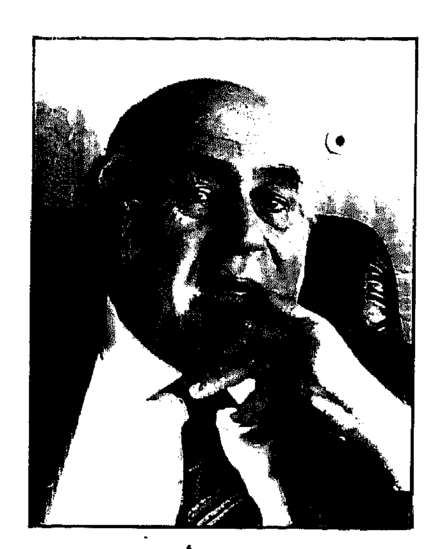
فـى سـماوات اللــه ..

بعضـاً منـها ولهـا

لوتــس

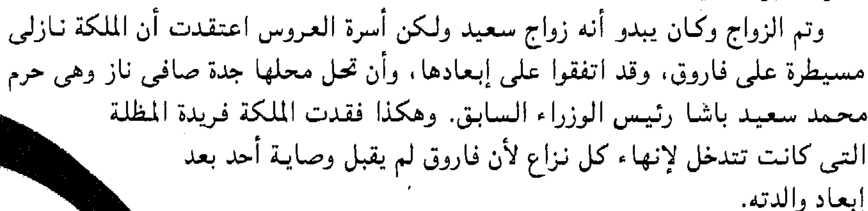


هــذه هــى الملكـــة فريـــدة

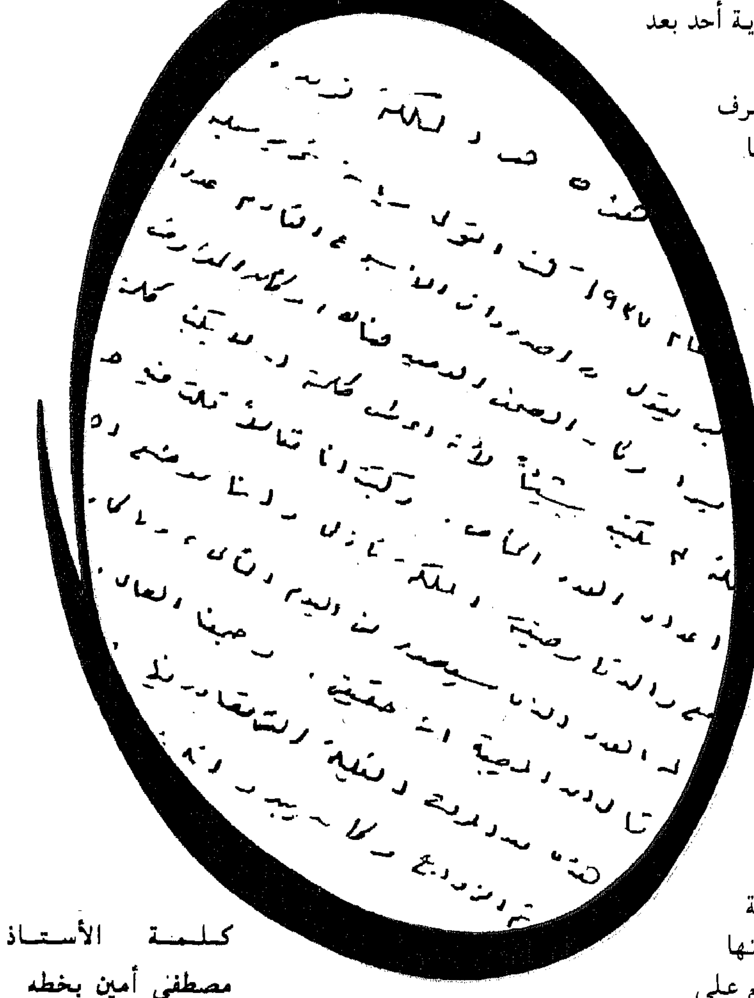


مصطفى أمين

فى صيف عام ١٩٣٧ كنت أتولى رياسة تحرير مجلة آخر ساعة فى غياب الأستاذ التابعى وفوجئت بخطاب من التابعى يقول «أصدروا فى الأسبوع القادم عدداً خاصاً عن الملك» وكان التابعى فى معية الملك فاروق فى سويسرا وكان الصحفى الوحيد هناك، وكان المفروض أن يكتب التابعى عدة مقالات لتنشر فى العدد الخاص ولكنه لم يكتب شيئاً لأنه أعطى كلمة ألا يكتب كلمة عن الملك أثناء وجوده مع الملك. ووصلنا الليل بالنهار فى إعداد العدد الخاص. وكتبت أنا مقالاً قلت فيه: هل يتزوج الملك الآنسة صافى ناز ذو الفقار؟ وكنت أعرف أنها مع والدتها وصيفة الملكة نازلى وأنها موضع اهتمام الملك. وعاد التابعى قبل صدور العدد بيوم واحد وقدمت له العدد الذى سيصدر فى اليوم التالى، وما كاد يرى المقال حتى ثار وهاج وماج وسألته : هل الخبر غير حقيقى؟ قال إن المصيبة أنه حقيقى. وجمعنا المقال وطلبنا منهم أن ينزعوا الصفحة التى فيها مقال زواج الملك. وكانت هذه من المرات القليلة التى تصادر فيها جريدة لأنها نشرت خبراً صحيحاً.



وتم الزواج وكان يبدو أنه زواج سعيد ولكن أسرة العروس اعتقدت أن الملكة نازلى مسيطرة على فاروق، وقد اتفقوا على إبعادها، وأن تحل محلها جدة صافى ناز وهى حرم محمد سعيد باشا رئيس الوزراء السابق. وهكذا فقدت الملكة فريدة المظلة التى كانت تتدخل لإنهاء كل نزاع لأن فاروق لم يقبل وصاية أحد بعد إبعاد والدته.



كلمة الأستاذ
مصطفى أمين بخطه

ولولا صغر سن فريدة لما حدث الطلاق. وقد لا يعرف كثيرون أنها هى التى أصرت على الطلاق ولم تغفر بناتها لأمهن هذا الموقف وبقين طول حياتها يلمنها على هذا الطلاق الذى دفعت ثمنه غاليا. وقد شقيت فريدة لأن فاروق أخذ بناته معه إلى المنفى. وأذكر أنها فى الستينات لم تحتمل هذا الفراق فطلبت من على أمين أن يكتب باسمها خطاباً إلى الرئيس جمال عبدالناصر يطلب منه أن يسمح لها بالسفر إلى الخارج لتعيش مع بناتها. وكان الخطاب مؤثراً ووافق عبدالناصر على سفرها. ولكن فوجئت عند سفرها بأن العلاقة القوية التى كانت بينها وبين بناتها قد فترت بسبب الفراق. وكانت بناتها يعتقدن أنه لولا طلاق أمهن لبقى فاروق على العرش وأنها مسئولة عما حدث. وقد ندمت فريدة بعد ذلك على الطلاق وكانت تقول إنها لو كانت أكبر سنا لما حدث الطلاق، وبقيت طول حياتها ترفض أن تذكر كلمة واحدة ضد فاروق .

وفى أواخر حياتها اضطرت أن ترسم لوحات لتبيعها لتستطيع أن تعيش، وكان الرئيس أنور السادات وعد بأن يعطيها شقة كبيرة على النيل، ولكن الذين تلقوا الأمر لم ينفذوه إلى أن أعطاها الرئيس حسنى مبارك شقة من غرفتين فى المعادى وكانت الشقة ضيقة حتى أن والدتها التى كانت تقيم معها لم تجد مكانا تنام فيه فكانت تنام على

هــذه هـــى الملكــــة فريـــدة

وقد حدث أن وضعت مالا ورثته عن أبيها فى أحد البنوك وإذا بالبنك يحول المبلغ إلى إدارة الأموال المصادرة دون أن ينتبه أن هذا المبلغ غير خاضع لقانون مصادرة أموال أسرة محمد على.

ورفعت فريدة قضية كسبتها، ولكن البنك استأنف الحكم وأخيراً تم الاتفاق على حل وسط وهو أن يدفع البنك المبلغ ويأخذ أربع لوحات من رسم الملكة!

وأمضت السنوات الأخيرة فى ضيق مالى، لولا أن بعض الناس الطيبين قدموا لها دفعات هى خمسون ألف جنيه ثم عشرون ألف جنيه ثم عشرة آلاف جنيه.

وهكذا عاشت فريدة مصر على أموال المتبرعين وبعض الصديقات وبيع اللوحات.

وكانت عاشقة لمصر. أغلب اللوحات التى رسمتها فى المنفى كانت صور مصر. فلاحها. ابن البلد. بنت البلد. سماء مصر، حدائق مصر. ريف مصر.

ولم تفتح فمها يوماً وتشكو أن حكومة مصر صادرت بيتها وأموالها ...

وأذكر عندما قررت الثورة مصادرة أملاك أسرة محمد على أن تألفت لجنة لمصادرة أملاك الملكة فريدة برياسة المهندس المعروف على نصار .

وذات يوم رن التليفون فى بيت الملكة وقال المهندس على نصار إن لجنة المصادرة تستأذن الملكة للحضور لتنفيذ قرار المصادرة.

وأسرعت الملكة فريدة وجمعت كل مجوهراتها وجميع الهدايا التى تلقتها وهى ملكة ووضعتها فى حقيبة.

وعندما حضر المهندس على نصار سلمته العلبة

وكان المهندس ضابطا فى سلاح المهندسين.

ولم يشأ أن يفتش البيت كما جرت التعليمات وعامل الملكة بكل إجلال واحترام .

وفى اليوم التالى رن جرس التليفون فى مكتب على نصار وسمع الملكة فريدة تقول:

– كنت أفتش دولاب منزلى اليوم فوجدت فيه «بروش» لم أعثر عليه وأنا أجمع مجوهراتى وأضعها فى الحقيبة ... تعالوا خذوا البروش .

وذهب المهندس على نصار وتسلم البروش .

وكان البروش يساوى عشرات الآلاف من الجنيهات .

وبقيت فريدة فى بيتها وليس معها مليم واحد !

مصطفــى أمـــين

الملكة فريدة .. المرأة والأسطورة



بقلم : لوتس عبد الكريم

فريدة مصر

فريدتى بعد عام من الرحيل ..

أنا بعتبة شقتها الصغيرة الخالية الخاوية إلا من الصمت المقيم والجدران المعتمة..

التليفون يدق ..

يخترق الصمت .. لا لن أرد .

إنها آتية .

لابد أن تكون آتية .

هكذا كنا نردد دائما أنا وصديقنا المشترك مستر «نيفل» .. لا تغلق الباب لأنها آتية!

ها هو حفيف ثوبها وها هو عطرها يسبقها .

إن لها عطرا خاصا خفيفا كالسحر يتضوع حول خطواتها قبل أن تخطو وبعد أن تغيب ..

مازال عطرها فى المكان .

إنها لم تغب، وليس هذا خيالا .. فصوتها فى المكان عبر الزمان والمكان .. كرنين الفضة يتناهى إلى سمعى حديثا وضحكا .. ونهرا وزجرا .. وصياحا وهمسا .. ثم آهات كثيرة متنوعة ..

وصورتها واقفة وسائرة ونائمة حتى آخر اللحظات .

صورتها جميلة عظيمة رائعة جليلة ملأى بالأنفة والكبرياء .

ثم صورتها وهى ضعيفة متهالكة شاحبة متخاذلة ملأى باليأس والقنوط والاستسلام.

بعد الرحيل

مازال عطر أنفاسها بين الجدران ..

ولكنها ..

لم تعد هناك ..

ذهبت ولن تعود ..

بذهابها تغير المكان .. لم يبق من أثرها به سوى تلك الرائحة الطيبة المميزة ..

الشقة الصغيرة الجميلة الملأى ببصماتها ولمساتها .. أضحت قبيحة عارية من أثاثها البسيط ولوحاتها وصورها الملكية .. والجدران كالحة كئيبة تطالعنا فى وجوم.. حتى خشب الأرض يتكسر تحت أقدامنا ويئن فى ألم مكتوم ..

استدرت لأغادر المكان مع «نيفل» بعد أن أخذنا بعض الأوراق الخاصة بمتعلقات السكن فمازال معنا مفتاح شقتها ومازالت بين أيدينا أشياؤها ..

فريدة .. ملكة مصر وآخر ملكاتها ..

ملكة وادى النيل وعاشقة النيل وحقوله الخضراء فى خطوطها وألوانها وأنماط حياتها .. مازالت تعيش فى وجدانى .

تعيش فى قلبى وخيالى ومشاعرى ..

مازلت أرافقها ومازلت أصاحبها . ومازالت بيننا الحوارات والأحاديث لا تمضى ولا تنقضى ..

الملكة فريدة .. المرأة والأسطورة

هأنا بين ألوانها وأحبارها ولوحاتها كل يوم منذ يوم الرحيل ...

فمازلت أعد هذا العمل الذى كانت تتوق لإنجازه والذى وعدتها بإنجازه وهو تخليد أعمالها الفنية وأطوارها فى كتاب يضم رسوماتها مع الشرح الملائم وعدم الخوض فى حياتها الشخصية .. وأنى لى أن أفعل ذلك وهى لم تخبرنى إلا بالقليل ؟!..

وكانت دائما متحفظة متوجسة أن تمس أناسا مازالوا على قيد الحياة .. وأناسا فارقوا الحياة . لهم مكانتهم ودورهم فى حياتها .. وكانت شحيحة بالبوح. معتزة بماضيها أيا كان ما لحقها منه.

كانت حياتها قيمة، الخوض فيها ينتقص من شأنها، وتاريخها قدس الأقداس لا تطأه قدم لكيلا تدنسه أو تغيره.

كانت ملكة فى سلوكها وتصرفها .. كم عرض عليها من أجر من دول عربية وأجنبية لتذيع أسرار مليكها وحياتها.. لتكتب مذكراتها .. وتصحح التاريخ وهى فى أشد الحاجة إلى المادة .

كانت ترفض بإصرار وعناد كبيرين ..

وكانت تقول : إذا تكلمت فسوف أجرح الكثيرين.

كنز مغلق وحصن منيع لا يقترب من أبوابه إلا أخص الخاصة .

وبعد تعب وكفاح وإخلاص وحوار وشك مرير تأنس قليلا .. وتفتح قلبها قليلا وتدلى ببعض الأسرار وبلا تعليق، أتظاهر فورا بالنسيان وعدم الاهتمام حتى لا تندم ولا تحزن .. ولم تكن فعلا تهمنى معرفة أسرارها إلا بقدر من الفضول قد يساعدنى على حل لغز شخصيتها.

ذهبت .. وذهبت معها الحقائق إلى الأبد فكانت ملكة فى قرارها .

اتصل بها ذات يوم أحد الناشرين من هولندا وعرض عليها أن ينشر كتابا يضم أعمالها الفنية ومراحلها باللغتين الفرنسية والإنجليزية وقالت فرحة : «هذه فرصة ذهبية لا تعوض وصدقته» ولم أصدقه لا أنا ولا «نيفل» .. وجاء ودعانا جميعا للعشاء مع بعض أصحاب دور النشر.

وبدت هى مرحة سعيدة تضحك وتتكلم، وطالت السهرة والهولندى يصول ويجول ويتلون فى حديثه وأسئلته ويراوغ فى أجوبته .. وهى مقبلة على الإجابة والحوار بصراحة وبساطة الأطفال .. ولم أسترح لطريقته وشعرت بأنه يهودى مراوغ يبحث عن مكاسب معينة بطريقة لا تخدم العمل .

ولم أخف عنها شكوكى ونحن فى طريق العودة .. لكنها سخرت من أفكارى وصممت على إجابته لما يطلب - وبعد أن قطعنا شوطا فى إعداد الصور والرسومات وسؤال الخبراء فى الطبع والنشر .. إلخ، فوجئنا به يأتى ذات مساء ومعه مسجل صغير ويقول لها :

إذا كنت متعبة بوسعك استعمال هذا المسجل وأنت فى سريرك .

ما عليك إلا أن تتحدثى إليه كل مساء عن ذكرياتك وكل أحداث حياتك ... وسنترجم حديثك بعد تفريغه إلى كل اللغات،.. وأجفلت وقلت لها :

أرأيت أنه لا يريد فنك كما تصورت . بل حياتك الخاصة وهى مادة غنية كما ترين مطلوبة .. وهذه الشرائط المسجلة وثائق تاريخية مهمة. إنه تاجر ماهر وبوسعك مساومته إن أردت تنفيذ فكرته .

واقترحت عليها أن تقوم بتلك التسجيلات التى هى ضرورية للتاريخ لحسابها وفور انتهائها تعهد بها إلى أحفادها للذكرى والمصلحة أيضا .

ولكنها أجفلت وكان رفضها حاسما وقرارها باترا ولم نعد نرى الهولندى ثانية فى حياتها.

ولكن بعد موتها بمدة ومنذ شهور قليلة اتصل بى شقيقها الفنان شريف ذو الفقار وسألنى إن كنت أعرف شخصا يدعى (دجمة) هولندى الجنسية ويعمل بالنشر وأخبرنى أنه حضر إلى مصر مرتين واتصل بالأسرة وأخبرهم بأنه يمتلك صورا ومذكرات خاصة بالملكة الراحلة وأنها كانت قد طلبت إليه نشرها وصرحت له بذلك - وبالطبع أفهمته القصة وبأنه أفاق كاذب وأن الملكة طردته تماما من بيتها ولم يحصل منها على شىء وربما كانت له وسائله الخاصة التى لا ندرى عنها شيئاً.. وبدوزه رده الفنان شريف بما يستحق، وردته الأميرة فوزية حين حاول الاتصال بها فى سويسرا. وهكذا أسدل الستار على آخر محاولة من الملكة لنشر فنها وهى على قيد الحياة .

لوتس

الملكة فريدة ..
أسطورة مصر

بقلم : لوتس عبد الكريم



بعد عام من الرحيل .. وقد أقبل الخريف بأشجاره العارية وأوراقه الخضراء الذابلة وسمائه الرمادية الحزينة .. ولسعة برد خفيفة تتخلل الهواء فى الصباح الباكر وفى المساء تغتال الدفء وتبشر بالشتاء .. ليالى الشتاء الباردة الطويلة ..

اليوم عيد ميلادك .. فقد ولدت بالخريف ورحلت فى الخريف وبين تاريخ ميلادك ورحيلك بضعة أسابيع ..

هدية عيد ميلادك

هذا الكتاب هو هدية ميلادك وهأنا أضع - ومن قاموا بجهد فيه - اللمسات الأخيرة ليكون كما أردت تماما .

لقد اخترت أعز لوحاتك إليك ..

لوحة رأيتك ترسمينها، ولوحة حدثتنى عنها، ولوحة أخفيتها عن عيون المشترين لصعوبة افتراقك عنها وأخرى رسمتها فى ظروف خاصة .. ولوحات كثيرات رسمتها أثناء مرضك أو ألمك وانفعالك .. فجاءت جميعا قطعا منك .. من حياتك .. ومن مشاعرك ..

ساعدنى مستر «نيفل» فى الإعداد، فبعض اللوحات حضر رسمها ولم أحضر .. والبعض تذكر أسماءها ولم أذكر..

وحاولت جمع المعلومات التاريخية والموضوعية من كل ما كتب قديما عنك ..

ولم تنس الدكتورة نعمات فؤاد كلمتها فيك وهى التى قالت للجميع :

«لقد جلست على عرش مصر فهى قطعة من تاريخ مصر ويجب أن تعامل كملكة حتى آخر يوم فى حياتها» .

... وأتساءل أكان سر إعجابى بها أو انجذابى إليها وملاحقتى إياها فى بدء تعارفنا أنها كانت ملكة فوق رأسها تاج وتحت قدميها عرش؟..

كثيرون جدا سألونى هذا السؤال :

أكان لذلك دخل فى تعلقى بها وإصرارى على صداقتها ؟!..

بل أنا نفسى سألت نفسى مرارا هذا السؤال ..

كانت ملكة .. أجل!

ولكن أكان ذلك وحده كافيا لجذب اهتمام الآخرين مثلى بها ؟ على العكس تماما .. ربما كان ذلك دافعا لابتعادهم أو اتخاذهم موقفا ما .. وقليلون جدا من كان اهتمامهم أو محاولتهم الاتصال بها أو التعرف إليها ...

لقد التقيت - فترة من العمر وأثناء حياتى الدبلوماسية - بملوك وأباطرة ورؤساء وجلست إليهم ...، وكنت أتعجب أننى لم ألمس للتاج سحرا، ولا للعرش أمرا..، ولم أحس مرة واحدة فى السلطان بهيبة أو رهبة .. ولا جاذبية أو قوة!..

على العكس من شعورى هذا تماما ما كان يحدث حين لقائى برمز من رموز الفكر والثقافة أو العلم أو الفن.. فإنى أشعر بالرهبة والإجلال الذى قد يصل إلى حد التقديس فالفنان هو صورة مصغرة للإله الذى يخلق ..

السلطان لا يخلق ولكن الفن يخلق ..

وهذا هو الفارق بين القوتين ..

وهكذا كانت هى كانت تقول دائما :

«الملك والتاج يزولان لكن الفن خالد باق دائم مادامت الحياة».

وهذا هو السر الذى جمعنا ..

هو القوة التى ربطت أواصر صداقتنا فاستمرت حتى الموت ..

فريدة الفنانة
وليست فريدة الملكة

ومع ذلك فالملكات أحزانهن أكبر من أحزان البشر والملكات خبراتهن تفيض بالثراء وأنا أحب الحزن وأحب الثراء .

ورغم ذلك فقد كون هذا الثنائى (الفنانة والملكة) مزيجا رائعا لإنسانة غير عادية تركت فى حياتى أثرا بل آثارا لا يمكن أبدا أن تزول ..

كانت مدرسة .. وكانت فلسفة .. وكانت حياة زاخرة صاخبة .. وعالما يموج بمختلف الأحاسيس .. وسيمفونية مختلطة الأنغام والألوان .. وكانت لونا من النساء لا يتكرر.

كانت ملكة فى فنها وفنانة فى ملكها وهذا ما سهل عليها التضحية به فى سبيل مبدأ وقيمة وكرامة ..

لا توجد بسهولة تلك المرأة التى تخلع بيديها التاج. تهجر العرش والمجد والثراء فى سبيل الكبرياء ..

لا توجد بسهولة من تقول لا للترف والجاه وبذخ الحياة..

لا توجد بسهولة من تشترى كرامتها بتلك التضحية



فريدة وأنا فى إحدى المناسبات



في معرض الفنان إيهاب شاكر

وذلك الثمن الباهظ الفادح الكبير ..

ليست هناك سوى فريدة ملكة الإحساس وملكة القرار..

عاشرتها إنسانة وعاشرتها فنانة وعرفت الملكة فيهما.

فريدة مصر

كانت تزعجها الأصوات العالية والكلمات النابية والموسيقى الرخيصة والأغاني القبيحة والألوان الصارخة ..

تحب النظام والدقة والانضباط إلى حد الوسوسة، تحب الموسيقى الكلاسيك والألوان الهادئة والأدب والاحتشام.

ذات حس مرهف وذوق رفيع وثقافة وذكاء حاد وشفافية وحدس لا يخيب ..

تحب الأصالة والبساطة وكل ما هو أصيل وبسيط ..

تمقت الكذب والنفاق والخوض في السير، قليلة الثقة بالناس.

ذات نزعة صوفية عميقة وزهد وتجرد وإيمان راسخ بالله خالق المعجزات .

تحيط بيتها وكتبها وملابسها وحقائبها بالمصاحف والأحجبة والأدعية والتعاويذ .. كانت أيضا إلى جانب القرآن تحتفظ بالإنجيل وتحفظ كثيرا من كلماته ..

رسمت لفظ الجلالة في لوحاتها كثيرا وبصور
وكانت تقول أنا أول من رسم لفظ الجلالة وبعدها الكثيرون .

رحلت ومضى أكثر من عام ...

في خريف عام غابت شمسه .. أفل نجم هذه ا
الرائعة .. وهبت نسمة باردة تعلن قدوم الليل .. ليل
ليس له آخر .. سرمدي يطوى في أحشائه ال
والتيجان والطموح والفرح وسنوات المتعة والعذاب
بطن المجهول وبين يدي الغيب تعودين يافريدة ب
ولاقوة ..

انتهى كل شيء.. في غمض البصر وارى
الطاهر التراب ولم يبق سوى الحنين والذكريات..

الذكريات تتوالى بقوة وتلح بقسوة وأعود معها
وأستعيد الليالي والأيام.. على مدى ثلاثة أع
أعوامها الأخيرة عشناها معاً فكأنما هي ومضة وك
لمحة وكأنما هي عمر طويل مديد..

هأنا أمام فراشها..

في لحظاتها الأخيرة.. جسدها الجميل مسجى
مسبلتان وشفتاها مفتوحتان نصف فتحة.. تتردد



على سلم الطائرة فى أسوان مع نيفل ألكسندر ولوتس

الأنفاس الأخيرة، يداها الجميلتان تتلقيان فى استسلام طعنات الحقن المتصلة بأنابيب المحاليل.. فى الأصابع.. فى المعصم.. فى الذراع.. فى الرقبة.. وهى على غير عادتها لاتعترض.. لاتصرخ.. لاتتأثر.. لاتتأوه..

لم تعد أبداً تعترض

ولاتشكو

ولاتتأوه..

وقبل أسبوع .. أسبوع فقط.. يوم وصولها إلى مصر من رحلة العذاب فى سويسرا - كانت تتكلم وتشكو وتخبرنى بكل ماحدث فى رحلتها.

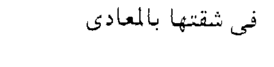
هذه الرحلة التى لم تكن فى الحسبان والتى منعها منها سائر الأطباء على رأسهم الدكتور ياسين عبد الغفار وقد صارحها بخطورة حالتها.. ولكنها أيضاً كعادتها - لاتستمع للنصائح وتصر على ماتريده - صممت : «أريد أن أرى بناتى وأحفادى»..

كانت قد تحسنت تحسناً ملحوظاً بعد مجهود وصبر ورعاية من الدكتور ياسين عبد الغفار وكل من عالجها هناك.. وظنت أنها شفيت لمجرد وقوفها على قدميها فصاحت تصمم على مغادرة المستشفى إلى منزلها.. وهناك أنهت كل إجراءات السفر وكانت تبدو نشيطة وكأن المرض غادرها إلى غير رجعة.

وسافرت ..

رغم قلقى الشديد عليها لم أستطع مرافقتها كما أرادت لأنها ستكون بين أولادها وهم أحق برعايتها وأوصيت لها بخادمة فلبينية (دوريس) أخذتها معها قائلة : (تكفينى هذه ولن يخدمنى أحد) - تركتها بين يدى الله وأنا أعلم أنه على وجه هذه الأرض ليس هناك من يرعاها سوى الله تعالى . فهذه المسكينة لم يكن يحبها أحد حتى أقرب الناس إليها ولم يكن يتمنى لها الرحمة أو الحياة أحد.

وهناك أمرت فوزية بإدخالها المستشفى وعلاجها على حساب التأمين الصحى - كما علمت أن لها بطاقة تأمين فى سويسرا لكنها لم تكن تحب العلاج هناك - واتصلت بمنزل فادية وأخبرنى زوج فادية بمكانها - وشكت لى سوء معاملة الممرضات السويسرات لها وغلظة الأطباء وندمت - كما توقعت - على تركها المستشفى بمصر .. ظللت على الاتصال بها طيلة الصيف وظلت على شكواها المرة وعذابها المتزايد وحين وصلت إلى مصر - طلبت منى السفر إليها ولكن لم أستطع ذلك لنفس الأسباب التى منعتنى من



في شقتها بالمعادى



معاً في شقتها.

مرافقتها. وعلمت أنهم يستعملون في علاجها أحدث أنواع الحقن الخاصة بعلاج اللوكيميا بينما كانت معاناتها في تعطيل وظائف الكبد بالتدريج والضعف الشديد الذي ازداد من استعمال هذه الحقن حتى وهنت قواها وتوقفت مقاومتها تماماً.. حتى أن أول تحليل قمت به لها بعد وصولها مباشرة قالت لي الدكتورة نازلي جاد المولى حين قرأته.. (كويس خالص دي شفيت تماماً من اللوكيميا)..

ولكنها ماتت..

لقد قضى العلاج على اللوكيميا وقضى عليها أيضاً.

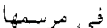
يوم وصولها إلى مصر انتظرتها سيارة الإسعاف قرب الطائرة فلم تكن تستطيع السير وكانت كلماتها متقطعة والاصفرار والإرهاق يبدوان بجلاء على وجهها حتى أني دهشت كيف سافرت وهي على هذه الحال!

حدثتني السيدة آمال فهمي المذيعة الشهيرة والتي كانت تجاور مقعدها بالطائرة بأنها حاولت الحديث معها أثناء الرحلة ولكنها كانت تهذي بأشياء لامعنى لها.. وفهمت إنها بداية الغيبوبة الكبدية والتي قال عنها الدكتور ياسين عبدالغفار بأنها بداية النهاية... وفهمت أنها جاءت لتدفن في مصر ...

وفي شقتها الصغيرة بالمعادي جلست إليها بعد الغياب بمفردي يوماً بأكمله وهو اليوم التالي لوصولها وأقبلت عليّ في لهفة وحب شديدين تحدثني بأشياء كثيرة عن رحلتها







فى مرسمها

الأخيرة وتفاصيل عن حياتها لم أكن أعرفها..

حين ذهبت إليها بعد ذلك كانت مستغرقة فى غيبوبة شديدة ولم تعد تتكلم أو تعى شيئاً.. وحضر سعيد شقيقها من الأسكندرية وزوجته ليلى وابنه على.. ثم حضرت بناتها الثلاث وأحفادها من سويسرا وتوافد باقى الأقرباء.

الرحيل

كانت ضحية ذكائها وملكاتها وطاقاتها بل كانت تلك الطاقات والثورات الداخلية أقوى مما يحتمل الجسد الرقيق فخر تحت وطأة كل مااحتمل.

لقد عانت هذه الإنسانة معاناة فوق احتمال أى بشر.. وربما كان عذابها فى الفترة الأخيرة مضاعفاً مما أدى إلى سرعة موتها..

بعد يومين تدهورت حالتها تماماً ونقلت إلى مستشفى(النيل بدراوى) وكان آخر حديث لها معى تليفونياً من المستشفى عن مفتاح شقتها وأشياء كان «نيفل» يعرف مكانها هناك..

مع قطرات المحلول البطيئة كانت تتسرب منها قطرات الحياة. الأطباء يروحون ويغدون أمام غرفة الإنعاش والتى بها رقدت..

لم يعد مسموحاً لأحد بالزيارة وأثار ذلك سوء تفاهم شديد فقد حضر أقارب لم نرهم أبداً وأصدقاء لانعرفهم والكل يريد مشاهدتها!! التفرج عليها!



الملكة فريدة فى شقتها



مع سكرتيرتها سامية

أمن أجل مشاهدة ملكة فى النزع الأخير أم هو التاج على فراش المرض ..أم شفقة مؤجلة.. أم حقد وتشف؟

كل ذلك مر بخاطرى وأنا أقرأ وجوه زوارها كلهم وإلا فأين كان كل هؤلاء أثناء حياتها؟!

ساعة أو سويعات ويكف الألم وينقضى العذاب..

يدخل علىٌّ ابن سعيد الشقيق ويجلس إلى جوار الفراش يقرأ القرآن.. وتنفرج جفونها للمرة الأولى والأخيرة.. ثم تمد يدها لتمسك بيده ووجهها يتألق وهى تردد: «لا إله إلا الله».

هكذا أراد الله أن ينطقها بالشهادة لتعود إليه خفيفة طاهرة الذيل.. بريئة من كل شىء.. طهرها المرض وغسلها العذاب..

وكانت شهيدة.. شهيدة المرض والألم الجبار والظلم والعذاب الطويل..

هكذا أراد أن يلقاها الله.. هذه المرة طالت الغفوة وحاولت بناتها إيقاظها لتوديعها والحديث إليها دون جدوى. وكانت (لاإله إلا الله) آخر كلماتها..

ورحلت فريدة..

رحلت فريدة مصر..

رحلت فريدة العصر..

وأعلن الخبر الرهيب فى الرابعة صباحاً وكنت فى فراشى بعد أن عدت إلى منزلى مرهقة منهارة.. اتصلت بى تليفونياً ابنة عمها «نيرفانا» لتبلغنى النبأ..

ولم تكن مفاجأة فالكل يتوقع ويعلم.

والكل ينتظر ويرى فى نهاية العذاب لها راحة وستراً.

ولكن كان لوقع النبأ فى نفسى لون وطعم ورجع فريد لايحسه أبداً سواى.. أنا صديقتها وألصق الناس بها وأقربهم إليها فى آخر سنوات حياتها وفى أقسى أيامها حتى كان وجودها جزءاً لايتجزأ من أيامى ومن حياتى.

كنت أتوقع.. أجل! ولكن ماأشق أن يتحقق مانتوقع وماأغرب الموت! إنه حقيقة كالوهم لاندركهاإلا حين تقع ومهما توقعنا وعلمنا بل تأكدنا فإن ذلك كله لايلغى المفاجأة ولاالصدمة ولاالحزن المروع العميق ولاالدموع المتدفقة المؤجلة.

فجأة وجدتنى فى ملابس الحداد.. فى شقتها وسط إخوتها سعيد وشريف ذوالفقار وبناتها فريال وفوزية وفادية.. وهم يتلقون العزاء!

رنين الهاتف لايهدأ وجرس الباب لايكف! فى حياتها لم يكن الباب يدق ولاالهاتف يسأل ولاالزوار يحضرون.

كان الصمت دائماً يخيم على تلك الشقة المتواضعة.



لوتس بجوار صورها فى حجرة مرسمها

ولكن الأمر تبدل اليوم بموتها، فالضجة تعالت واللغط ازداد، والزوار الكثيرون قدموا وكأن الجميع لم يعرفوا أنها كانت ملكة إلا اليوم.

عشرات المكالمات والزيارات.. الصحافة والمسئولون والأقارب.. تعزية.. استفسارات وأسئلة بلا آخر.. كيف ماتت؟ أين ماتت؟

لم يسأل أحد يوماً كيف عاشت ولأين عاشت؟.. و.. أسئلة كثيرة.. رحلة المرض.. قصة الفن.. علاقتها بالدولة، بالسياسة.. حياتها.. الأميرات؟ متى وصلن؟ كيف يعشن؟ ممن تزوجن؟ الأحفاد؟ الملك؟ أسئلة تبدو حيال الموت - كما أحسست - سخيفة، وفضولاً أسخف ليس هذا وقته.

ورغم عملى بها - فقد كرهت الصحافة لأول مرة كثيراً - فليس هذا احترام الموت وليس هذا تقديراً..

إنها لم تكن إنسانة عادية.

حيال الموت

هأنا مرة أخرى.. فى المقابر!

وياله من يوم! الخريف يلقى بظلاله الرمادية فوق المكان والسحب الملبدة تفترش السماء.. حتى مدفن (ذوالفقار) بالإمام الشافعى.. انتظم رجال الأمن فى انتظار الموكب! موكب الملكة تزف إلى مثواها الأخير!

و.. داهم الصحفيون أيضاً المكان بعدساتهم الوقحة وأقلامهم الجريئة.. الأشجار الضخمة تحيط بالأسوار وتظلل القبور.. نباتات الصبار تلتف فى التواءات حلزونية كأنها الثعابين تقتات على الأجداث.. كثير من الأعشاب العشوائية تنمو بكثرة حول الشواهد..

وشعرت برهبة وخوف شديدين..

أقبل الموكب.

وبدأ الحفارون سريعاً مهمتهم.. حاذيت الحفرة ووقفت



لوتس بين لوحات صديقتها الملكة فريدة فى مرسمها

أرقب فى رعب وذهول مايحدث.. حتى هذه اللحظة لا أصدق!

الصندوق يرفع إلى الأرض ويفتح.. وبخفة ترفع من داخله لفافة بيضاء صغيرة ونحيلة وكأنما هى تحوى طفلاً..

وتحمل الأيدى الجسد الرقيق درجة درجة داخل الحفرة.. ثم يتوارى عن الأنظار.. ويغيب!

أود أن أقفز. أن أساعدها كما كنت فى الحياة (الوحدة والظلام كيف ستواجهينهما وحيدة!؟

طالما شكت إلىّ الوحدة وطالما طلبت إلى الجلوس لأهون عليها وحدتها..

ويعلو صوت المقرىء يطلب الرحمة والتلقين بإجابة الملائكة عن اليمين وعن الشمال.. ويهال التراب.. وترص قوالب الطوب.. ثم يهال التراب مرة أخرى ويرش بالماء..

ثم مزيد من التراب.

وتسطح الأرض وتعود كما كانت وكأن شيئاً لم يكن! وكأنها لم تبتلع الكنوز والآمال والطموح والجمال والفن والمجد والتاريخ.. كأنها لم تبتلع عمراً زاخراً بالحياة!!.

وتهب نسمة حزينة فتهز أوراق الأشجار..ويتساقط البعض الجاف فيحدث ارتطامه بأسقف القبور فحيحاً طويلاً.

وتتصاعد فى الفضاء زقزقة عصفور شارد. وينعق الغراب فتردد أصداء صوته جدران القبور.

فيطفح الكيل ويطفر الدمع الحبيس.

فوزية الابنة المريضة تتهاوى وفادية تمسك بها ـ الخادمة الفلبينية «دوريس» تنتحب وهى تمسك بطرف ذيلى قائلة:



كانت طيبة معى.

وألتفت فأرى شقيقها سعيد يرتمى فى سيارته محمر الجفون.

وأمسك بيد إيهاب شفيق صديق الأسرة قائلين معاً : أحقاً لن نراها. ويجيبنى بالدموع.

حتى هذه اللحظة لم أكن قد استوعبت فى داخلى المعنى العميق للفراق.

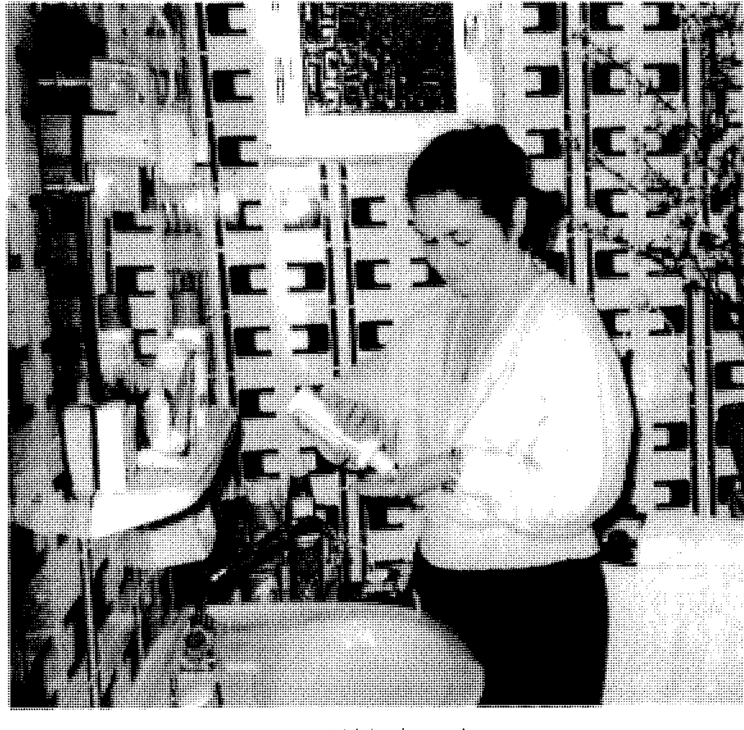
لم أقاوم دموعى قبل تلك اللحظة فقد خيل إلىّ أنها جفت.. وآن الأوان لتنهمر سيلاً لايتوقف حتى حجب عن عينى الرؤية.

أهذا هو الموت؟ ما الموت؟! الفراق؟! الغيبة؟! المجهول؟! التراب؟! الطين؟! الطين الذى يشتهى ويحقد ولايرتوى أبداً..

هل هو العدم، أهذا مكانها الآن حقاً؟..

أغادر المكان

تسير بى السيارة فى طرقات المدافن الترابية. ثم تجتازها إلى الشوارع.. لاأسمع الضوضاء ولاأرى المارة



فى حمامها الخاص

لاأحس الحركة.. لا صوت.. لارؤية.. لازمان.. لامكان.

اختفى كل شىء وتوارى حيث توارت وكأنما أخذت معها كل الأشياء!!

فى محراب الفن

توقفت السيارة.

أفقت..

هنا مسكنى.. وأسفله مقر مجلة «الشموع».. وإلى جواره المعرض الخاص بها والذى اختارت مكانه فرحبت برغبتها فى أول زيارة لها هنا..

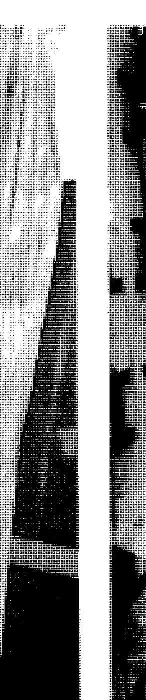
المحراب وطالما تعبدت فيه.

أدفع الباب الحديدى الصغير بيدى وأقف.. أتلفت حولى.

إننى أراها وأسمعها.. هاهى سيارتها اللادا الصغيرة البيضاء تتوقف أمام الباب.

الحارس العجوز يجرى ليفتح لها، يساعدها على النزول. تشكو..

إنها سيارة قوية وقيادتها متعبة .. ولكنها تستمر فى قيادتها ليس هناك بديل .. حتى فى أيام المرض.





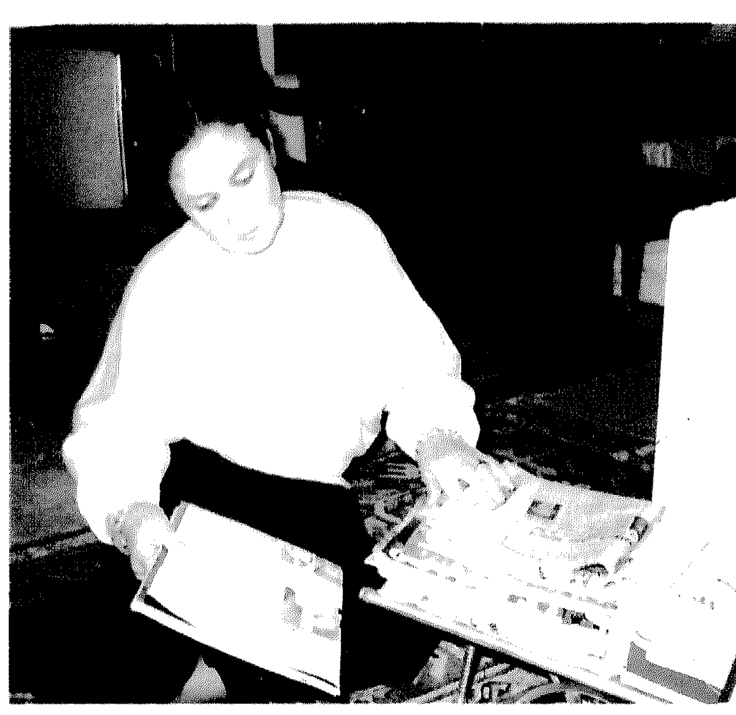
الأدوات والألوان الى كانت تستخدمها.

مصر موضوع لوحاتها

كانت تحضر فجأة متى ما عنّ لها الحضور واشتاقت إلى لوحاتها .. صديقاتها .. تقضى معها أسعد أوقاتها .. فى الترتيب، فى إعادة توزيع الأضواء وفى الحوار ..

كنت أرقبها ... تحاور كل لوحة حوارا خاصا، أحيانا صامتا وأحيانا ناطقا .

تحمل إحداها، وتحنو على اخرى فتنزيل مالحق بها من أتربة، وتغلف ثالثة بغلاف خاص أحضرته معها من باريس .. ثم تبدأ فى اللعب بالإضاءة.



أثناء متابعة الصحف

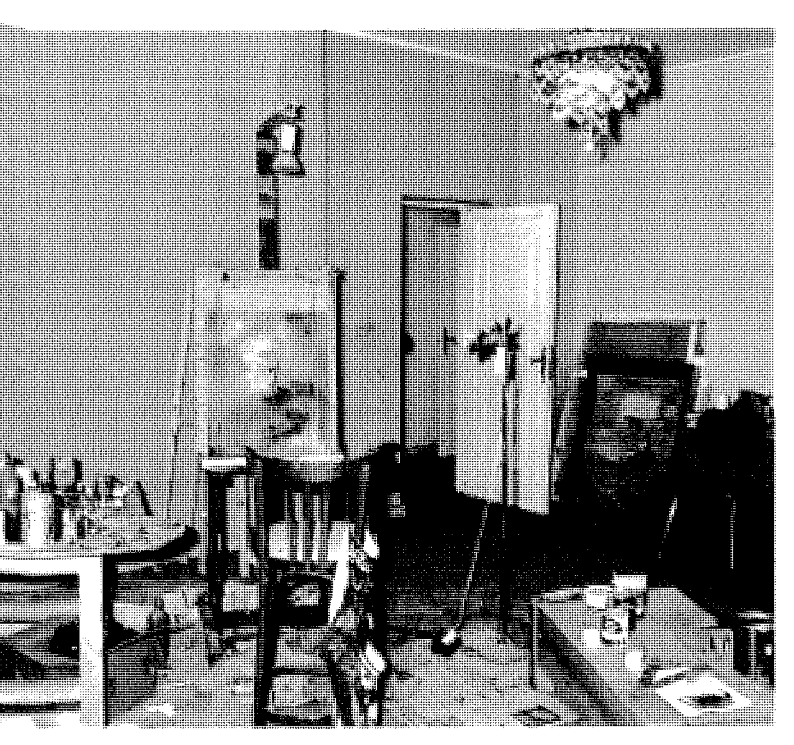


ركن من حجرة مرسمها

تتحكم فى المفاتيح فترسل إضاءات خافتة هادئة تضئ اللوحة إضاءة متدرجة لتعطى المشاهد الإحساس بمرور مختلف أضواء النهار : الشروق والغروب الشمس والقمر والظلام ..

فى أولى تجاربها أمامى بإحدى اللوحات أرى امرأة شابة جميلة ثم تحيلها الأضواء إلى عجوز شمطاء فى لحظة وأصدم وأسالها فتضحك وتجيبنى جذلى فخورة بأنها تعلمت هذا الفن (السنتسيزم) فى باريس ..

وربما كان فنها يعبر عن أحاسيسها الرقيقة وأحلامها



حجرة المرسم الخاص بها

الممتدة عبر ذكريات ارتبطت بماضيها : النيل .. الفلاحة .. النخيل ..

مصر هى موضوع لوحاتها ..

تهمس فريدة لطمى النيل وخضرة الحقول الزاهية وضوء الشمس الساطعة فوق مرآة النهر العظيم وتهمس لوجوه الفلاحين الكادحين البسطاء ..

تترنم بأغنية مصرية صاغتها ألواناً وأضواء وكتلا ومساحات ..

أنزل الدرج الصغير المفضى إلى الحديقة وإلى مكانها المفضل.

هكذا كانت تنزل .. وأيام المرض كنت أسندها وأساعدها على النزول أو يساعدها غيرى من الخدم إذا لم أكن موجودة وحين اشتد بها المرض كنا نحملها بالكرسى إلى معرضها أو مرسمها.

أسمعها تصيح فى البواب (لماذا لا تنظف المكان؟ ورق الشجر تكاثر فى الممر وتراب المعادى كثير .. لماذا تكرهون النظافة؟!) ..

هكذا كانت تنتقد باستمرار وبغيرة حقيقية وحب وحزن (القذارة، الإهمال، الكسل، سوء النظام) وكانت تقول :



فى معرض راغب إسكندر بنادى الدبلوماسيين مع الفنان صبرى راغب

«مسكين هذا البلد الذى لا يحبه أهله».

وصلت إلى المحراب ..

دفعت الباب .. انفتح

فتحت كل الأبواب بعد ذهابها .. وقبلها ما كان أحد يجرؤ على فتح باب أغلقته وأخذت معها مفتاحه !

دخلت .. مازلت أراها وأسمع صوتها .

بقامتها الرشيقة تتنقل فى المكان، ورأسها المرفوع دائماً يقول «أنا ملكة قبل الملك وملكة بعد ذهاب الملك ». ملكة رغم ثوبها الأصفر القطنى البسيط والذى كانت قد طلبت منى شراءه مع بعض الثياب المشابهة والمناسبة للعمل فى المرسم.. ثوب قطنى لا يعدو ثمنه جنيهات قليلة ولكنه يبدو عليها وكأن ثمنه يفوق المئات .

هنا وبهذا الزى كانت تتنقل كالفراشة بين لوحاتها وتلتقى بالجميع من زوار معرضها .. سفير فرنسا .. سفير النمسا . سفير أمريكا .. وكثير من الفنانين والوزراء والزوار العرب والأوروبيين . (عرفوا المكان وحضروا ليساعدوا أو ينقدوا أو يقتنوا أو يصوروا) .

وكنت أحضر تلك الزيارات دائما .. تخبرنى فى الصباح بمن سيحضر لأستعد .. وتستقبل زوارها ببشاشة وكبرياء دون تكبر وإباء، دون غطرسة .

وإلى أن يحدد الغرض وتبدأ جولة البيع والشراء والحديث فى النقود تتنحى فى حياء وتهمس لى فآخذ المشترى إلى غرفة مكتبى وأتكلم وأناقش - فى حدود رغباتها - ثم أقبض ولا تناقشنى فى الحساب بل تأخذ ما حصلته لها بسرعة وبشرط ألا يكون ذلك فى حضور أحد وبشرط ألا أسئ بأية كلمة أو تصرف إلى كرامتها .

وكنت أحاول إرضاءها وأحيانا كانت تثور وتنفعل وتنهرنى إذا علا صوتى أو سمع أحد حوارى - خاصة الخدم - وتقول «لقد اخترتك صديقة لأنك فنانة ومرهفة المشاعر مثلى ولأنك خبرت التعامل مع الطبقات المثقفة». وأجيبها : «ولكنى لم أتلق خبراتى فى أروقة قصر عابدين ..اعذرينى» وتضحك فى صفاء مثل الأطفال وينتهى سوء التفاهم .

كنت أقدر دائما انفعالاتها، أغفر حدة مزاجها، وأفهم نفاد صبرها وعدم احتمالها ولم يكن كذلك معها الآخرون..

أنتقل إلى غرفة أخرى ..

هنا كانت تغلف اللوحة المباعة بيديها وبأغلفة خاصة ولنا في هذا المكان ذكرى وذكريات.

ذات مساء قمنا ببيع إحدى لوحاتها لسيدة عربية حضرت واختارتها بنفسها وأخذت موعداً في اليوم التالي لتحضر وتستلم اللوحة وتدفع ثمنها - وفي الميعاد المحدد جاءت الملكة وغلفت اللوحة بعناية وانتظرنا فإذا السائق يحضر بالنقود ليدفع ويتسلم اللوحة بدلا من السيدة - وثارت الملكة قائلة : ترسل السائق بالنقود ! لا لن يأخذ اللوحة وردى إليه نقوده أنا لا أتعامل بهذه الطريقة .

وجاءت السيدة بعد ذلك بنفسها ولكنها لم تأخذ اللوحة.

زوار آخرون من كبار الكتاب والصحفيين والوزراء والأطباء .. مصطفى أمين وأنيس منصور ود . نعمات فؤاد .. كانت تناشدهم أن يكتبوا عما يلحق من دمار وتدهور بهذا البلد : الفوضى، التسيب، التلوث، الكذب، مأساة النيل .. كانت تقول إن هناك مؤامرة، مؤامرة حقيقية تحاك في الخفاء لتشويه جمال مصر .

مازلت أتنقل في الصمت المقيم بعد ذهابها - بين اللوحات للمرة الأولى وحدى .. صوتها الفضى يرن في المكان.. يلاحقنى أينما تلفت..

لم تكن تتركنى أو تترك أى إنسان يدلف إلى محرابها وحده .. وكانت تحتفظ بالمفاتيح جميعها في شريط طويل تعلقه برقبتها .

كانت تغلق الأبواب عدة مرات وكأنها تخفى كنوزا لا تقدر بثمن.. تعرف تماما كل ما نسقته بيديها ولا تقبل عبث أى إنسان .. حتى عملية التنظيف كانت تقوم بها خشية أن يلحق بلوحاتها أى ضرر - ذات مرة دخلت إلى المكان ثم نظرت إلىّ باتهام قائلة : من دخل إلى هنا؟ إن بعض اللوحات قد تحركت من مكانها وبعض النظام قد تغير .. وأقسمت لها أنه ما من مخلوق قد خطا إلى الداخل ولا أحد يستطيع ذلك، معها وحدها مفاتيح المكان.



مع لوتس وعبد الأحد جمال الدين وكيل مجلس الشعب



في أحد المعارض الفنية

وأثناء تنقلنا بالمكان اكتشفنا أن قطة كانت مختبئة بالداخل وهذا سبب التغيير وضحكنا كثيرا ..

كانت دقيقة، منظمة في عملها إلى حد الوسوسة ..

الآن فقط أتجول حزينة وبدونها في المكان .

وغادرت اللوحات بخطى متثاقلة .

اعتليت السلم إلى غرفة الرسم في الطابق الثانى ..هذه الغرفة بمسكنى الذى أعيش به اختارتها لأنها واسعة ومشمسة يطل شباكها على نخلة وارفة .

هنا في الضوء الكثير كانت تحب أن ترسم .

أخطو إلى المكان .

أفتح الغرفة .. رائحة العفن تصدم أنفى، منذ شهور والغرفة لم تفتح أو ترى النور .

ياللأسى، بعض اللوحات المرسومة ملقاة. على الأرض واللوحة الأخيرة فوق الحامل لم تكتمل وأمامها المرآة الطويلة كانت تستعين بها حين ترسم كعادتها.. وقد ترك البلل أثره فى الرسم الأخيرة فالتوت وهى بحاجة إلى الإصلاح..

مسكينة أيتها الفنانة التى عاشت أيامها من أجل الفن، أشياؤها الصغرى هنا فى هذه الغرفة وأشياؤها الكبرى أيضاً.. طاولة الألوان.. علب البويات بمختلف أنواعها وألوانها. الفرشاة بمختلف الأحجام والأشكال فى علب متراصة.. الألوان الزيتية والمائية والأقلام هنا وهناك.. كرسى صغير منخفض وآخر عال أمام اللوحة أحضرتهما من بيتها.. معلق بالكرسى العالى مريلة خضراء وعلى الأرض قطعة من الخيش المنفوش الممزق ملأى بالبقع والتراب وكثير من الجرائد القديمة.. وعلى مشجب ثوبان من الدمور البيج مثل ثياب المطبخ وفوط كثيرة نظيفة وأخرى قذرة وعلب من الزبادى الفارغة متراصة بنظام متلاصق وعلب للاستعمال من الصفيح الفارغ وأنابيب للمعاجين وعلب اسبراى ومناديل من الورق.

.. زجاجة مياه معدنية نقص منها مقدار كوب أظنها شربته أو شربها وتركا الباقى للزمن.. وقماش مشدود خاص للرسم شحنوه لها من أمريكا.

ماكان أكثر آمالها فى الفن ،.. التراب يغطى الأشياء..

مضت شهور منذ آخر مرة حضرت فيها إلى هذا المكان.. التراب والصمت الرهيب يلفان كل شىء.. الحزن.. الذهول.. الفراغ يكاد يزهق أنفاسى.. أحس بالفقد، بالخواء، بالصدى، بالمهزلة..

أهذا هو الموت؟! ماالموت؟!

أن يغيب أعزاؤنا بغتة فى أحشاء الزمن وتبقى لأصوات والذكريات..

كانت تقول «لماذا تخافون الموت وهو انتقال من مرحلة إلى مرحلة كالحياة تماماً ؟»

وهى القائلة : «لايخاف الموت من عاش حياته فى صراحة وصدق»

وهى القائلة : «الملك يزول أما الفن فتخلده هذه اللوحات. لايموت»

وإذا لم تموتى فأنا أراك حولى فى كل تلك اللوحات وبين كل هذه اللمسات.

ماذا أفعل بأشيائك؟ بكل بقاياك وماتركته خلفك؟ كيف أتصرف مع تلك المخلوقات الصغيرة التى تملأ الغرفة حولى؟ بل يخيل إلىّ أنها بدأت تتحرك وقد دبت فيها الروح لتتحدث معى عنك! وأنا لاأفهمها وهى لاتفهمنى لاأفهم لغتها وأسلوبها إنها تخصك وحدك. الفرشاة، المعاجين، الأكواب الفارغة، علب الاسبراى الألوان، المناديل، الفوط المستعملة واللوحات.

إنها آثارك، لمساتك، حركاتك، وأنفاسك وأصابعك

وجدتنى أحملق فى الأشياء وخيل إلى أنها أيضاً تحملق فىّ وتسألنى مامصيرها..

واجهتنى بصورتى المرآة الطويلة وأنا أتحرك . وارتجفت وهربت ومضيت أفكر ماذا أفعل بها. هل أجمعها فى صندوق؟ هل أنفذ مااقترحه بناتها بأن أتبرع بها لرسام فقير؟! هالنى أن يصل بى تفكيرى إلى هذا المدى

كلا.. لن ألمسها ولن يلمسها أحد. ولتظل كما هى لفترة أخرى طويلة. حتى يقضى الله فى أمرها

لقد شاهدت فى أوروبا بيوتاً بل غرفاً لفنانين وشعراء ماتوا وخلدتهم بلادهم بأن أبقت على كل أثر صغير من آثارهم.. بيانو كان يعزف عليه بيتهوفن قلم كان يكتب به هوجو. كرسى كان يجلس عليه فان جوخ ترى ألا تستحق فنانة عرش مصر أن تمنحها مصر تقدير الفنان وتخليد مصر فى هذا الفن. ؟!

وينقطع الحوار .

آوى إلى غرفتى بعد هذا اليوم المروع منهكة مرهقة حزينة أغمض عينى.. محال! طين الذكريات يطغى على



مع الدكتور رجب والشيخ رمضان سويلم ونيڤل ولوتس

كل المحاولات.. وأستسلم وأفكر من أين أبدأ؟!..

الملكة

أنا أؤمن بالقدر وأؤمن أيضاً بالإرادة..

وأعتقد أنه لو عمل كلاهما معاً لتحقق للمرء مايريد..

هكذا كان الأمر فى لقائى وصداقتى بالملكة فريدة..

لعب القدر دوراً.. وساعدت رغبتى الشديدة فى معرفتها ومسعاى إلى ذلك فكان مابيننا...

مرة أخرى أعود إلى شريط الذكريات.. من زمن طويل.. وأنا طفلة أجلس إلى النافذة.. أرقب فى فرح شديد الموكب الملكى بسياراته الحمراء وأبواقه العديدة، ومدينة الاسكندرية كلها تقف على قدم وساق حين ظهوره من قصر رأس التين...

وكنت أطالع الصور الخاصة بالملك والأميرات فى المجلات، وكانت تبهرنى صورة الملك والملكة فريدة لما فيها من وداعة ورقة أكثر من الجمال..

ومرت الأيام وعلمنا بما حل بها قبل وبعد الثورة.

وظلت صورتها فى خيالى وخيال الكثيرين مرتبطة بالإباء والنقاء والرزانة والذوق.

الملكية فى ناحية وفريدة فى ناحية أخرى تماماً ورغم ذلك فقد دفعت أخطاء الملكية حتى بعد تركها الملكية..

ولم يكن لها ذنب فى كل ماحدث لها. أحزننى وأحزن الجميع ذلك كثيراً..

ورحل فاروق ومعه الأميرات وبقيت هى فى قصر الهرم حيث بدأت رحلتها مع الفن ومع العذاب..

وهيأ القدر يوماً فرصة تواجدى فى باريس فى ذات الوقت الذى كانت تقيم به أحد معارضها الكبرى، هكذا قرأت فى الصحف..

وطرت فرحاً، سأذهب، سأراها وسأحادثها، تلك الأسطورة التى ارتبطت صورتها فى خيالى قديماً بالطهر والكبرياء والجمال الرفيع.



فى شقتها مع الذكريات

وذهبت ورأيتها.

رشيقة جميلة تماماً كما تخيلتها، إحدى ملكات الأساطير.. لكن حديثى معها كان عابراً .. مبتوراً ربما لاضطرابى الشديد أو خجلى أو احترامى.

كنت ضمن العشرات من الحضور.

اللقاء الثانى كان أيضاً بتدبير القدر ورغبتى.

فى البحرين حيث اعتدت السفر مراراً كانت هناك.

وسط لوحاتها وجماهير محتشدة ترحب بها.. لم تمكننى الظروف من البقاء ومحادثتها أكثر من دقائق.

وظللت أتابع أخبارها... حتى حانت الفرصة...

فى معرضها الأخير بالقاهرة عرفتنى.. وجدتها منهمكة فى ترتيب الحوامل وتنسيق الأضواء واللوحات.. ودهشت أنها تعمل بيدها كل شىء وتجلس على الأرض وتعاون العمال وتتسلق الدرج فى نشاط لترفع شيئاً أو تنزل أشياء.

بسيطة.. طبيعية.. وشعرت بالارتياح.. كان هدفى أكثر من مجرد الكتابة عنها فى مجلتى (الشموع). وحددنا موعداً للقاء فى شقتها صباح أحد الأيام.. ومرضت فلم أذهب لكنها بادرت بالاتصال ودعوتى للذهاب.. شجعنى ذلك وأسعدنى فذهبت..

رحت أبحث عن العنوان، المعادى السرايات شارع ١٤.. شارع صغير هادىء جانبى أين سكن الملكة؟ لاأحد يعرف أن هنا ملكات، لارقم على العمارة التى وجدتها أخيراً..

منزل صغير من أربعة أدوار، حديث البناء متواضع المدخل.

دلفت.. المصعد غير نظيف يحدث بابه صوتاً مزعجاً حين يفتح بالاحتكاك وليس به نور.

استعنت بالبواب.. لم يتحرك من مقعده ولم يبد أى اهتمام بمكان من أسأل عنها..

الدور الثالث شقة ٣٣ ..

أطفال حفاة يجرون حول السلم وخادمة فلاحة تفتح باب الشقة المواجه تحمل صفيحة زبالة وتصيح فى الأولاد هذا هو الوسط الذى تعيش فيه ملكة مصر السابقة

أدق الجرس، تفتح لى خادمة سمينة تربط رأسها بمنديل أسود وأدخل.

الشقة أكثر تواضعاً من العمارة

صغيرة جداً لكنها أنيقة ومنسقة . ألوانها بين البيج والرمادى توحى بحزن قاتم.

أول ماقابلت، طاولة صغيرة بجوار الباب عليها صورة الملك فاروق متوجاً وحده ثم صورة الملكة متوجة فى برواز آخر.

فى الداخل منضدة مستديرة وأخرى مستطيلة عليهما مجموعة من صور الملك والملكة والأميرات والأم والأب والأخوة.

الحادية عشرة صباحاً والشقة الصغيرة تسبح فى ضوء الشمس المتدفق من بلكونة صغيرة جداً تحيط بها الزروع والورود بها أريكة تجلس عليها الوالدة العجوز التى تجاوزت التسعين.

قابلتنى سامية. الفتاة الملازمة للملكة والتى تربت فى القصر، منذ ميلادها وهى تنظم مواعيد وأوراق الملكة وتلازمها وتطبخ لها أحياناً.

مازلت أتهيب لقاء الملكة.. كيف سأحادثها؟ مالون الحوار وماهى أصول المقابلة والحديث؟!!.

وجاءت..

صرح شامخ لم تدكه الصدمات هامة عالية لاتنحنى بعد زوال التاج..

ملكة جلست يوماً على عرش مصر وعاشت يوماً أمجاد مصر..

بسيطة! لكن لها حضوراً عجيباً ويشع فى عينيها ذكاء حزين.

ومرت لحظات مشحونة بالانفعال. هزنى وجودها، جلوسها إلى جانبى، اضطربت وتبخر الكلام لكنها سهلت لى الأمور وبدأت هى : تريدين الكتابة عنى! اكتبى عن مصر! وأشارت بيدها إلى لوحة فوق الحائط هذه هى مصر

بين التجسيد والتجريد تمثل امرأة فى خطوط أفقية داكنة تنحدر من عينيها دموع كبيرة ويلفها حزن قاتم

(هذه هى مصر المأساة) الدموع، الأحزان، الجمال والماضى التليد الذى ذهب

رسمتها بإحساسها. بحبها ولوعتها . إنها أعز لوحاتها فهى تسقط أحزانها وعذابها فوق لوحاتها وتصب كل أحاسيسها وتوتراتها فتسيل ألوانها دموعا وخطوطا، تحكى قصة الظلم والقلق والوحدة والآلام

استطردت : هناك مؤامرة تحاك فى الخفاء ضد هذا البلد المسكين من أجل تشويه جماله بأيدى أعداء غير مصريين لأن كل تشويه يتم فى البداية بسرية وتوحش غريبين حتى لا يشعر أحد .. ثم فجأة تجدنا أمام تمثال من القبح . أكشاك خشبية ، كازينو غير لائق، مبنى قبيح يحجب عنا جمال النيل .

إن المؤامرة خطيرة ضد النيل لأنه سر الحياة فى مصر ولا يمكن أن يتعمد المصرى تشويه بلاده .

هناك هدم وتحطيم لكل القيم الجمالية وهناك تدمير للأصالة والذوق داخل النفوس .. تغيرت مصر كثيرا!

تشعب الحديث بيننا وتطور فى نواح عدة .. وبدأت صداقتنا منذ ذلك اليوم وتعددت اللقاءات . جمعنا الفن والحوار وثقتها الكبيرة فى إعجابى الكبير بها .

نيفل بيرد

صديقنا الثالث هو (مستر نيفل بيرد) فنان إنجليزى أستاذ موسيقى، عاش بمصر أكثر من عشرين عاما، مثقف جدا، طيب، خدوم إلى أبعد حد، لون خدماته يختلف عما أستطيع أن أقدمه أنا فثقافاته متشعبة كأى إنجليزى، فى الكهرباء، الميكانيكا، السباكة، يجيد التصرف وقت الحاجة حتى عمل الشاى والطهو .. فهو كشكول فرص بتعدد مواهبه وخدماته وجوده على هذا المكان الصغير وقد راعنا نحن الاثنين ما كانت عليه الملكة من وحدة شديدة وافتقاد

للإخلاص فكان تعاوننا على رعايتها ومما سهل الأمور عشق نيقل لمصر عشقا بلا حدود وحبه مثلها لكل ماهو مصرى وأصيل، الفن الشعبى، الأزقة وحارات مصر القديمة بقلاعها ومساجدها وكنائسها وجذور ماضيها.

كان يأتى إلينا ببرامج الثقافة والفن اليومية فى كل مكان نختار منها ما يناسبنا ونذهب للمشاهدة .

رأينا منها عشرات المعارض الفنية وحفلات الموسيقى والغناء وعروض المسرح والكتب .

كنت أستعين بثقافتها وأنهل من خبراتها .. وكانت تأنس إلى صحبتى وترتاح إلى وجودى دائما بجوارها .

كانت صداقتنا رحلة جميلة ممتعة حافلة بشتى التجارب والأحداث والذكريات والثقافات .

فمنذ ذلك اليوم الذى اختارت فيه إقامة معرضها الدائم بنفس الڤيللا التى أسكنها ورحبت فى سعادة غامرة وقد تشاركنا - ليس السكن فقط - وإنما الآمال والمشارب .. تشاركنا الحياة .. كنت أفيق فى الصباح على صوتها بالتليفون فنتفق كيف سنمضى النهار أو نتبادل حل المشاكل بالتليفون أو تحضر هى لترسم طيلة النهار سواء كنت معها أو مشغولة وبعيدة.

نزلنا إلى دور ومعارض الكتب لتنظيم مكتبة خاصة بها وبالمجلة .. وكانت أستاذة فى اختيار ما ينقصنا وما يلزم فى هذا المجال. وامتلأت المكتبة بالموسوعات والكتب الضخمة فى الفن والأدب والنقد والموسيقى، كانت على درجة عالية من التذوق العلمى والفنى، كل كتاب بالإنجليزية أو الفرنسية تسمع عن ظهوره فى الأسواق تحاول الحصول عليه.

تحب جويا وڤان جوخ لكن عشقها الأكبر هو تولوز لوتريك والذى بدا أثره فى لوحاتها ..

وكان ضمن برنامجها اليومى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية على الأقل - لمدة ساعة - مرة زرتها صباحاً وظلت مختفية فى غرفتها ولما طال ذلك قلقت وذهبت لأدفع الباب برفق وإذا بها ممدة فى الفراش مغلقة العينين وجو الغرفة مشحون بالموسيقى العنيفة.



معاً فى إحدى المناسبات

ولم تشعر بقدومى حتى انتهت المقطوعة.

أما الموسيقى العربية والأغانى العربية الرخيصة فكانت تصاب برعب حتى لتوشك على الإغماء حين يدير السائق مصادفة راديو السيارة على أحد هذه المقاطع .

كذلك كانت ترعبها الألوان الصارخة والأذواق الهابطة ولا تطيق أن أشترى حتى لخادمة عندها ثوبا قبيحا أو غير متناسق الألوان قائلة: «هى لن تراه.. ولكن أنا ما ذنبى أنا لتعذبينى بهذا الذوق» .

وهى تفزع حين يقع بصرها فى الطريق - على أضواء النيون الخاصة بالإعلانات المختلفة، الألوان فى غير انسجام .. تلحظ بحسها المرهف النشاز فى المنظر والقول والعمل .

وجدتها مرة ثائرة لأن الصحف نفدت يوم خطبة جورباتشوف ونزلت بنفسها تبحث عند كل الباعة (لابد من قراءة هذه الخطبة ومعرفة ما يدور برأس هذا الرجل) . إنه اهتمامها الكبير بالسياسة والتاريخ كما كانت تقول :

(طول عمرى أحب أتابع الأحداث السياسية فى كل العالم وأحب قراءة التاريخ) .

ولم تكن لغتها العربية سليمة فكانت تطلب منى قراءة ما لا تستطيع هى تحصيله بقدر ما يسمح وقتى .

إيمانها العميق بالله

كانت تقول :

أتمنى أن أتعلم العربية تماما كما تعلمتها الدكتورة نعمات فؤاد .

كما كانت تناقشنى كل صباح فيما تكتبه الجرائد خاصة أعمدة أحمد بهاء الدين وأنيس منصور ومصطفى أمين وصلاح منتصر - ومن أحب البرامج التليفزيونية إليها كان برنامج (العلم والإيمان) للدكتور مصطفى محمود وكانت تتصل به أحيانا بعد البرنامج لتستفسر منه عما غمض عليها فهمه وتستزيد من شرحه عن قدرة الله تعالى .

اتصالها بالله وإيمانها به كان كبيرا، كانت عباداتها منتظمة قبل المرض أما بعد أن مرضت فقد اضطربت صلواتها لكنها كانت تذكر الله فى كل أوقاتها .

والمصحف يحتل كل مكان تحل به : فى سريرها، فى مكتبتها، بين ملابسها، فى حقيبة يدها وفى أسفارها، وآيات القرآن تزين المكان فى أشكال فنية كثيرة . وقد تفننت فى رسم لفظ الجلالة فى لوحاتها وهى تقول: لقد كنت أول من كتب لفظ الجلالة فى لوحاتى بعدها قلدنى كثيرون.

وكانت تؤمن بأن الدين قيم ونظافة وسلوكيات أكثر منه طقوساً .

بجوار مرسمها كانت غرفة بها سرير ترتاح فيها كلما عملت وكانت أحيانا تعتكف بها فى تأمل وصوفية عارمة ويخيل إلىّ أنها نائمة أو تناجى الله بلغة خاصة فأحترم خلوتها وصمتها ولا أقترب منها حتى تنتهى .

كان التصوف أحد أساليب حياتها وطريقاً ارتضته وساعدتها الظروف عليه .. الوحدة، والانطواء، والتباعد، التقلب بين الأحداث المثيرة الهزات النفسية العميقة .. الفن وإحساسها المرهف بالحياة .. كان أمامها طريقان إما التصوف والإيمان العميق أو طريق الجنون .. وانعكست نظرتها الصوفية فى ألوانها ولوحاتها

كانت تقرأ كثيرا فى كتب الروحانيات وتلجأ بإيمانها الفطرى للاستعانة بالقرآن الكريم .. وهى تحتفظ أيضا بالإنجيل وتقرأه، وكثيراً ما كانت تطلب منى أن أقرأ لها فى كتب التفسير وأفسر لها الآيات .

السحر أقوى

ثم .. كانت تؤمن بأن هناك قوى خفية تحيطها بالشؤم وتسلبها السعادة .

كانت دائما تردد : (نازلى كانت تكرهنى واستعملت السحر كى تعذبنى فى كل مراحل حياتى فحرمتنى أعز مالدى .. زوجى ثم أولادى ثم راحتى واستقرارى وأخيراً صحتى .. هكذا تطاردنى اللعنة الخفية أينما حللت)

هكذا كانت عقيدتها الراسخة .. السحر وكيفية التغلب بأى وسيلة على شر هذا السحر، فى القرآن الكريم ، فى كتب الدين، ثم فى أعمال بعض من يستعينون بالجان - وكانت تسجل أحاسيسها واعتقاداتها فى كثير من لوحاتها خاصة فى المرحلة الأخيرة . وجوه مخيفة؛ دماء وأصابع وأظافر وخطوط رهيبة داكنة وعيون مذعورة .

ذات صباح بادرتنى تليفونيا فى ذعر حقيقى : (الحقينى.. مادا حدث؟ تعالى . وجدتها تمد لى يديها بخاتم دهبى كان ملازما لأصبعها عليه التاج الملكى وقد انكسر من باطن اليد ونقصت منه قطعة بمقدار ملليمتر).

قالت لى : فسرى دلك .. صحوت من النوم وجدته فى أصبعى بهدا المنظر - والادهى أن هناك قطعة ناقصة منه يعنى كسر غير عادى بفعل غير عادى.! وطلبت منى الاتصال بالدكتور مصطفى محمود فقد يفسر هده الأمور الخفية. ثم الذهاب إلى أحد الصاغة وسؤاله عن خواص الذهب وكيف يمكن أن يحدث هذا - وضحك الدكتور مصطفى محمود وأجابها متفكها : مفيش عفاريت أثناء نومك يمكن أن تفعل هذا بالخاتم لكن إذا كان ده خاتم الملك والملك لله وحده فأحسن شىء هو التبرع به للمسجد أى لله).

ولم يعجبها كلامه ولم تفرط فى الخاتم .

وقال الصائغ ربما استعملت مادة أثناء الرسم أثرت على الذهب فانكسر. ولكنها تصر (والقطعة المفقودة ؟!) ولم تقتنع وخلعت الخاتم واحتفظت به فى علبة خاصة

وفى الصعيد دهبنا إلى أحد جهابذة علم الأرواح والاتصال بالجان وفك طلاسم السحر وقضينا يوما بأكمله فى أحد الأبنية النوبية القديمة وهو يقرأ لها القرآن والرقيا ويطلق البخور لمحو تلك اللعنة التى سطرتها نارلى ودفنتها فى قبر مجهول منذ خمسين عاما، ثم أخذت معها أحجبة كثيرة للاستحمام ببعضها والاحتفاظ بالبعض الآخر كما أمرها الرجل، وحين وصلنا فى المساء طلبتنى مرتاعة وهى تقول همساً: هل علمت بما حدث؟ لقد اختفى الحجاب وسط المياه التى أعددتها للاستحمام بل تبعثرت المياه وسالت على الأرض ولم أستطع الاستحمام أبدا!.

إن السحر أقوى من أن ننتصر عليه .. !

فى ذلك المساء طفقنا نحكى عن الأرواح وحكايات عن السحر .. ولم تنم، فى الصباح قالت لى : عندى مفاجأة! ورفعت غطاء أبيض فى غرفة نومها من فوق حاجز أمام الشباك فإذا بلوحة صاخبة الألوان مطموسة المعالم تطل بها وجوه مخيفة من قلب العتمة .. قالت لى إنها أمضت الليل تفرغ فيها شحنة رعبها وحاولت أن تجسم بها تلك (القوى المجهولة) - وأطلقنا عليها ذلك الاسم ..

هده هى الملكة؛ البسيطة فى عقائدها، المثقفة، المتناقضة مع نفسها فى شتى المجالات.

شريط الذكريات

وبعد .

فما بقى لى منها بعد ذلك هو تلك الومضات الساحرة واللوحات المنطبعة فى الخيال وفى الواقع ..

لوحات أتحسسها بأصابعى ولوحات أعيشها بقلبى وخيالى وتحفظها ذاكرتى لأستعيدها كلما أحببت أن أحياها معها مرة أخرى ومرات .

فصورتها لا تغادرنى فى ثيابها القطنية البسيطة . فى مرسمها تمارس أحب هواياتها وتعيش وتعمل بين لوحاتها.

ثم

فى شورت قصير أسود - قبل مرضها - نشيطة تمارس تمريناتها الرياضية أو تستمع إلى الموسيقى وتعمل بمنزلها.

كل الناس زمان كانوا مؤدبين

ثم ها هى صورتها مرة أخرى، توب تراكواز يبرز نصاعة جيدها بينما يلف شعرها إيشارب حريرى أبيض .. تقف معى على رصيف كورنيش النيل بالجيزة فى بساطة شديدة وسط حشد من الصعايدة والمارة تصفق معهم كالأطفال وهى تشاهد فى فضول رقصات الخيل العربية أمام سفينة الدكتور حسن رجب (رائد البردى) - إنه معرض الشيخ رمضان سويلم الفنان الشعبى.

فوق المركب تقوم سيدة أنيقة فى مثل عمرها فتصافحها ثم تتنحى عن كرسيها فى احترام لرجل مسن .. وأنظر مستنكرة لأنها سيدة فترد على بدهشة (إنها لا تفعل سوى الواجب وكل الناس زمان كانوا كده مؤدبين) ..

تارة أخرى فى سهرة شعبية بالأتيليه حيث جمعية أصدقاء سيد درويش مع أبناء الفنان وأصدقائه، تجلس القرفصاء فى تواضع بينهم وتردد الأغانى القديمة معهم وهى تشدو مستمتعة بفن ذلك الفنان المصرى الأصيل الصميم .

كانت متعصبة لكل ما هو مصرى صميم وأصيل كانت تقول، إن مصر هى الريف .. الحوارى . الفلاحون والصعيد .. الجرة . القلة . الزير . هذه الأشياء الأصيلة أصبحنا نفتقدها فى حياتنا .

وفى مطعم فلفلة كثرت زياراتنا لأكل الفول والطعمية والطحينة والبصارة كانت تقول إن الفول أحب وأشهى إليها من كل اللحوم .

ويتعاقب على خيالى صور أخرى عديدة تحمل الذكريات..

أراها فى روب كحلى حريرى منزلى تتناول الشاى فى هدوء، فجأة يدق التليفون وترد ثم تنفعل ويعلو صوتها بعصبية شديدة تفقدها الكثير من جمالها واتزانها .



فى أوبرا عايدة

هكذا كانت فى آخر سنى حياتها وكان ذلك يفقدها الكثير من أصدقائها، لم يكن أحد فيما يبدو يغفر عصبيتها لأن أحداً لم يكن يكلف نفسه جهدا فى سبيل فهمها أو احتمالها أو التماس أى عذر وراء انفعالاتها .. ولكن أنا «ونيڤل» كنا أكثر الناس احتمالا وفهما لها، لذا استمرت صداقتنا حتى آخر لحظاتها .

كانت كالطفل الذى ينطلق صياحه تلقائيا دون قصد من أذى أو شر بدون سبب ظاهر!

إن كل أسبابها تصطرع بالداخل ولا يمكن أن تبوح تفصيليا لإنسان بما تشعر .. ما هو عذابها؟ ومن هم معذبوها وكيف ومتى ولماذا ؟؟

طريـق الآلام

كل الجروح والإهانات والآلام بدأت معها منذ كانت صبية فى أول شبابها ومنذ بدأت تتناول المهدئات كما حكت لى .

بعد أول يوم أنجبت فيه ابنتها الكبرى فريال وخاب أمل الملك وأثناء انتظاره وليا للعهد فى كل مرة تحمل بها كانت تعيش على العقاقير والمهدئات طيلة فترة الحمل بل انحدرت إلى تنفيذ الوصفات البلدية للمساعدة على إنجاب ولد.

هكذا كان يقتلها التوتر والقلق .

ثم تأتى الولادة ومعها بنت أخرى ..

ويشتاط فاروق غيظا.

ويقوم جدار غير منظور بينهما وتنهار وتستسلم أكثر للعقاقير ..

منذ ذلك الحين وهى تعانى نوبات الاكتئاب الحادة .

ثم بدأت الجفوة بينها وبين الملك تتسع بعد ذلك إلى أن أصبح الجرح جرحين بعد أن تعرف إلى إحدى وصيفاتها بالقصر وهى سيدة على جانب من الوقاحة كانت تكيد لها

وتجاهر بعلاقتها بالملك .. وأدى ذلك بالملكة إلى تحديد علاقتها به حتى أصبحا غريبين تحت سقف واحد.

كان ذلك بداية طريق الآلام.

أذكر مرة ونحن فى طريقنا إلى المستشفى إثر إحدى نوبات مرضها الأخير كانت تمسك بكلتا يدى وهى ترتجف كأنها تتوسل وتردد : أريد مهدئا كبيرا قويا يطفئ كل أحاسيسى فأنسى .. أنسى تماما كل حياتى وأرتاح ..

فى لحظات ضعفها كانت تفضى وتبوح .. فهل كانت تصبو فعلا إلى قتل نفسها لا شعورياً؟!!

كثير من التناقض يبدو لى تجاه مسلكها مع نفسها .. فأنا أراها فى أحيان أخرى كثيرة تعشق الحياة إلى حد التفاؤل والأمل وهى فى قمة اليأس.

وكثيرا ما فكرت فيما حدث لها وهلعت، إنه شئ فوق تصور البشر.

ملكة فى قمة المجد والأبهة والترف تخلع بيديها التاج لتهبط بعد ذلك إلى أدنى من مستوى امرأة عادية، كيف؟! كيف استطاعت أن تقنع بالحياة وحيدة فى غرفة صغيرة فى شقة متواضعة فى الغربة بباريس! اشتراها لها شاه إيران السابق وعلى دخل محدود كان يرسله لها وأحيانا كان مكسبها الضئيل من بيع لوحاتها؟.

كيف؟! وقد باعت ملابسها هناك قطعة قطعة لتسد مصاريف الأطباء بعد انهيار عصبى شديد أصابها .. تستعيد قوتها مرة ثانية ويدفعها الأمل إلى الحضور لمصر لمحاولة البدء من جديد وبأمل آخر جديد ..

قوة ما بعدها قوة ..

كانت تحب اللون الأخضر .. أذكر يوم اختارت مقر معرضها بالدور الأرضى لدى .. نظرت إلى زرع الحديقة الذابلة ولم تعجبها وأحضرت البستانى وأمرته بتشجير المكان وإحضار نباتات اقترحتها وزرع الزهور فى كل مكان وأخيرا وقفت بإعجاب وحماس تنظر لما حولها قائلة: «هكذا يستطيع الإنسان أن يعيش وسط الخضرة والزهور، بقى أن نجمل المكان أكثر بالكراسى ونجتمع كل مساء وندعو الأصدقاء وترسل لنا رتيبة الحفنى فرقة أم كلثوم



فى شقتها بالمعادى

العربية لتعزف وتغنى وتدعو لنا د. نعمات فؤاد الأدباء والفنانين وأعرض لوحاتى وسط هذا الحشد الفنى الجميل .. هيا نعيش»!

لم تكن تتحسر أبدا على ضياع الملك أو القصور والجاه والمجد بل كانت على استعداد للحياة البسيطة فى أى مكان صغير ونظيف ومريح والاستمتاع فى حدود استطاعتها.

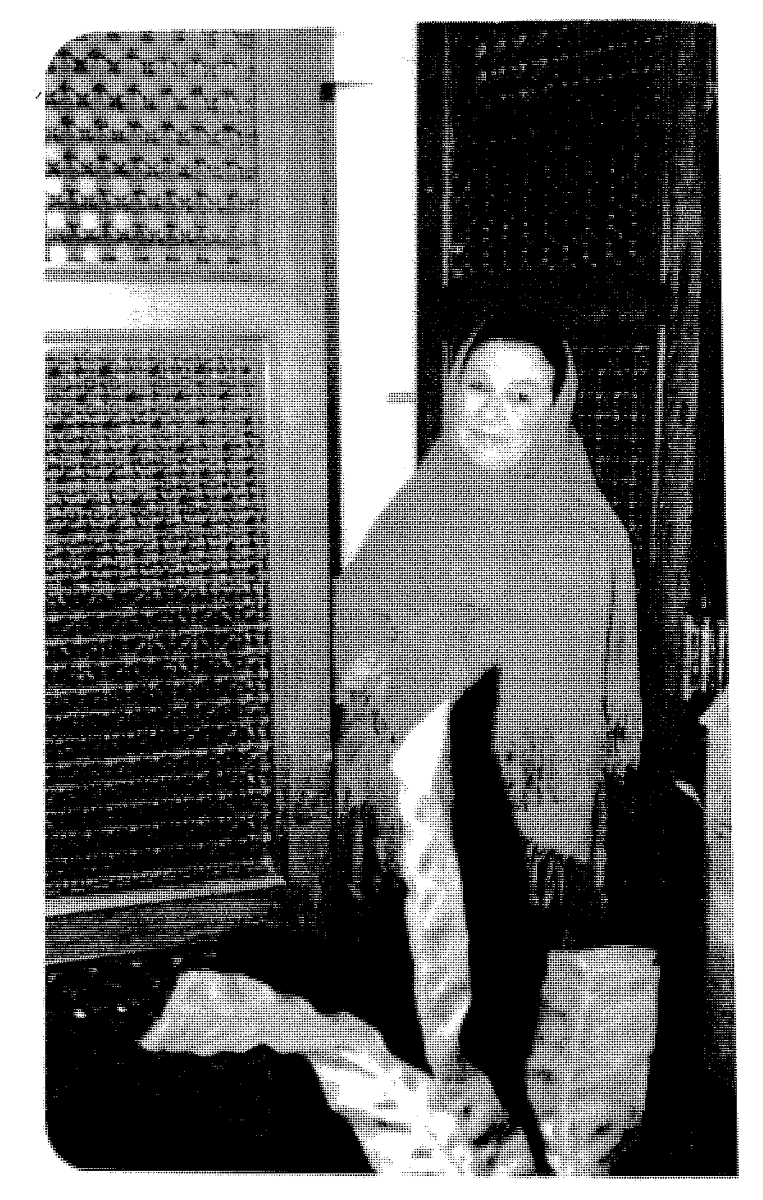
لم تكن تيأس أو تستسلم ولم تكن رافضة للحياة.

رأيتها يوم اكتشف الأطباء مرضها اللعين (اللوكيميا) تقضم التفاحة بشهية وتخبط بقدميها الأرض صائحة مثل الأطفال «المرض بالشلوت! سأعيش وأتغلب عليه ..»

كيف كانت تتأرجح رغباتها بين الحياة والموت؟!.

الإنسانة

وأمضى أتحسس ميدالية ذهبية فى سلسلة بصدرى أهدتها لى فى عيد ميلادى، مرسوما عليها عين مكتوب



في شقتها بالمعادى

بها الله .. إنه دائما الخوف من الحسد واللجوء إلى الله.

وأسألها يوم عيد ميلادها ماذا تحب أن أهديها فتطلب قرطا مستديرا من الفضة، هذا القرط وجدته ضمن أشياء تعتز بها تخفيها فى درج خاص بها - وهى تقول أحب الفضة كثيرا وأتفاءل بها ..

هكذا كانت تخفى أيضا عواطفها وربما أظهرت عكس ما تبطن . ولكن كثيرا ما كنت أضبطها متلبسة بتلك العواطف والمواقف الإنسانية.

أمام قبر فاروق

ذات يوم قارس البرد من أيام الشتاء طلبت منى الذهاب معها بسيارتى إلى المقابر.. وحين شارفنا مسجد الرفاعى طلبت منى الابتعاد قليلا ونزلت وحدها تزور قبر فاروق وغابت أكثر من نصف ساعة ثم عادت محمرة العينين من البكاء .

هذه الحادثة تكررت كثيرا ولا يدرى أحد لماذا كانت تذهب؟ حقيقة مشاعرها فى العودة، أكانت تسعد بتلك الزيارة أم تكفر عن ذنب لم تقصد أبدا ارتكابه فى حق صاحب القبر؟طالما قالت ردا على اتهامات أقاربها وذويها (لو كنت أعلم أن افتراقى عنه سيسبب له كل تلك المشاكل وسيغير وجه تاريخ مصر كما تقولون ما طلبت أبدا طلاقى منه) .

كان ذلك الشعور بالذنب يلازمها حتى آخر أيامها وكانت تشعر فى عذابها بأنها تكفر عن ذنب تخليها عنه فى زمن حرج، كان بحاجة فيه إلى احتواء مخلص من أقرب الناس إليه وهى تقول : (إن فاروق ظل طفلا طوال حياته وبحاجة إلى أم ترعاه بعد أن تخلت عنه أمه وانصرفت إلى حياتها الخاصة وكانت تغار عليه وتحيطه بسيطرتها وتؤذى كل من يحبه) .

وأسألها فى قمة عذابها :

لماذا فعلت بنفسك ذلك؟

وأستطرد .. كل النساء تعيسات، الغنية منهن والفقيرة ولم أر واحدة تضحى بسهولة بالزوج أو البيت أيا كان .. وألح فى فضول :

لماذا لم تتزوجى؟

كنت جميلة ورائعة وبعد الملك ألف من كان يطمع ويريد ألم ترى فيما فعلت جاكلين كيندى الصواب وهى التى كانت ملكة على أكبر العروش؟!

ثم أعاود الإلحاح ..

ألم تندمى بعد كل ما أصابك؟

وكيف تحسين اليوم بمكان فاروق؟

ثم ...

ألم يكن ملكاً؟ أيحاسب الملوك كما يحاسب الأزواج العاديون؟

أكنت امرأة عادية حتى تغارى وتغضبى؟

أليس فى التاج والعرش مسئولية تكفى لكبح جماح العواطف وتقييد المشاعر والارتفاع فوق معانى الكرامة والكبرياء والأنوثة أو استبدالها بمعان أخرى تناسب الملكية؟

ألم تكن لك رسالة تفوق فى أهميتها كل هذه المفاهيم؟

وهى .. تارة تجيب وأخرى تلوذ بالصمت .. تارة تجيب بحدة ثم بهدوء .. ثم بشرود ثم بثورة.

إجابات كثيرة ومتعددة ودائما وأبداً تحتفظ لنفسها بالكثير..

قالت : هو والد بناتى وهو الذى جعلنى ملكة.

وقالت : لا أحد يعرف فاروق كما عرفته وكل الناس أساءت به الظنون. لقد كان طيبا وكريما ونقيا وكان ضحية الذين يملأون القصر وكنا أطفالا بجانبهم وبلا أدنى خبرة بالحياة ..

لا .. لم يكن تهورا منى طلب الطلاق ولكننى كنت طفلة لا أبصر النتائج.

- فاروق لم يكن يريد لكنهم أجبروه على توقيع وثيقة الطلاق، كما طلبوا منى إرجاع هدايا الزواج: التاج والعقد وكثير من أشيائى ..

- لقطة إنسانية أخرى .. حين كانت تعاودها نوبات الاكتئاب كانت تنبطح أرضا وتأخذ والدتها فى أحضانها وتظل ساكنة هكذا ساعات طويلة .. بل كانت هذه الأم التى تعدت التسعين من عمرها والتى لا ترد ولا تتكلم أو حتى تعى شيئا .. كانت تأنس إلى صحبتها وتحدثها كما لو كانت تسمع أو تفهم قائلة لى : (إنها لا تعرفنى ولكنها الإنسان الوحيد الذى يسعدنى الجلوس إليه) وظلت حتى آخر يوم فى مرضها تمشطها وتعد بنفسها حمامها وتعطرها وتعالجها وتعتنى بها فى حب وعذوبة شديدين .. تدللها وتخشى عليها من البرد ومن الحر .

ذات مرة طلبت منى أثناء سفرى شراء مروحة صغيرة جدا ذات بطارية لتضعها بجوار رأسها حين يشتد الحر، كذلك مجفف للشعر رقيق وأنيق تستعمله حين خروج الأم من حمامها حتى لا تبرد.

كانت تفتقد الأصدقاء وتغضب وتحزن إذا تخلفنا أنا ونيفل عن زيارتها يوما أو يومين، كانت تقول: لقد تركت باريس بعد أن عذبتنى الوحدة بها كثيرا إلى مصر حيث آنس بدفء الناس.



فى الحنطور فى شوارع أسوان

وحين يلح عليها الأطباء فى منع المنومات كانت تقول لنا: إذا مكثتم إلى جوارى فلن أتناول المنوم أبدا.. إننى أتغلب به على الوحدة!

وكثيرا ما كانت تنتابها نوبات من الرعب والهلع لتصورها نفاد نقودها فتموت من الجوع أو تذل أو تهان فيدفعها القلق إلى مضاعفة جرعة المهدئات مما أثر على الكبد فى أعوامها الأخيرة.

وتتوالى الصور

فى شوارع المعادى السرايات .. بعد الغروب، والصمت يلف الأشجار والبيوت والظلمة تزحف على الطرقات ..

أسير إلى جوارها كعادتنا معظم الأمسيات ..

أقول لها : أتدرين أن السير بالمعادى فى ذلك الوقت أصبح خطيرا فالحوادث كثيرة؟.. ترفع بيدها عصا وباليد الأخرى بطارية وتقول : معى هاتان فمن يقترب منا ألقى الضوء على وجهه وأحطم رأسه بالعصا.

وأضحك فتجيبنى جادة:

أنا لا أخشى أحداً أبدا - لا أخشى إلا الله والله معى دائما.



فى أسوان بين حفيديها شامل وعلى ولوتس بجانبها

رغم كل شيء كانت تؤمن بأن عناية الله تحرسها وكل ما يحدث لها هو خير رغم الشر فى ظاهره!

... فى جبل المقطم كل عصر نصعد لدقائق، تنعطف بنا السيارة وتقف فى أحد المنحدرات.

معها (ترموس) مليء بماء البقدونس المغلى .. أصب لها وتشرب، تشرب كثيرا ..

كانت تميل إلى الأعشاب ولا تحب الدواء، تستنشق الهواء النقى فى متعة وهى تقول : يا ليتنا نسكن هذا المكان النقى أستمتع بالسكون وغروب الشمس وراء الجبل وصفاء الجو بعيدا عن القاهرة.

كانت لديها آمال خاصة وكانت تتوق للحياة بطريقة أقرب إلى الزهد منها إلى المتعة الحسية.

مجوهرات الملكية مزورة

و .. تقفز إلى ذهنى صورة أخرى جميلة أتوقف بالذاكرة لأتأملها مليا .. فى ثوب من قطعتين آية فى الأناقة منقط أبيض فى أسود وهى تميل لتركب بجوارى السيارة فى طريقنا لأحد المعارض .. وأشهق من الإعجاب!

هذه الأناقة المفرطة والبساطة المفرطة والرقة والذوق والاحتشام حشد اجتمع فى هذه الإنسانة الرائعة وذوب شخصيتها ولب جوهرها فهى تبهر وهى تفتن دون تصنع أو مبالغة وهى تترك أثرا غير عادى فى قلب من يجيد معرفتها.

وأنظر بإعجاب إلى قرط كبير من اللؤلؤ فى أذنيها، وأسالها بفضول :

أبقى لك شئ من مجوهرات الملكية ؟!

وتضحك كثيرا وهى تجيب (ده فالصو يا عبيطة، هل تظنين لو بقى لى شئ كنت أصل إلى هذا الحال! لقد مضت سنون منذ سلمتهم مجوهراتى وأنا لا ألبس إلا الفالصو).

فهل يتصور أحد أنها جمعت بيديها كل كبيرة وصغيرة من مجوهراتها وذهبها وسلمتها بيدها فى طبق لرجال الثورة يوم زاروها ولم تحتفظ لنفسها بأقل شئ وكان يمكنها ذلك بسهولة بل إنها عثرت بعد ذهابهم على أشياء نسيت أن تضعها ضمن ما أخذوا فاستدعتهم لأخذها ثانية!

بهذا الخلق كانت فريدة تواجه الحياة حتى آخر يوم لها.

وحين سألت نبوية الدادة التى رافقتها فى طفولتها وكانت معها فى ذلك اليوم تحمل ذلك الطبق الثمين، لماذا فعلت ذلك يا دادة نبوية؟ فتجيبنى العجوز لأنها مش حرامية.

وكانت تظن أنهم سيخجلون ويعاملونها بالمثل أو يقدرون ما فعلت ويعيدون لها بعض أشيائها ولكن ليس كل إنسان تربى على نفس الخلق!

وتؤكد الملكة لى: لقد رأيت بنفسى مجوهراتى فوق صدر إحدى زوجات رجال الثورة ويا ليتها ذهبت لمصر أو حتى بقيت فى المتحف .. ثم تعقب معلقة على ما عرض من مجوهرات أسرة محمد على أخيرا فى قصر الأميرة فاطمة بالإسكندرية:

(إنها جميعها مزورة وليس فيها شيء واحد من مجوهرات الأسرة الحقيقية والتى سرقت لأنهم لم يكونوا يدركون قيمتها) ..

وقبل أن يشتد بها المرض جاءت سيدة عربية وعرضت عليها إقامة معرض للوحاتها فى بلدها نظير أن تقبض ثلث ثمن كل لوحة مباعة. وقبلت فريدة على مضض واتفقنا

على الميعاد .. واتصل بنا مندوب وزارة الثقافة بنفس البلد بعد ذلك يعرض عليها إقامة المعرض بدون أن يتقاضى من البيع شيئا وفرحت وقلت لها: هذا العرض أفضل، لكنها رفضت قائلة:

لقد وعدت من سبقت وأنا لا أرجع فى كلمتى ولا أكذب..

هكذا كانت وبتلك المبادئ تواجه الحياة حتى آخر يوم.

رحم الله الملكة الفنانة، فقد ضحت وعانت وعاشت من أجل القيمة والمعنى والجمال.

وفى مرارة تذكر قصرها بالهرم الذى استولت عليه الثورة عقب سماحهم لها بمغادرة البلاد بعد احتجازها دون ذنب ستة أعوام والحيلولة بينها وبين رؤية بناتها اللاتى سافرن إلى الخارج مع والدهن الملك.

لم تكن تتصور أنها حين تعود فسوف تجدهم وقد استولوا عليه ولم يعد لها مأوى فى بلدها مصر .. وبعدها الرئيس جمال عبدالناصر بتعويضها عن ثمنه ودفعه لها بالخارج وتنتظر الشهور والسنوات دون جدوى ثم تأتيها المعونة من شاه إيران - تسمع بعد ذلك أنهم استعملوه مقرا عسكريا فى عهد السادات ثم بيع بأقل من ثمنه كثيرا لأحد شيوخ البترول.

جمال سالم يطلبها للزواج

وللأمانة والتاريخ أجد لزاما علىّ ذكر حادثة .. أخبرتنى بها وهى أنه فور موافقة الرئيس جمال عبدالناصر على عدم المساس بشئ من ممتلكاتها، زارها الضابط جمال سالم وكان رئيسا للجنة المصادرة وليخبرها بالنبأ ثم .. طلبها للزواج وثارت ثورة عارمة على ذلك (المحسوب على الثورة) وطردته شر طردة .. وبعدها توالت عليها النكبات دون ذنب ودون رحمة.

وحين ضاقت بها الوحدة والحياة فى باريس بعد سويسرا واستعانت بالرئيس السادات سمح لها بزيارة مصر وأمر لها بشراء شقة محترمة بالجيزة على النيل ثم قال لها لا تسافرى قبل استلامك الشقة.

وتستطرد : لكنى حين ذهبت للسيدة جيهان السادات رفضت تسليمى الشقة وطال بى الانتظار حتى نفدت نقودى وليس من مكان لى أرتاح به فى بلدى فغادرتها مرة أخرى إلى باريس.

ثم أخيرا وفى شدة مرضها استعانت بالرئيس مبارك الذى رحب بها فى مصر ثانية وحملت لها السيدة سوزان مبارك المبلغ الذى خصص لها فتمكنت به من شراء شقتها الصغيرة فى المعادى والسيارة اللادا الصغيرة فاستقرت بمصر.

وحاولت الاتصال بالمسئولين لرفع معاشها الذى كان مائتى جنيه شهريا ولكن قيل لها أن هذا أكبر معاش فى الدولة أما ما يصرف لزوجات الرؤساء السابقين فلا يسمى معاشا بل مخصصات.. ولماذا لا تصرف مثل هذه المخصصات لهذه المسكينة لتعويضها عما أخذ منها دون ذنب جنته؟!

سؤال بلا حواب، كتب عليها أن تكد وتكدح حتى آخر يوم فى حياتها وتعيش من عرقها.

وأعود مرة أخرى لأستعرض لوحات الذكرى ...

فى الاسكندرية .. وقد أقبل الشتاء بسمائه الملبدة بالغيوم وبحره الأزرق العميق ولسعة برد تسرى فى الهواء تضاعف الشعور بالحزن والكآبة.

أمام قصر المنتزة.

(لا .. ابتعدى بى من هنا لا أطيق رؤية هذا المكان، إنه يثير فى نفسى أتعس وأجمل الذكريات .. لقد قضيت به أغلى أيام عمرى).

لحظة قصيرة ولكنها مشحونة بالأحاسيس وأنا أقف بها أمام شيراتون المنتزة فى مواجهة القصر حيث بدأوا يحفرون للبناء.

فزعة لطوفان الذكريات .. تأمرنى بالابتعاد.

وأبتعد ... أحترم شعورها ولا أسألها أو ألح فى المواساة حين ألمح فى عينيها الواسعتين دموعاً لا تجف.

ولكن أكانت هكذا تجاه كل أماكن ذكرياتها؟! على العكس تماماً، فى أسوان حين دعانا المحافظ اللواء قدرى عثمان للعشاء واختار خصيصاً تكريماً لها - جناح فاروق فى فندق الكتراكت والذى قضت به فترة فى شهر العسل - لقد بدت سعيدة وهادئة هدوءاً غريباً فى تلك الليلة متشبثة بالبقاء أطول مدة ممكنة. ماذا حرك خواطرها أيضا فى تلك الليلة وأثار أحلى أفكارها حتى طغت على كل هذا السحر



السيدة لوتس عبد الكريم، تحادث الأميرة فوزية وليلى زوجة سعيد ذو الفقار شقيق الملكة فى شقتها بعد موتها.

والجمال والهدوء؟..

لغز يتحرك، بل روح تهيم بالأحاجى والألغاز وغرائب ما يمر به إنسان.

فى أسوان .. بالشاليه المعد لنا بفندق الأوبروى تتعانق نخلتان وتشرئب أعناقهما داخل الفراندة الواسعة حيث نجلس تحيط بنا مياه النيل العظيم من كل جانب.

أقرأ لها فى أحد كتب نجيب محفوظ الملأى بالرموز وهى تنصت فى إعجاب واهتمام شديدين .. وتكثر من الأسئلة.

يقفز على وشامل حفيداها من ابنتها الصغرى فادية، شابان دون العشرين يداعبانها ويقطعان علينا القراءة، إنها المرة الأولى التى يزوران فيها مصر .. وتنحدر الشمس للمغيب فيقفان مبهورين بروعة المناظر الخلابة .. الجبل .. النخيل .. النهر العظيم والقرص القانى يغوص فى مياهه الذهبية العميقة وطيور المساء تحلق وتشقشق فوق الأفق: وينتحى بها جانبا أحب أحفادها إليها على - ويهمسان مليا وتنساب دموع الشاب بينما تنخرط هى فى بكاء مر طويل.

وأنزعج ولكنى لا أتعجب ولا أسأل ..

إنها تكره كثيرا أن يسألها أحد ما بك؟

تكره الفضول والتدخل لأنها ليست فضولية. لم أرها يوما تسألنى شيئا يخصنى إلا فى عبارات موجزة سريعة، ولم أرها تهتم بأخبار أحد أو الحديث عن أحد، تكره الغيبة والنميمة والكذب والنفاق كرها عظيما!

لكنها أيضا تفهم ما بداخلى وداخل الناس بالسليقة والذكاء النفاذ والشفافية التى لا تخيب .

تعرف دون أن تسأل أو تسعى لتعرف.

فوق سطح المركب تمخر بنا العباب من أسوان حتى

الأقصر.

كانت مرحة تحادث الجميع تشرح لحفيديها ما غمض عليهما من تاريخ مصر والأجداد.

فوق المركب التقت بالكثيرين من اليهود الأثرياء الذين غادروا مصر بعد الثورة وجاءوا لزيارة أسوان.. احترام هؤلاء اليهود لها كان مثلا من أمثلة التقديس والإجلال فالانحناءة الملكية وتقبيل اليد والتنحي والوقوف وخفض الصوت.

كانت تعامل كملكة لم تغادر العرش.

ولكن كان هناك نموذج آخر من المعاملة ينتظرها فى مطار الأقصر.

فحين وقفنا أمام باب الأمن لإبراز تذاكر السفر فوجئنا بموظف سخيف يسألها - وهو أكيد يعلم - من هى؟

وبادرتُه أنا: (إنها الملكة فريدة).

فقال ساخراً: ملكة من؟ لم نعرف ملكة لمصر!

وأصر على أن تبرز بطاقتها الشخصية وإلا فلن تمر.

وفتحت حقيبتها بسرعة ليرى البطاقة.

وإذا به يتمادى فى بذاءاته قائلا: «حتى منين، آه.. انتوا اللى خربتوا مصر».. وجاء رئيس العمل بعد أن أخطرته لإنقاذ الموقف وتأديب الموظف فما كان منها إلا أنها احتجت بشدة ولم تقبل أبدا أن يعاقبه. لكنها علقت قائلة: (ده معذور لأنه من جيل جديد لا يعرف إلا التاريخ الغلط).

هى إذن كما عرفتها.

ذات ضمير نقى وقلب طيب وذكاء حاد وحس مرهف وحدس وشفافية، تدرك تماما الصدق من الكذب والصحيح من النفاق.

حين تثور، تختلط عليها الأشياء ولا تعود تدرك من تحادث، ولا ماذا تقول، لا تهدأ حتى تفرغ شحنة غضبها ثم.. تندم حين تكون قد فقدت الصديق والمحب.

ولكنى أنا أحببتها كثيرا واحتملتها وعذرتها كثيرا.. وكانت بالنسبة لى حياة غريبة طويلة حافلة بصنوف الأحاسيس والمفاجآت.

كانت ترسم البورتريه بمزاج خاص جدا وتقول إنها لا ترسم إلا من تحبهم!

وقد أحبت خادمتها النوبية إيمان الصغيرة ورسمتها بكل أحاسيسها فكانت الصورة من أجمل ما رسمت من بورتريهات.

ولكن الخادمة هربت يوما، وتحدثت عنها بما لا يليق وبلغها الكلام فنزعت البورتريه ومزقته قطعا رغم احتجاجى بأنه قطعة فنية لا تعوض ولا شأن لنا بصاحبتها.

إلا أنها قالت: لم أعد أطيق رؤيتها.

وحاولت أن ترسمنى مرارا بل ذهبت معى إلى الفنان صبرى راغب أثناء قيامه بعمل بورتريه لى وجلست إلى جواره الساعات ترسم بطريقتها لكنها أخفقت ومزقت الرسوم أكثر من مرة. لم أدر ما السبب.

فى أواخر أيامها كانت ترسم فى سريرها بالباستيل فتصور مشاعرها وقلقها ومرضها وهواجسها فجاءت كل لوحاتها الأخيرة من فراش المرض خطوطا بوهيمية مختلطة وألوانا صاخبة محتشدة ومتحبطة ووجوها غريبة بين الشكل الآدمى والحيوانى.

كانت هكذا آخر لوحاتها مبهمة مخيفة غامضة.

وبدأت رحلة المرض

ذات صباح وبعد عودتها مساء الليلة السابقة من الأقصر بعد مشاهدة أوبرا عايدة حادثتها تليفونياً وإذ بصوتها متهدج وضعيف وهى تشكو من ارتفاع كبير فى درجة حرارتها فجأة بعد إجراء التحاليل فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى وجدت بالتقرير كلمة (لوكيميا الدم) وارتعدت ولم أصدق، أخفيت عنها الأوراق واقترحت أن نعيد التحاليل فى مستشفى مسجد الدكتور مصطفى محمود وهناك واجهنا الحقيقة المرة وتأكدنا من وجود المرض وصارحوها بلطف شديد بأن مالديها ليس مما يخشى منه إنما هو نوع غير خبيث ويمكن أن تعيش به فترات طويلة ويمكن علاجه أيضاً، وقام وزير الصحة بتسهيل سفرها للعلاج بتكليف الدولة وتمت الموافقة على السفر إلى باريس سريعاً لتعالج فى معهد الأورام العالمى المعروف هناك (جوستاف روسى) ثم طلبت لها الدكتورة نعمات فؤاد جواز سفر دبلوماسيا لأول مرة لتسهيل تحركاتها، قالت الدكتورة نعمات للمسئولين. (أرجوكم أريدها تعامل كملكة لاتجريح ولاتنويه للصحف بهذه المصاريف مراعاة لشعورها فالدولة مدينة لها)



الملكة فريدة على سلم الباخرة توت بأسوان

وبالطبع لم يحدث هذا وعلم الجميع بما حدث لها. وكتبت كل الصحف أن الدولة تساعد فريدة ولم يقل أحد أبداً أن الدولة مدينة بكل ماسلبت من فريدة بغير وجه حق - سافرت معها ليلى زوجة شقيقها سعيد كمرافق.

وسمعت الأخبار.. لم يرحها العلاج فى باريس بهذا المعهد وشكت من غلظة الأطباء به وفظاظة سلوكهم وبشاعة منظر المرضى فى الممرات وهم فى مرحلة متأخرة مما أضعف روحها المعنوية بالإضافة إلى سوء سبل العلاج.

وفهمت أنه طبعها، التدخل فى كل صغيرة وكبيرة سواء الحقن أو الأدوية ومحاولة فهم كل مايحدث وكل شىء عن المرض بالتفصيل ولأن لديها فكرة واسعة عن الطب والتطبيب إذ لم تستهوها العقاقير ولاطريقة العلاج، ثم طلب إليها عمل نقل دم فرفضت خشية الإصابة بالإيدز ثم طلبت السفر إلى فيينا وتحويل مصاريفها إلى هناك حيث سمعت عن طبيب عجوز يعالج هذا المرض بالأعشاب وكانت من أنصار العلاج الطبيعى.

بعد أسابيع قليلة عادت إلى مصر ومعها مجموعة كبيرة من عقاقير الأعشاب والأدوية الطبيعية وخطابات من الأطباء بالخارج إلى الدكتورة نازلى جاد المولى أستاذة الأورام فى مصر - لمتابعة علاجها - وبدأت عمليات التحليل كل أسبوع بعد تناول الأدوية مع منقوع الأعشاب الذى تسير به أينما ذهبت فى (ترموس) مع عصير البقدونس المغلى، وكانت تعتقد - على خلاف كلام الأطباء - أنها تتحسن كثيراً على تلك الطريقة وأنها أصبحت (زى البمب!) ثم سافرت إلى تركيا للاستجمام.

حينما عادت إلى القاهرة بدأت تعاودها نوبات الإرهاق الشديد ثم تحدد خروجها كثيراً وأحياناً كانت تثور (سأخرج وأتغلب على المرض).

تتحدث لكنها كانت تضعف وتتهاوى وتنهار بالتدريج.

أقصى ماكنا نفعله هو الذهاب بالسيارة إلى المقطم معظم الأمسيات لاستنشاق الهواء النقى.. وقلت زيارتها للمرسم ولم تعد تأتى كل صباح كعادتها وفى الأيام قبل الأخيرة كان الخدم يحملونها على كرسى حتى الدور الثانى لتمارس هوايتها وأحياناً تتناول الغداء بجوار لوحاتها.

وازداد ضعفها فأكدت الدكتورة نازلى ضرورة عملية نقل دم لها. وصممت الملكة على استكمال علاجها بمستشفى القوات المسلحة بالمعادى وكان لها ذلك.

فى اليوم المحدد لعملية نقل الدم ذهبت معها ومعنا خادمة وممرضة مختصة ومكثنا بالغرفة المحجوزة لها يوماً كاملاً حتى تمت عملية نقل أكثر من لترين دم.

كانت تبدو مرحة وتضحك قائلة :

(إن هذا دم العساكر فلابد أن تنتقل إلىّ قوتهم).

وهكذا رتب لها القدر بداية الكارثة، فقد كانت تخاف عملية نقل الدم خارج مصر لكيلا تصاب بالإيدز ولكن كان ينتظرها إيدز من نوع آخر

وتحسنت حالتها وعادت تعيش حياتها الطبيعية لأكثر من شهر. ثم أخبرتنى ذات صباح باعتزامها السفر إلى أمريكا بدعوة من العالم المصرى الدكتور فاروق الباز فى بوسطن لافتتاح معرض توت عنخ آمون.

وفى أمريكا دخلت أحد المستشفيات لإجراء بعض التحاليل من باب الاحتياط.. فاكتشفوا أن لديها مرض الكبد الوبائى بسبب عملية نقل الدم وحادثتنى تليفونياً من منزل الدكتور الباز بلهجة عادية جداً لتخبرنى بالأمر (وجدوا عندى هيباتايتز) .. وأصابنى الذعر والحزن الشديد.. ثم علمت بطريقتى من المستشفى الأمريكى هناك بأنه لاعلاج لها وأنهم أشاروا عليها بالعودة إلى مصر لأن حالتها ميئوس منها تماماً.

وعادت .

وراعنى ماعلا وجهها من اصفرار عجيب ثم بدأت جولة الأطباء وإجراء التحاليل بين يوم وآخر وحالتها فى تدهور مستمر، حتى كان ذات مساء فى وقت متأخر حادثتنى سامية (التى تعتبر نفسها سكرتيرتها بالمنزل ومسئولة عن نظامها) تليفونياً قائلة : أرجوك الحضور فوراً لأن الحالة تزداد سوءاً

وذهبت على الفور حيث وجدتها فى حالة لايجدى معها المكوث دقيقة واحدة بالمنزل.

بسرعة رتبت كل إجراءات الانتقال إلى المستشفى حسب أوامر الدكتور ياسين عبد الغفار أستاذ الكبد حيث يعمل

فى اليوم التالى أخذتها فى سيارتى وهى تتكوم فى حجرى كطفل صغير نصف فاقدة للوعى وقد علاها الشحوب والاصفرار الشديدين حتى ظننت أننا لن نصل إلى المستشفى. ولكن لعجبى الشديد بعد استقرارها هناك بأيام تحسنت حالتها تحسناً ملحوظاً بعد عناية فائقة وبذل مجهود غير عادى من الأستاذ الدكتور ياسين عبد الغفار ومساعديه وبقية الممرضات وإدارة مستشفى الصفا بالمهندسين وحضر شقيقها سعيد وزوجته من الأسكندرية ثم شقيقها شريف وبقية أقاربها لرؤيتها.

مع تحسنها بدأت تتحدث بطلاقة وتطلب منى تنفيذ أشياء كثيرة وكانت تخشى على من العدوى وتأمرنى بالابتعاد عن الفراش (المليء بالميكروبات) بتعبيرها وغسل يدى بماء الكولونيا، لكن الله كان يحفظ كل من ساعد هذه الإنسانة السيئة الحظ.

كنت ألحظ تحسنها بسرعة مذهلة لانتظامها بدقة فى تنفيذ أوامر الأطباء حتى أننى زرتها ذات صباح فوجدتها تتألق وتتوهج بجمال غير عادى وكأنها عادت سنوات إلى



الأميرات: فريال وفوزية وفادية حزينات على أمهن

الوراء هادئة تبتسم فى خفر كأنها طفلة وأحسست بخطر غامض.. وقالت الدكتورة نعمات إنه توهج الشمعة قبل أن تنطفىء.. وقال الدكتور ياسين عبد الغفار لشقيقها شريف نحن الآن فى عرض البحر وسط الأمواج والله وحده بيده اللطف فوظائف الكبد تتعطل يوماً بعد يوم كما تشير التحليلات.

بعد أيام بدأت تتلعثم وتردد كلاماً غير مفهوم، فجأة أمر الدكتور ياسين بإبعاد كل المنومات والمهدئات التى اعتادت تناولها موضحاً أن ذلك هو بداية الغيبوبة الكبدية وكان صارماً فى أوامره مما آثار جنونها ورفضت أن تعامل كطفلة يمنع عنها الدواء الذى اعتادته كل سنى حياتها.. وجاء طبيب نفسى لعلاجها لكنها ثارت ثورة عارمة وصممت على مغادرة المستشفى وفشل الجميع فى محاولة إقناعها بالعدول.. فتركوها.

لقد ظنت أنها شفيت فسافرت إلى سويسرا لرؤية بناتها وأحفادها - وقالت لى : لن أحضر قبل شهر أكتوبر، وقد كان. وهناك حدث ماهو متوقع فانهارت مرة أخرى وأدخلوها المستشفى طيلة شهور الصيف وكانت سفرة الوداع.

حين وصلت إلى القاهرة كانت فى النزع الأخير.

ترقدين فى سلام

باقة من الزهور البديعة التى أحببتها فى حياتك.. الفل الأبيض، عصفور الجنة، القرنفل والريحان..أحتضنها وأنا أدفع الباب الحديدى العريض إلى الحديقة الصامتة بصبارها الملتف كأعناق الثعابين وأشجارها الضخمة تظلل الساكنين.. والشواهد البيضاء القائمة فى مهابة ووقار.. والغراب ينعق والعصافير تزقزق.. والصمت.. الصمت الرهيب ولاأحد هناك سواى وأنت ترقدين فى سلام وأمان.

وهكذا أسدل الستار على ملحمة من المجد والأبهة.. من الفن والعشق والجمال.. من الحياة الحافلة الملأى بشتى المتناقضات.. أخيراً.. من المرض والمعاناة والكفاح المرير.

أقترب من موضعك وأضع الزهور فوق مرقدك. وأنادى على الحفار، يحضر لى كثيراً من السعف وكثيراً من الماء حتى لاتذبل الورود سريعاً وتؤنسك فى وحدتك.. وتختلط رائحة الفل برطوبة الفناء.. فأقرأ لك قليلاً من القرآن.. وتنساب دموعى.

ترى أين أنت منى الآن؟ هل رأيتنى؟ وسمعتنى؟! أوحشتنى ياصديقتى.. أوحشتنى كثيراً كثيراً.

لقاء الأحباب والذكريات بعد رحيلها

حين يغيب في أحشاء الزمن وجه اعتدت الالتصاق به لسنوات في حياتك .

وحين تتأكد من أنه قد أصبح في عداد الذكريات التي حفل بها العمر .وانزوت في أركان النسيان..

يعود الوجه مرة أخرى بقوة إلى خيالك.. في مناسبات وأوقات معينة.

ويتوالى بشدة ويتداعى المعانى كل ماارتبط بهذا الوجه من حكايات وصور وروايات .

من ألمانيا مع طيف فريدة

تقلني الطائرة إلى جنيف ... لأول مرة أزور الأراضي السويسرية بدافع شخصي.. فأنا ذاهبة لزيارة بنات الملكة فريدة بعد غيبة ثلاث سنوات ...

فريدة مصر .. وجهها لايفارقني منذ حجزت تذكرة السفر من ألمانيا ..

بل إنها بادرتني بالزيارة في المنام .. حلمت بها ليلة السفر .. كانت متوردة الوجه جميلة تبتسم وتحتضن حفيدها الأصغر والأحب إليها «ساشا» أو علي - ابن فادية ابنتها الصغرى ..

ولاأدري أحقيقة يحس الموتى بأفعال الأحياء فتأتي رسائلهم ورغباتهم عبر الأحلام؟!

أم هو العقل الباطن يختزن الصور فيترجم رغبات العقل الواعي؟!

هل يشعر الموتى ويردون ويزورون؟!

هكذا رأيتها قبل السفر.. في ذكراها الخامسة...



الأميرة فادية وزوجها بيير أورلوف وابنهما «ساشا»

فاليوم ينقضي على فراقها أربع سنوات!!

لم تحادثني ولكنها كانت تبتسم في مرح وتألق وكأنها مبتهجة لكوني مازلت أذكرها ، وأقوم عنها بزيارة أحب الناس إليها...

انتابني الخوف ووجهها يزداد التصاقاً بي في كل خطوة أخطوها وأنا أسمع صوتها والطائرة تقترب من موعد الأحباء..

أطل من النافذة.. يعم الفضاء كله محيط من مياه البحيرة العظيمة..

تحيط بها الخضرة فتحد الأفق وتفصل بين الماء والسماء ... قصور بيضاء تتناثر في قلب المحيط الأخضر على الشاطيء.. ثم أبعد .. فأبعد..

سويسرا بلد الأغنياء.. في بنوكها وقصورها يستقرون في أمان لأن السرية تامة والرعاية كاملة..



أثناء الغداء فى طريق لوزان - فادية ثم لوتس ثم فريال ثم ساشا - ثم ياسمين ثم بيير أورلوف وسمية.

إلـى لـوزان

ماكل هذا البهاء والأناقة والنظافة بمطار جنيف..؟!

وجوه المسافرين إلى جنيف تحمل طابعاً يختلف عن وجوه المتجهين إلى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا..

فكأنى ألمس عليها مظاهر الرخاء والرفاهية..

اتجهت إلى شباك تذاكر القطار الذاهب إلى لوزان.. أفضل دائماً ركوب القطار فى هذه المناطق الجميلة لأستمتع أكثر... لكن! يقترب منى شخصان .. شاب ورجل..

متشابهان جداً رغم فارق السن بينهما، والشيب الخفيف الذى يغزو شعر أكبرهما، لكن تقاطيع الوجه والسمات الواحدة تنبىء بأنهما أخوان... عرفتهما! الصغير أعرفه جيداً إنه «ساشا» ابن فادية الأصغر والأكبر والده (بيير أورلوف) ولم أكن رأيته من قبل... جاوز الأربعين ويبدو أصغر مما توقعت..

كانا يعرفان موعد وصولى، لكنى لم أتوقع وجودهما بالمطار لاستقبالى و.. وأثار اللقاء فى ثلاثتنا مشاعر شتى متباينة أثرت الحوار الدائر بيننا أثناء الطريق بالسيارة..

ومضيت أتأمل ذلك الروسى القادم من الشمال ليحمل على جناحه أميرة مصرية قادمة من أراضى النيل الخضراء ذات جذور ملكية أرستقراطية ونشأة أوروبية لعبت بها الظروف والأحداث ماشاء لها اللعب والتقلب ...

هو أيضاً ينحدر من أسرة عريقة ينتمى أفرادها إلى الحكم السابق على الشيوعية فى روسيا، وكان قد وصل لتوه من سفرة طويلة فى روسيا.. فقد أرسل المسئولون فى طلبه حين راحوا يبحثون عن أبناء الأسر الكبيرة القديمة لتساهم بنصيب فى الوظائف الهامة والعمل المستقبلى...

كان سعيداً وهو يقص علىّ أحداث الحياة الجديدة فى روسيا.. معتزاً بشرف انتمائه إلى الملكة المصرية فريدة والتى يحتفظ بصورتها فى محفظة فى صدره على الدوام....

نبيل روسى متعصب لبلاده، للنظام الذى يكفل الراحة والسعادة للجميع .. كل حركة وكل لفظ يصدر عنه يُنبىء عن الأصالة والذوق الرفيع، فى لهجته الفرنسية الرائقة لكنة أرستقراطية، فى هدوئه وحواره أناقة تقربه من كل من يحادثه ..

لاشك فى جدراته بالمكانة التى كانت له عند الملكة والدة زوجته، والتى طالما حدثتنى عن اعتزازها به حتى أنها كانت تفضله أحياناً على بناتها، وكان موضع ثقتها وأسرارها...

جنة الله وعصافيرها

الطريق من جنيف إلى لوزان يسبح فى الخضرة والجمال... سبحان الله الذى خلق فأبدع ...

أينما تلفت حولى لاأجد ماأقوله سوى الله .. الله..!

سويسرا هى جنة الله فى أرضه ..

على ضفاف بحيرة ليمان تناولنا الغداء فى أحد الفنادق العديدة القائمة فى الطريق ...

أتيت مراراً ومنذ سنوات عديدة إلى هذا المكان ولكنى أبداً أجده يتغير ويتشكل بألوان الجمال الذى يفترشه..

وأثناء الغداء كانت العصافير تأكل معنا !

هل صادفت عصفوراً يقف هكذا بين يديك تطرده فلا يطير بل يسير فى طمأنينة أخاذة ليأكل من سبت الخبز الذى تأكل منه ويواجه عينيك اللتين تتأملان ريشه ومنقاره وجناحيه وألوانه العديدة المتناسقة.. ثم يأتى عصفور آخر على حافة المقعد وثالث تحت رجليك.. وتحتفل العصافير بقدومك فى طابور بهيج يزف الألفة والمشاركة والحب..

إنها العصافير السويسرية .. عصافير الجنة !!

ونكمل الطريق ...

البط والطيور البرمائية تحط فوق المياه وترفرف فى جذل وسعادة .. ويتوقف «ساشا» فى أحد المنعطفات على البحيرة صائحاً : أرجو النزول دقيقة واحدة وإلقاء نظرة على الكازينو فاليوم تقيم الأوركسترا احتفالاً بمناسبة بعض الأعياد! وماأكثر أعياد الفرح فى أوروبا.

وننزل لنشاهد الفرق الموسيقية داخل القصر وهى تعزف وترقص مرتدية زياً هو بين الأبيض والأحمر والكحلى مثل علم سويسرا.. نتابع السير فى طريق مونترو..

ياللروعة والمهابة والجلال الذى يكتنف تلك الجبال القائمة فوق مياه البحيرة.. جبال الألب الشاهقة تنحدر فوقها الثلوج البيضاء فتبدو كالحليب المنسكب على رؤوسها...

على يسارنا الورود والأشجار تحتضن المنازل والقصور الصغيرة المتناثرة هنا وهناك...

أبداً لم أجد عمارة شاهقة أو بناءً ضخماً يزاحم الجمال ويلوثه أو يحجب الهواء ومياه البحيرة..

بل الجمال ينبسط فى عرض الأفق وطوله فينثر الإحساس بالراحة والهدوء ...

لاحظت أن الشاطىء محدد بسور منخفض من الأزاهير والرياحين والخضرة المنسقة فى أشكال هندسية بديعة وفى بعض الأماكن توجد حواجز قصيرة من المشغولات الحديدية المطرزة كالدانتيل الرقيق...

لم أجد سوراً من الأسمنت القبيح ولاسداً قائماً يحول بين عينى وبين المياه.. وبين الجمال..



لوتس وفريال فى منزلها الريفى

ثم.. فى منطقة أخرى.. يتحول لون الجبال إلى اللون الأسود الداكن وينعكس ذلك على المياه الزرقاء فيسود الكحلى لوناً فريداً خلال السطح الرائق المجعد الغريب اللون للمياه...

كنت أرسل بصرى طيلة الطريق فى تسبيحة طويلة وشهقات متصلة مأخوذة بإحساس عميق نادر...

الله الله لاشك أن الله يسكن تلك المناطق لفرط الجمال والانسجام ...

لوحة ربانية نادرة

نتابع السير .. ترتفع بنا السيارة .. وترتفع .. نعتلى الهضاب فنقطع السهول والحقول الشاسعة ... لاأحد .. لا سكن سوى الأبقار المنتشرة بأجراسها تصلصل وتخور فى الفضاء العريض.. أرانى أمام لوحة أخرى ربانية نادرة..

أتوقف لأشبع عينى وقلبى بالجمال ...

وصلنا ...

وسط هذا الفضاء الشاسع والحقول المترامية...

منزل خشبى صغير مثلث السطح حوله سور خشبى وأبنية خاصة بالخيل... فأصحاب المكان كانت لديهم خيول بيعت قبل فترة وجيزة والسكن كله كأنه سكن للخيل... دخلت وصعدت على سلم خشبى قصير إلى الدور الأعلى حيث بعض الغرف البسيطة التى تخص هؤلاء السكان القائمون على خدمة الخيل!

كانت هذه هواية بيير أورلوف منذ تزوج بالأميرة فادية ابنة فريدة وفاروق - وتربى ولديهما فى أحضان الخيل.. ويقال أن هذه الهواية جلبت الشؤم على الأسرة إذ أصيب أورلوف برضوض أثرت على العمود الفقرى - إثر سقطة من على ظهر الحصان... أقعدته سنوات طويلة عن العمل.. وكانت فادية هى التى تعمل وتعول الأسرة حتى كبر الأولاد.

مازالت فادية تشتغل مرشدة سياحية ومترجمة لساعات طويلة من اليوم...

لقاء الأحباب والذكريات

استقبلتنى فادية والأخت الكبرى فريال وابنتها ياسمين بالترحاب، جلست أتأمل المكان.. هذا الفوتيل الكبير بالركن كان المفضل للملكة الأم.. كانت تجلس عليه الساعات تتأمل من هذه النافذة.. صورة ضخمة للملك فاروق فوق الكرسى.. مكتب منخفض عليه أوراق مكدسة وأباجورة أثرية..

فى المكان كثير من التحف القديمة بلانظام.. صناديق على الأرض ملأى.. نظرت إلىّ فادية قائلة إننا نستعد لبيع المنزل والذهاب إلى جنيف لأن شامل الابن الأكبر بدأ يعمل فى جنيف (فى الصحة العالمية) مع شركاء مصريين...

و«ساشا» يوشك أيضاً على العمل.. والأب بين روسيا وسويسرا.. فماذا أفعل وحدى هنا؟

إنه لمكان مخيف فعلاً أن يسكن فرد واحد هذا الفضاء الشاسع... كيف أحبته الملكة فريدة وكانت تؤثره على كافة الأمكنة...

فادية كانت فى أحسن حالاتها...

أما فريال فكانت متوترة مرهقة وتبدو أكبر من عمرها بسنوات، حزينة لأن ابنتها الوحيدة ياسمين قررت أن تسافر وتعيش بمصر وتعمل فى هندسة الكمبيوتر بالفنادق.

قلت لها لماذا لاتأتين معها؟ أجابتنى مستنكرة :

أنا لاأستطيع مغادرة بيتى الصغير الذى اعتدت عليه أبداً أبداً .

- تعيشين وحيدة؟

- لا.. مع كلابى وقططى وببغائى...

- والعمل؟

- منحت نفسى إجازة.. لدى دخل بسيط يكفينى. فأنا لامصاريف لى .. وشردت...

لقد كافحت طويلاً ، وعملت بيديها أعمالاً لاتتفق ونشأتها. مات والد ابنتها منذ زمن طويل. وارتبطت بآخر انتحر منذ سنوات قليلة... عصبيتها وخطوط الزمن بوجهها تقول إنها ذاقت الأمرين..

حنين للوطن البعيد

قلت لياسمين .. الحياة فى مصر ليست مثلها فى سويسرا خصوصاً بالنسبة لفتاة صغيرة وجميلة، وحفيدة الملك فاروق! ستلاحقك وسائل الإعلام وربما الفضوليون من غير المصريين فيجب الاحتراس الشديد ...

قالت لى فريال إنها شخصية مستقلة ويجب أن تجرب حظها ..

سألت عن فوزية الأميرة الوسطى.. المرض ازداد بها حتى أصبحت فى حالة لايمكن أن تطلع عليها أحد ....

اكتفيت بمحادثتها تليفونياً ... مازالت رغم المرض على ذكائها واهتمامها الشديد بكل مايقال عن الأسرة فى مصر وماذا كتبت الصحف عن أمها، وكيف يتحدثون عن مذكراتها ويجب حسم هذا الموضوع سريعاً وبشدة، واللجوء إلى القضاء وطمأنتها إلى تفهم رؤساء تحرير الصحف لهذه الحقيقة وأنه لن يكون هناك أى إساءة إلى الملكة فريدة.. قالت لى إن الشلل أصاب كل جسدها وهى تتحرك على كرسى بمشقة، وتقضى معظم الوقت بالفراش، وحتى القراءة حرمت منها لأنها أصيبت بالعمى.. ومصدر الحياة لها الآن هو السمع.. تسمع كل إذاعات العالم..

الصبر بلا حدود رفيق هذه المسكينة التى عاشت فى مأساة منذ سنين طويلة وقد كانت والدتها تتوقع لها الموت منذ زمن طويل ... لكنها إرادة الله...

... وانقضى وقت مثير، ولاأقول ممتعاً .. لأنه مثقل بالهموم ومشحون بالجراح .. الحوار.. الأحزان .. الأحداث.. الذكريات..

كم قاست تلك الملكة المسكينة وكم تعذبت بناتها فى الغربة، وكافحن الكفاح المرير حتى ترك الزمان بصمات قاتلة فى حياة كل منهن... لماذا؟ وماذا جنين حتى حل بهن كل هذا الانتقام؟!!

هكذا تنقضى السنوات وينقشع التاريخ تاركاً جزءاً منه يقبع مع تاج وعرش ومجد وثراء - كان - مكوماً فى صناديق، وعلب كرتون، وأكياس تقطن غرفة مظلمة فى كوخ خشبى صغير يتأرجح وحيداً فى العراء بين السهول والجبال والوديان فى بقعة من بقاع الله وموطن من مواطن الجمال.. قطعة من تاريخ مصر طواها الزمن وعلاها النسيان

رحلة العودة

فى العودة كنت أشعر بالراحة... بالامتلاء.. وفى قلبى المزيد من الوفاء لذكراها..تلك التى تركت فى حياتى وطريقى آثاراً لاتزول، أتزود منها وأرتوى كلما اعترانى الملل واستبد بى الشوق وعصفت بى اللهفة وأضنانى السير فى خلوات موحشة وزاد حنينى إلى الصدق والصراحة والنظافة والقيم العالية حنينى إلى لقائها فى دروب الفن الأصيل والحقيقة والجمال...

فى مطار جنيف ودعنى حفيدها الثانى شامل أورلوف لقد انتهى من دراسته فى أعلى كلية اقتصاد بسويسرا وأكمل دراساته بجامعة نيويورك - فى الثالثة والعشرين من عمره، يتكلم خمس لغات، ويحاول تعلم العربية ولديه الأمل فى أن يعمل فى الاقتصاد العربى ويحن حنيناً بالغاً للإقامة بمصر...

هؤلاء هم أحفاد الملك فاروق والملكة فريدة.. باقة من الورود والحب والإخلاص فى ذكراها الغالية.. فريدة مصر بكل الصدق والحقيقة..

فريــدة ..
وهمسات الألوان





لفظ الجلالة : ١٩٧٥

.. وتتواصل الرحلة الصوفية للفنانة حتى تذوب ذاتها فى المطلق ..

تتحرر تماماً من أية مشخصات أو عناصر مادية، مكتفية بلمسات تجريدية هائمة كالفراشات حول بقعة واسعة من النور ، تسعى للامتزاج بها والذوبان فيها .

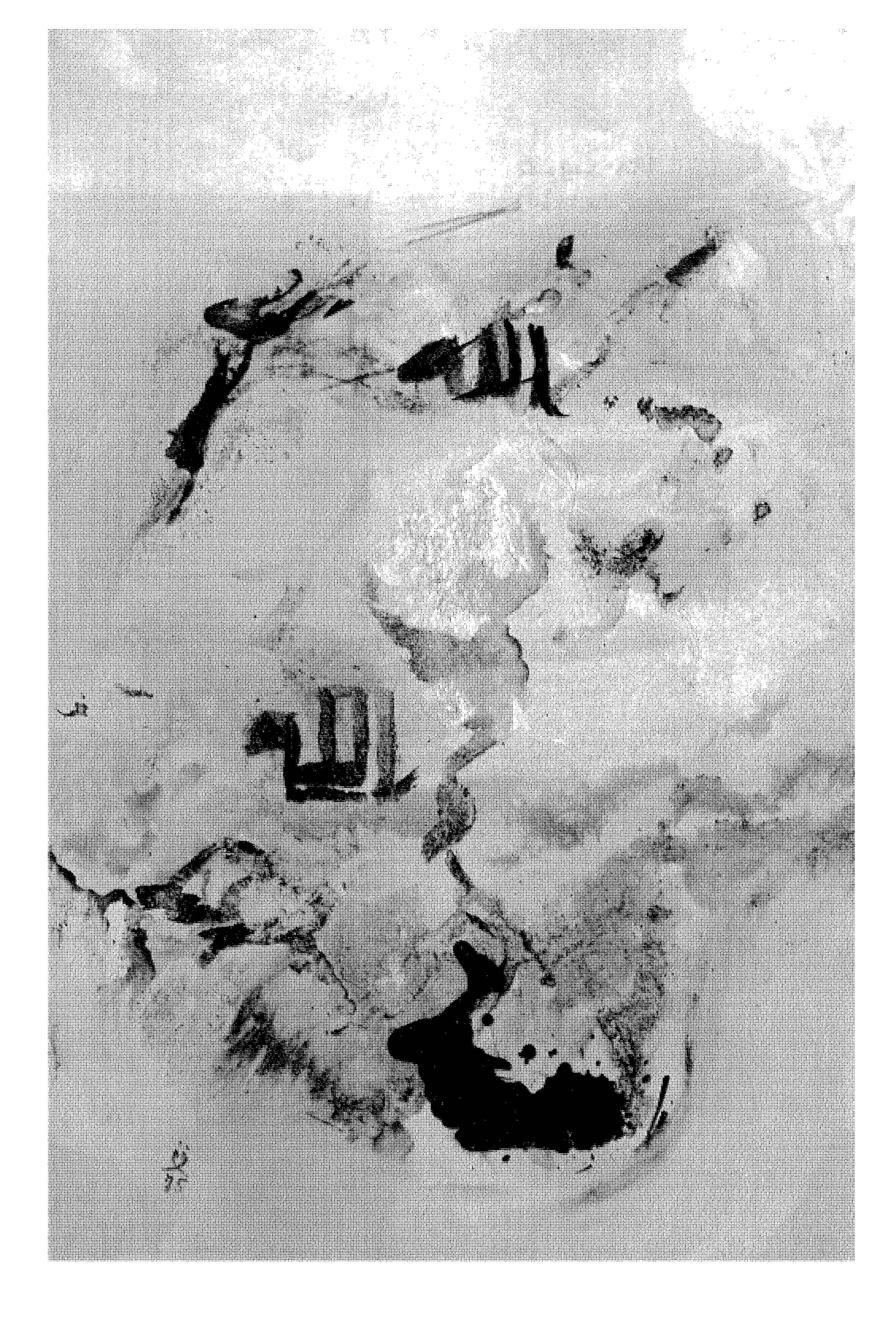
تتصاعد حروف لفظ الجلالة على حدود الدائرة النورانية ، قوية مؤكدة باللون الأسود ، وكأنها هتاف عميق متضرع من أعماق الروح .

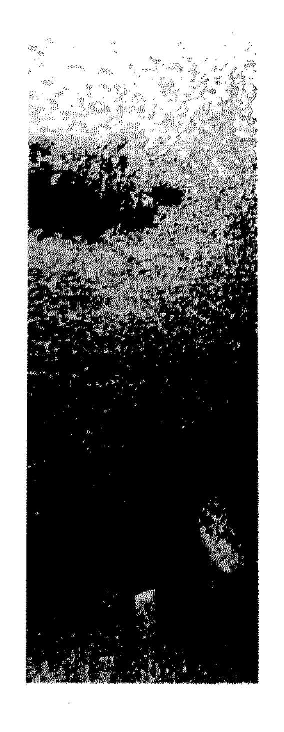
أما تكوين اللوحة فيتناسب تماماً مع الحالة الصوفية، إذ يبدو لا أول له ولاآخر ، مؤكداً ديمومة الدوران حول مركز الوجود .

ندور معه فى محيط لانهائى من اللون الأزرق الرمادى، الأقرب إلى سماء فجرية .









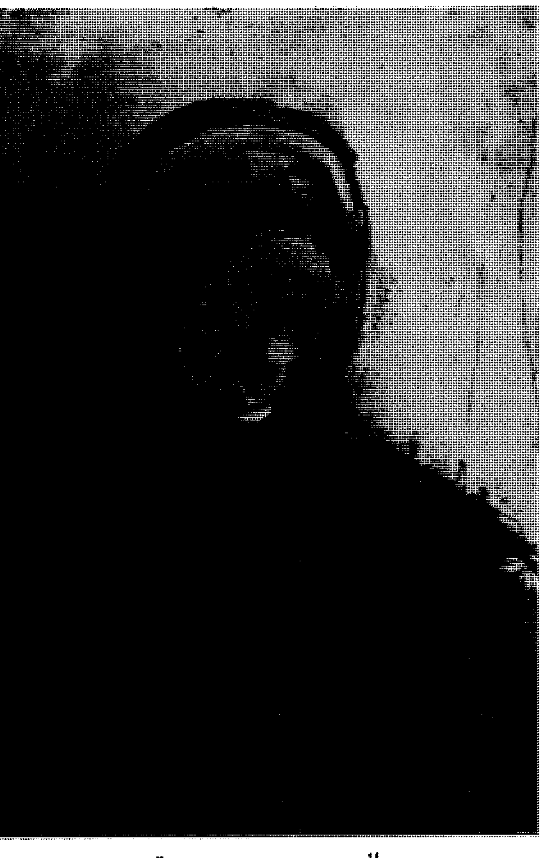
غـروب ١٩٨٠

وكما انشغلت بعنصر الملمس فترة من الزمن، كذلك انشغلت بحركة اللون فى سيولتها العفوية، مستخدمة أسلوب «الصدفة الموجهة» .. إنها تحقق بهذه السيولة ارتعاشة خطية أقرب إلى ذبذبات الأصوات الموسيقية، وبذلك صنعت إيقاعات نغمية متنوعة فى جرأة شديدة.. ومن أقصر طريق .

يبلغ اختزالها اللونى والخطى حداً يجعل من المستحيل الاستغناء عن أى خط أو لون أو بقعة، فهى نسيج شفاف متماسك الخيوط.

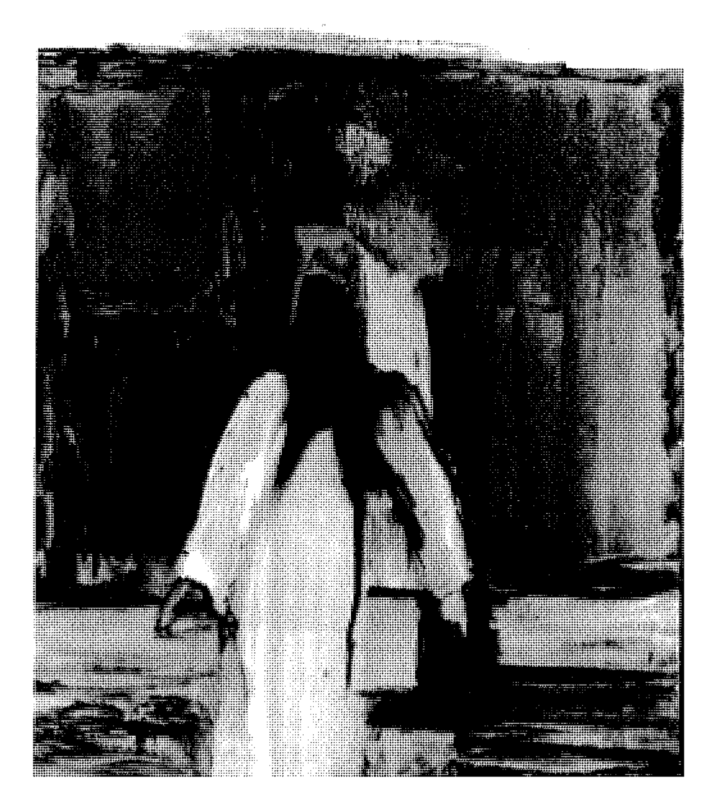
يكوّن الشراعان على اليسار شكلاً هرمياً مرتفع الهامة، يعج بالدرجات اللونية السمراء الدافئة، التى تتجمع أسفل الشراعين فى خيوط ثقيلة، قائمة ، تسيل مرتعشة على القارب والماء الأخضر الجنزارى العتيق .. وفى منتصف السارية تتعلق بقعة بيضاء ، لانعرف ماإذا كانت لملاح يتسلق السارية أم لراية مرفرفة، لكنها تحقق - على أى حال - حواراً بصرياً مع قرص الشمس الراحلة.

ولعلها المرة الأولى التى ترسم الفنانة فيها قرص الشمس بشكل مباشر، لكن البقعة الصفراء هنا تبدو ضرورية فوق شريط الحشائش السوداء الهشة، لتحدث تقابلاً حركياً مع الخطوط المستقيمة الداكنة، تقابلاً يشعل الحياة والحركة فى الركود المخيم ..



البـــــــــدوية

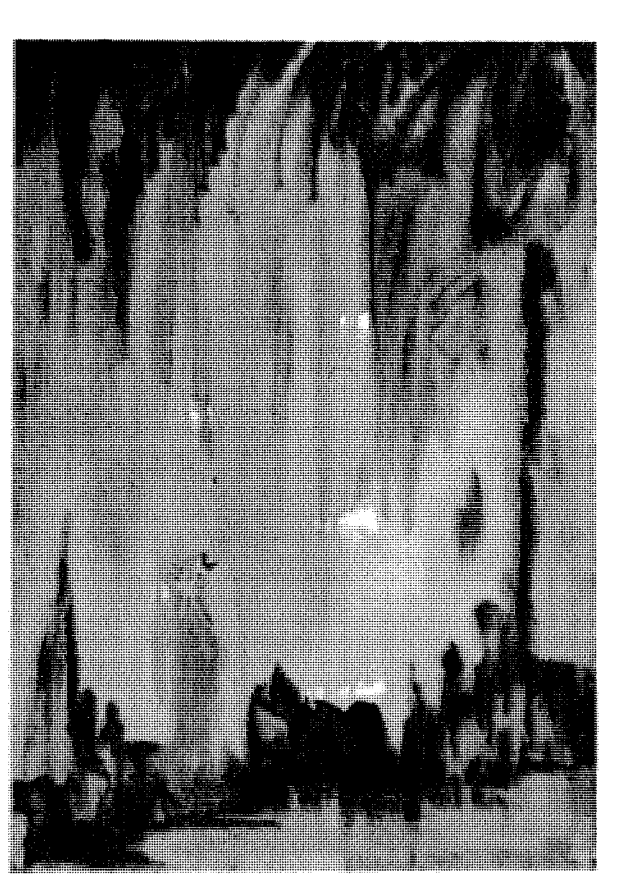






حـــزن في القـــرية



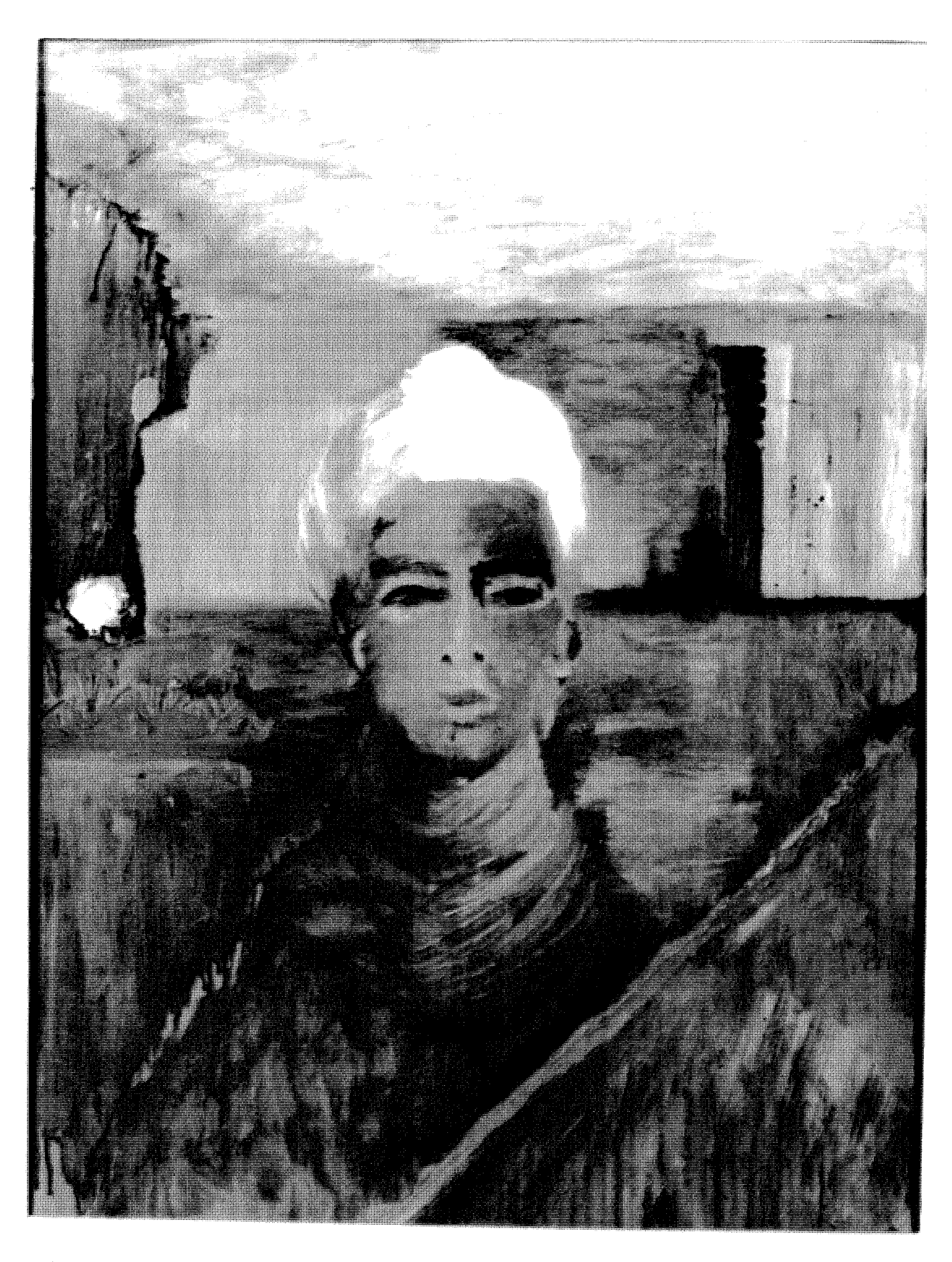




الفـــــــلاح



الصفصـــاف ١٩٨٦





حامل القدر

من المستحيل أن نرى فى الواقع مثل هذا الوضع ..

فماذا يحفظ للقدر توازنه فوق كتف الرجل دون أن يسنده بيده؟

لكنه فى اللوحة يصبح ممكناً ..

إن القدر يبدو ثابتاً، ملتصقاً بالظهر والكتف والرأس، كأنه جز من جسد الرجل ولد به، أو كأنما قُدِّرَ عليه الانحناء حاملاً إياه إلى الأبد.

تفاجئنا البقعتان البيضاوان مكان عينيه بالضياع والشكوى فيهما، وإن بدتا عمياوين ..

يدهشنا الجسد الضامر بذراعه الهزلى الوحيد، إذ يمتد - رفيعاً ممطوطاً بالغ الطول كحبل رخو - من الكتف إلى برميل ملآن بالماء.. هل يريد الرجل أن يفرغ قدره فى البرميل رغم امتلائه حتى يفيض على الأرض، ليعود فيملأه ثم يفرغه من جديد؟.. أى مصير عبثى!..

كأننا أمام «سيزيف» المصرى!..

بغض النظر عن المعنى الرمزى (الذى قد تختلف حوله وجهات النظر) فإن للوحة جاذبيتها الخاصة.. تستمدها من بنائها الفنى، من قوة التضاد بين الألوان، من لمساتها الحرة فى اتجاهات متعارضة، من الضوء الداخلى إذ ينبعث من جوف الأزرق أو يشع من جسد الرجل، من التوازن بين كتلة القدر ملتحمة برأس الرجل وبين المساحة المستطيلة السوداء لجسم الرجل ملتحمة بالبرميل أسفل اللوحة .. وقبل كل هذا : تنبع جاذبية اللوحة بما تحتويه من سذاجة الفطرة ودهشة المفارقة وغرابة التكوين.. أيا كان موضوعها..

الشاطىء الأحمر

من البحر تستنشق أنسام الحرية والحنين إلى السفر ، يسحرها لونه التركوازى المتلاشى فى زرقة السماء، يبهرها النور المصفى من مصفاة الغيوم ..

هى الفنانة - إذن - خلف مساحة المشهد، أو هم أشخاصها الجالسون أمام الشاطىء على يسار اللوحة .. لافرق !.. فكل أعمالها تعبير انطباعى عن النفس وتجلياتها ..

تبدو جرأة البناء فى تقسيمها لمستطيل اللوحة إلى مستطيلين متساويين، مستطيل أزرق تتلاشى فيه الحدود بين البحر والسماء، يخلو تماماً من أى عنصر مادى يقطع امتداده اللانهائى ، ومستطيل أحمر لشاطىء ممتد يبدو فيه - بغموض على اليمين - فناء يتجه سوره نحو البحر ، وعلى اليسار امرأة واقفة فى ثياب برتقالية اللون، وأخرى جالسة بثياب خضراء .

وبرغم هذا التقسيم المتساوى وقلة عناصر الحركة المباشرة، لانشعر بالجمود .. وإذا كنا نشعر بالسكون ، فإنه سكون مشحون بالترقب، تضفى عليه سخونة الأرض الحمراء مسحة أسطورية، ويقف الأشخاص كما اعتدنا رؤيتهم فى كثير من أعمال الفنانة، مشدوهين فى مواجهة المجهول .

لحظة من لحظات الغروب التى كانت تعشقها وتعبر عنها الفنانة فريدة دونما ملل، خاصة وهى تقترب من النهاية.

السد العالى





حوار ١٩٧٥

همسات الرجلين فى زيهما الريفى، وضعهما المستشار بالفضول، وقد انحنى رأساهما وتقاربا، والتوى عنق الرجل الأيمن قليلاً موجهاً أذنه إلى محدثه .

كل هذا يوحى لنا بالسذاجة والبراءة فى حديث الأسرار ..

لكن نظرة إلى ظهر الرجل الأيسر تفاجئنا بوجود شيء غريب :

إنه خنجر يخفيه خلف ظهره!

هل يبيّت الغدر بمحدثه، ويتحين الفرصة لطعنه؟

وجه الرجل الأيمن - المفترض أن يكون الضحية - يملأنا بالخوف منه وليس عليه.. وجه ثعلبى ممطوط السحنة، بعينين متباعدتين إحداهما حمراء والأخرى زرقاء.. أهى عمياء ياترى؟، أم هى مخادعة تكشف المؤامرة ؟..

الملابس السوداء والزرقاء القاتمة بغموضها الشبحى، يتسربل بها الجسمان الممتدان بطول اللوحة كلها، توحى بالريبة المتبادلة..

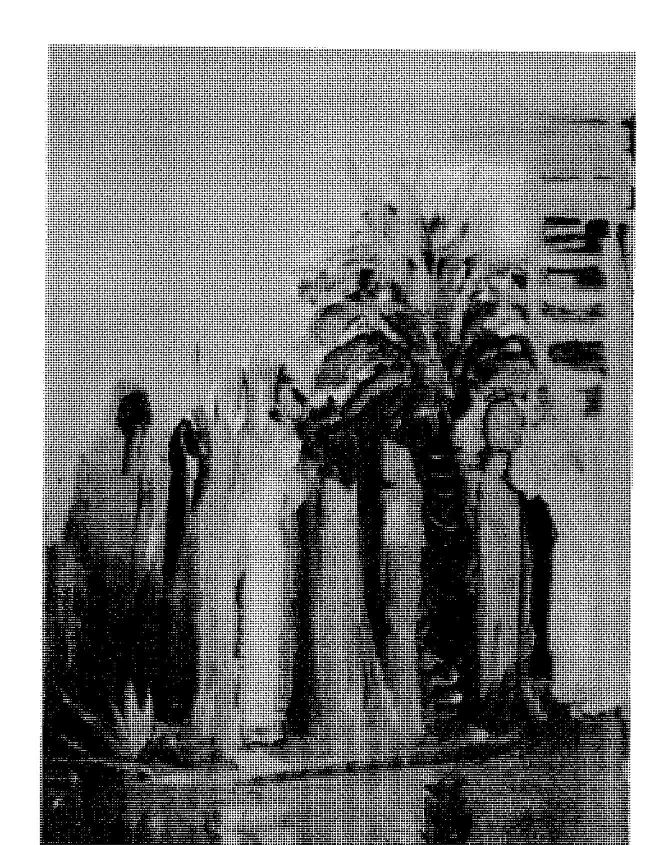
خلف الرجلين تمتد مساحة رمادية محايدة، لاتجيب عن أى من تلك الأسئلة، بل تضيف المزيد من الهواجس، فى شكل تلك اللمسات الطولية المتموجة، التى تعتم تدريجياً كلما صعدنا إلى منطقة الرأسين المتقابلين، حتى تبلغ درجة الأسود ، لتجعل قمة اللوحة : بؤرة للظنون!

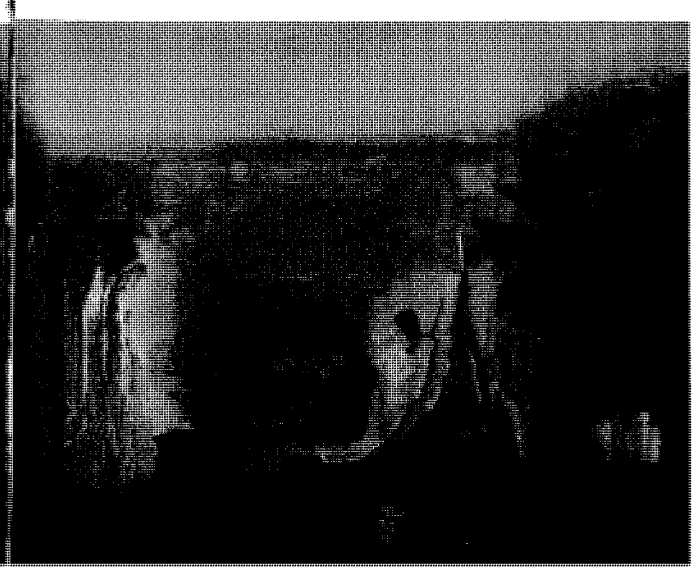
أتكون هذه صورة للخوف الكامن فى داخلنا، أم رمزاً لحياتنا التى تفتقد الثقة والأمان؟!

اللحظة الفاصلة

إن التلقائية الشعورية والإسقاط التعبيرى المباشر للفنانة يبلغان هنا ذروتهما.. فالخطوط الرأسية المستقيمة للأشرعة - التى رأيناها فى اللوحات السابقة - تصبح مائلة مترنحة ضعيفة وهشة فى مواجهة العاصفة، ولمسات الفرشاة تصبح مرتعشة متوترة، والألوان تزداد قتامة، تتوسطها بقعتان من اللونين الأبيض والأرجوانى كبؤرة مأساوية للمعركة الفاصلة بين الحياة والموت، وكأننا نرى انفجار البرق ونسمع صوت الرعد.

إن الخطوط السوداء السميكة التى رأيناها فى اللوحة السابقة - وهى تحدد الأشرعة وتكسبها صلابة ومقاومة أمام العاصفة - تتلاشى هنا فى المحيط الغامض لتحل محلها بقع سوداء تسيل وتتناثر فى كل اتجاه، وتزداد مساحة الفراغ حول الأشرعة ضيقاً ، وتشعرنا باختناقها وحصارها ويكتسى جو اللوحة جميعه بلون أحمر مكتوم منذراً بالنهاية .





إلـى النهـــر
- الفيوم -

مرة أخرى.. ثنائية النخلة والفلاحة بجرة الماء .

الألوان المتدفقة تسيل على مستويات متتالية فى إيقاع أفقى متصاعد كالسلم الموسيقى .

الفتاة - كفرع الشجرة - تقطع الخطوط الأفقية المنسابة فتحقق اتزاناً للوحة وتقابلاً مع جذع النخلة.

شفافية الدرجات الزرقاء مع الرمادية والبنية والخضراء والصفراء، تخلق جواً احتفالياً غامضاً بمولد النهار.

بينما يتسلل من وراء الأفق شريط مرتعش من الضوء الناصع، ينسال عليه اللون الأخضر من إحدى سعفات النخلة فى ذبذبة عفوية طازجة .

لحن موسيقى طروب يتهادى على خطوات حاملة الجرة ويحمل نقاءً فطرياً لنفس شاعرة.. صافية.



زائر الليل



القصـــب



رقصة المـردة ١٩٧٨

تستمد هذه اللوحة تميزها من جوها الأسطورى والشاعرى ..

إن الشراع الوردى يبزغ من النهر دون أن نرى القارب الذى يحمله وينتشر فى الفضاء على شكل بيضاوى رشيق أقرب إلى جناح طائر خرافى.. وتتوالى الأشرعة قبالته منبثقة من صفحة النيل كالمردة، بينما يمتد من كبيرها خط مقوس فى اتجاه الشراع الوردى كأنه طلب للنجدة .

.. وتتوالى من داخلنا الأسئلة حائرة : هل هذه قوارب غارقة تطفو أشرعتها قبل أن يبتلعها النهر أم هى أشباح النهر الغريبة تنطلق من الماء لترقص معربدة وقد امتلكت الماء والفضاء أم هو حوار كونى غامض بين المردة فى الظهيرة؟

حتى الشخص الذى نراه فى المقدمة (أو مايبدو بغموض أنه شخص) يعطى ظهره للأشباح الشراعية خارجاً إلى يمين اللوحة، فلاندرى إن كان يولى الأدبار خائفاً أم هو جزء من منظومة السكون الأبدى اللامبالى ؟.

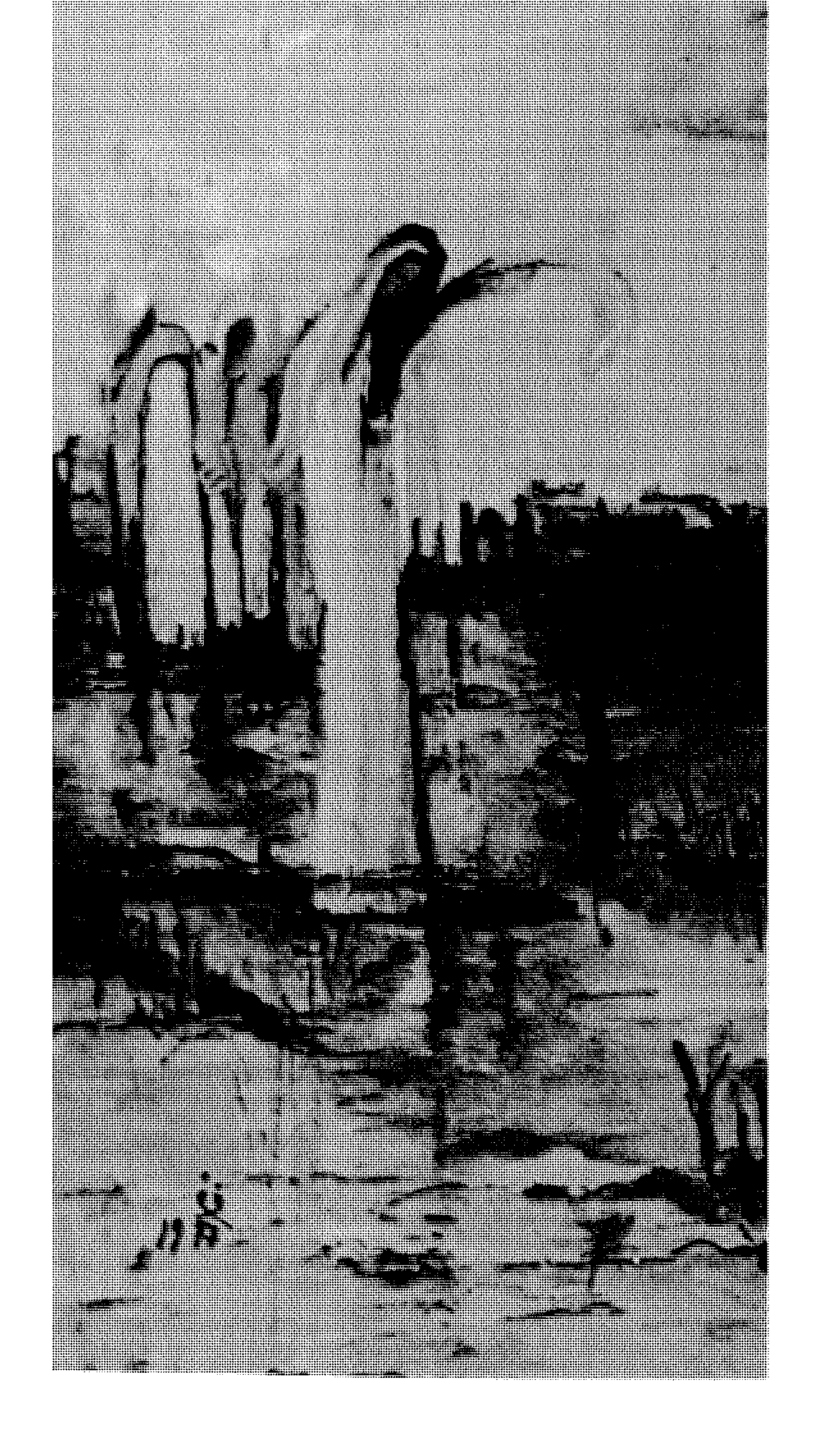
هذا بينما يبدو خط الأفق شريطاً من القرى المصرية الساجية بنخيلها ومآذنها وبيوتها المنخفضة تراقب مايدور فى حياد وصمت.

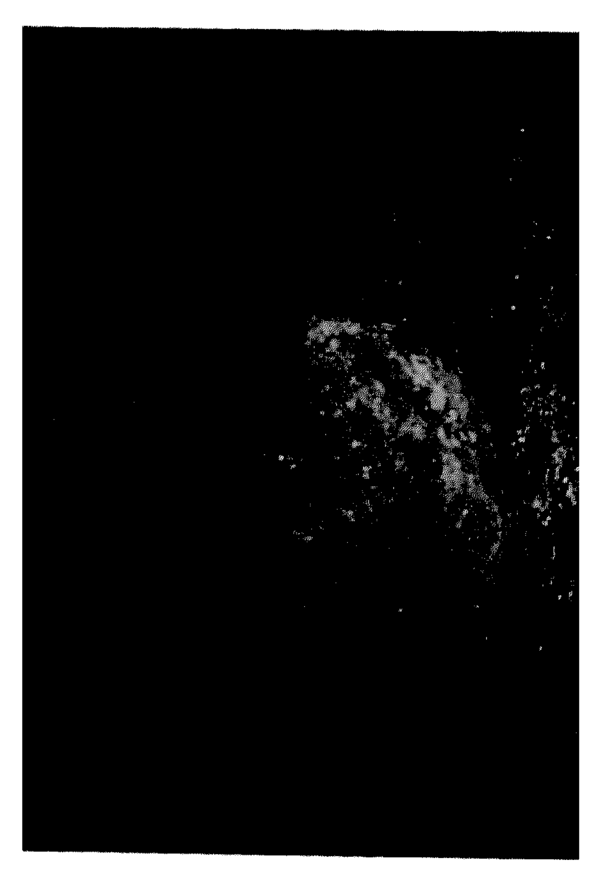
هذا الجو السريالى المحفوف بالأسرار تنسجه الفنانة بفرشاة ناعمة اللمسات شفيفة الألوان يغلب عليها الأزرق كأننا فى حلم سرمدى..




النخيــــيل ١٩٨٧







الأيقــونة





القـــديس

إنه ليس وجهاً لشخص، وإن بدت لنا منه ملامح واقعية.. لعله لوحة من «الجغرافيا النفسية» إن صح هذا التعبير!

هذا الرأس المليء بالنتوءات والتجاويف والألوان المتصارعة والمتداخلة - من الأحمر والأخضر والأسود - يواجهنا خارجاً من محيط مظلم، تحفه صخور ووديان، ويبزغ من ذلك الرأس المعتم مثلث متوهج أحمر كجزيرة بركانية، تطل علينا من خلاله عين بشرية كبيرة مليئة بالأسى لكنها خالية من الحقد، وتسترسل اللحية المستطيلة من الوجنة والأنف وهى تطمس كل المعالم وتغرقها فى المحيط الأسود.

لوحة للألم الإنسانى الصامت وصبر القديسين، نفذت بحرية مدفوعة بانفعال جياش، فى لحظات معدودة أغلب الظن.. تذكرنا بالفنان التعبيرى الفرنسى «راؤول» الذى ترجم عذاب الشهداء فى تعبير فنى معاصر يعكس حالة من الاكتئاب.

سطح تصويرى يموج بالتوتر والحركة والصراع، فى الخط واللون والملمس، اختزال مقتدر لأى تفاصيل تعترض انطلاق الشحنة الدرامية، بساطة جريئة فى الأداء، نابعة من نفس تنضج بحزن نبيل..

حمـــــار جحـــا



القـــوى المجهـــولة



منظـــــر يابانـــى



الليـــل

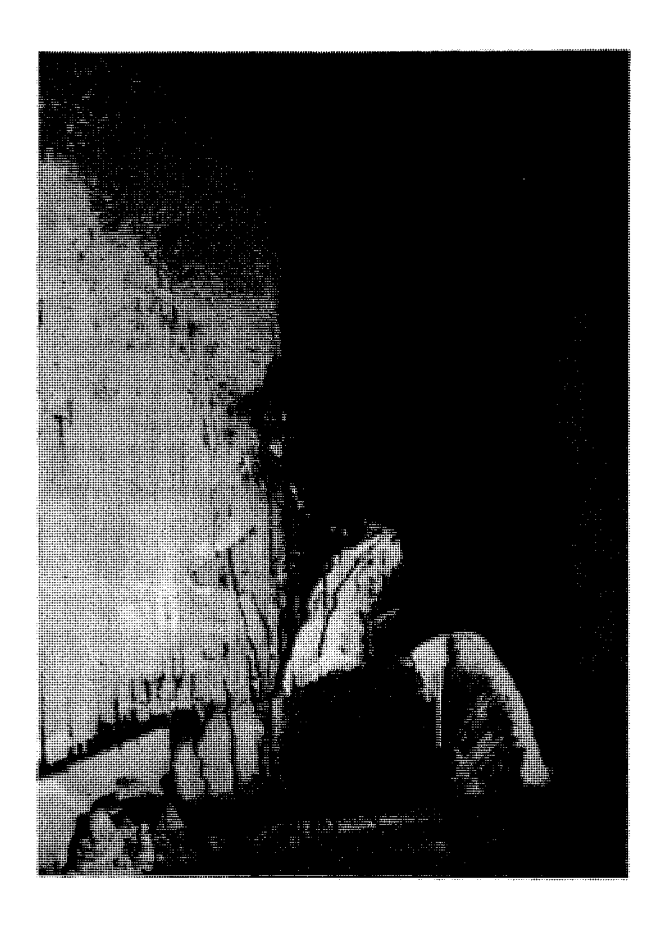
.. ويجثم الليل على القرية بظلامه الحالك.. لكن نور القلب يشرق من قلب الظلام..

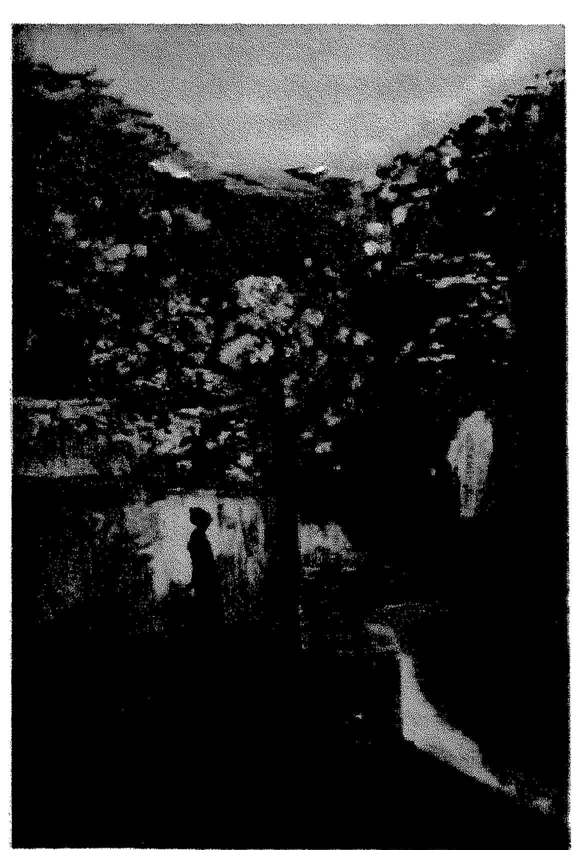
تنبعث الأطياف النورانية، متجهة إلى البركة الساكنة، كبركة معبد آمون، وقد أضاءت بنور باطنى.

يوشح النور هامات البيوت، فيضفى عليها شموخ أطلال المعابد.. تحيط الأطياف النورانية بالبحيرة المقدسة، تأهبا لطقوس دينية، أو انتظاراً لتجليات صوفية..

وبرغم أن ألوان اللوحة تبدو وكأنها لون واحد هو الأسود، فإنه فى الحقيقة ليس أسود، إنه امتزاج لعدد من الألوان حتى يصل المزيج - عند «القرار» إلى الأخضر الداكن..

إنها بالأحرى: معزوفة الآلة الوترية الواحدة. تتلاشى التفاصيل والملامح الواقعية للأشخاص والبيوت والأشجار، لتصبح مجردة، نابعة فقط من الشعور والفطرة.. هذا فى الحقيقة يليق بحالات الحدس الباطنى والتجلى الروحانى..







حــزن وسعادة ـ ١٩٨٠

كما في لوحات الفنانة فريدة، يلعب الضوء دور البطولة في إضفاء الجو النفسي ورسم معالم الأشخاص والأشكال، وأيضاً في إذابتها وجعلها تتوه في عالم من الغموض.

الضوء هنا يجعل هذا الشخص ــ الذى قد يكون امرأة ـ يخرج من الظلام، يتوهج وشاحه الأبيض وكم ردائه الأصفر وجانب من وجهه، فيما تتلاشى بقية الجسم في الظلام، لتبزغ في مقابلها على الجانب الأيسر بقعة صفراء لاتفصح عن حقيقتها، إن كانت رأس حيوان أو كتلة حجر أو بقعة ضوء أو فتحة في جدار.. خطوط الجلباب المائلة للشخص في منطقة الظل ـ في عكس اتجاه ـ الذراع المضيئة ـ توحي باندفاع إلى الأمام. تحت إبط الشخص وفي نهاية كم جلبابه، نرى بقعتين من اللون الأحمر، لاتفصحان أيضاً عن شكل محدد، وربما توحي البقعة الحمراء البيضاوية فوق كتلة الأزرق القاتم، بغطاء رأس أحمر لطفلة دون وجه تلتصق بجسم أمها. أيا كانت التفاصيل، فإن ماتعكسه اللوحة - في العموم - هو انبثاق مباغت لشخص من داخل الظلمة، متأبطاً وممسكاً لشيء أحمر، في لحظة إقبال على الحياة.. وهو معنى قريب من العنوان الذى وضعته الفنانة للوحة.



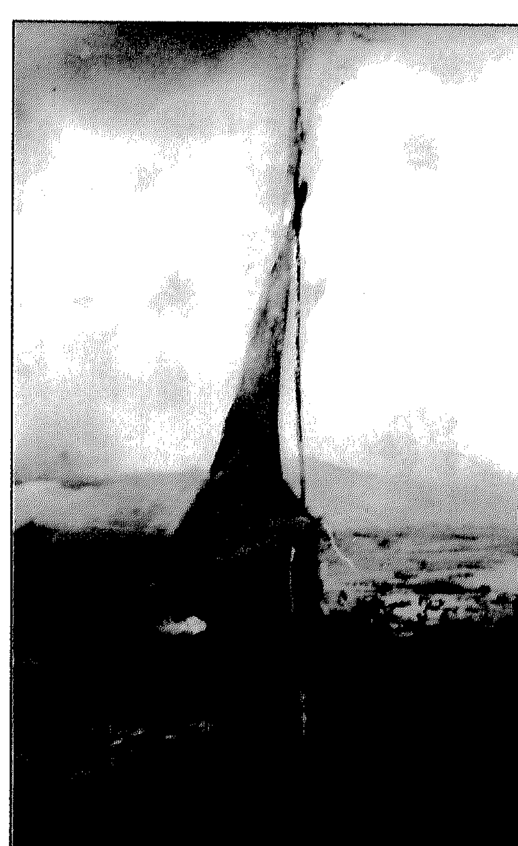
لحـن الـوداع

على امتداد صفحة النيل الذى عشقته، تتبدى روح الفنانة فريدة ذو الفقار، حتى حين تغيب القرى والأشجار والحقول والقوارب ذات الأشرعة، تصبح أكمات البوص الممتدة بحذاء النهر سياجاً دافئاً متماوجاً حانياً، يشعرنا إيقاعه البطىء بحركة انسياب التيار، وحزن لحظات الوداع .

وقت الغروب.. وأشعة الشمس تكسو صفحة الماء بلون الذهب، وبريق الذهب ينعكس على صفحة السماء المنفتحة بلانهاية.. أيهما مرآة للآخر؟.. هل النهر مرآة لوهج السماء، أم أن السماء انعكاس لذهب النهر؟.. هكذا تتمازج المساحتان عبر رحلتهما الأبدية..

وتلك الغيمة الوحيدة السارية وسط النور المذاب، تطل على النهر فى اقتراب حميم، بيضاء سماوية ترفرف مثل منديل الوداع، مثل طائر مسافر إلى بحر الشمال..

وقريباً ـ فى مقدمة اللوحة ـ تقف مجموعة أشخاص، يبزغ لهم من قلب شريط البوص على يسارهم طيف فارع أبيض.. هم فى حوارية الصمت يكسرون رتابة الإيقاع الأفقى البطىء لشريط البوص، فيما ينظرون صوب الغيمة المسافرة.. يودعونها الوداع الأخير.



نقطة
الاختراق
١٩٨١

البـــواب ١٩٧٩

لماذا كانت تختار نماذج لوحاتها من غمار الناس؟

فلاحون.. مراكبية.. سقاءون.. بدو.. جوابو آفاق.. مشايخ أزهريون؟

وها هو البواب ينضم إلى ناديها الذى يموج بالمنسيين والحفاة والمتشردين.

لكنهم أبطال متفردون فى لوحاتها، فى الوقت الذى نذكر لها لوحات تضم أشخاصاً ينتمون إلى القصور!

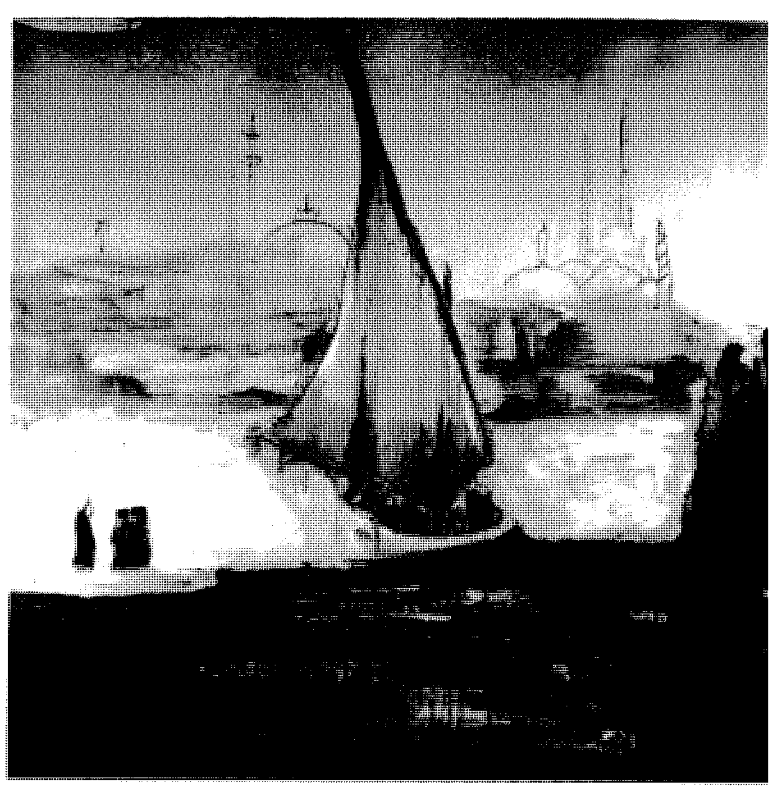
لديها ولع خاص بالرجال السمر.. صعايدة ونوبيين.. تنحت ملامحهم النحاسية بضربات مرتجلة من فرشاة سخية، دون اكتراث بالتفاصيل، وتشكل أجسامهم بلمسات متدفقة صاخبة، وخطوط صريحة موجزة، فيطلون علينا كأطياف نحيلة، يشعون بالعاطفة، ويتشحون بالرقة، وبغير قليل من الخوف.

هذا كله يتجلى أمامنا فى لوحة البواب..

فى جلسة القرفصاء نرى الرجل ذا العمامة الضخمة والوجه المثلث كمالك الحزين، وقد وهن العظم منه ونحل الجسد حتى كاد يشف فى النور، يضم ذراعيه المشدودتين بين ساقيه فى امتثال، يرتكز جذعه العمودى على القاعدة المثلثة للفخذين، مائلاً قليلاً إلى الأمام بفعل الشيخوخة، والعين تطل علينا بنظرة ملؤها الحيرة والشكاية، والكتفان الضامرتان متلفحتان بالشال الأبيض المزهر وهو يتلوى حول العنق.

فى الخلفية، نرى الأزرق والأصفر يصطخبان، فوق بطانة تشف هنا وهناك عن بقع سوداء كهواجس وهموم زاحفة..

إلا أن الجلسة مستقرة للرجل فوق مساحة داكنة، تنم عن فطرة الصبر المصرية الصميمة، وتفجر فى قلوبنا الحنان نحو هذا النوبى، الذى أرغمته الحياة على الغربة بعيداً عن بيته الطينى الرحب على شاطىء النيل فى أقصى الجنوب ليحرس البيوت الخرسانية الصماء للآخرين.. فى أقصى الشمال!



قلعـــة







فلاحة مصرية

النخلة .. والشراع.. والفلاحة.. ثالوث كثيراً ماإجتمع فى لوحاتها، والنيل هو الشاهد القاسم المشترك الأعظم بينها جميعاً..

تترقرق على صفحته انعكاساتها بالأضواء والظلال..

النخلة.. باستقامتها الشامخة، وسعفها المتهدل تشعر الجنبات.. لكنها واعدة أبداً بالرطب والنوار.. والشراع الأبيض يطعن الفضاء كالسيف، فيما ينساب مع التيار فى سفر بلانهاية..

أما الفلاحة، فهى العمود الراسخ، وهى الاعتداد رغم المحن، هى الكبرياء رغم السواد الذى يجللها مدى الدهر، هى الصبر الذى لايعرف اليأس.

هل عرفت فريدة ـ بنت القصور ـ الفلاحة المصرية الكادحة كل هذه المعرفة ؟

لانزعم ذلك !

لكن من أدرانا أنها لم تكن ترسم فريدة نفسها ؟!

إن أمامنا هنا ملكة فى زى فلاحة، وما أشبهها بملكات مصر القديمة وهاهى تقبض بيمناها على عصا مائلة على كتفها كالصولجان، جالسة فى استقرار رصين شامخة كالمسلة، فيما تنظر عيناها إلى غير دنيانا..

أتكون نظرتها نحو المجهول.. وراء الأفق الغربى؟

ومع ذلك فليس فناً ملكياً ولاهو جنائزى، حسبه أنه فن بسيط للحياة..

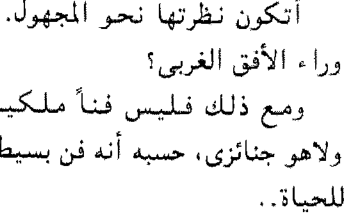


فى النوبة





جوزيف ومارى



حاملة الجرة



مصـــر ١٩٨٤

هذه البكائية وثيقة نفسية للفنان فوق أنها عمل فنى! فى دفقة شعورية واحدة أخرجت كل مكنونها المأساوى، وتركت اللون الأزرق ينزف ويسيل فوق الجسم متدفقاً بغير توقف. ترى أيكون المسفوح هو الدم الملكى الأزرق أم هى دموع إيزيس الأبدية تنهمر، لتملأ النهر حتى يفيض على الوادى، وهى تسير ملتاعة تجمع أشلاء أوزيريس؟

أمامنا شبح أسطورى الملامح يقف فى اعتداد كالطود، لانعرف بدقة إن كان من كوكبنا أو من كوكب آخر، ولاندرى بالتحديد من أين يأتى النزيف.. من الجبهة..؟ من العينين؟.. من الأنف؟.. من الوجنتين؟.. مستمر التدفق.. وحول الرقبة طوق كالهلال الأزرق تتوسطه بقعة حمراء للشفتين الأنثويتين مزمومتين، الألم فى كبرياء يكتم الآه. إنها خريطة للعذاب!

عذاب الملكة أم عذاب مصر (الطاردة ـ الطريدة)

لانقف بعد ذلك كثيراً لنسأل عن بناء مثل هذه اللوحة حسبها الصدق وضراوة التعبير .

نــور اللــه

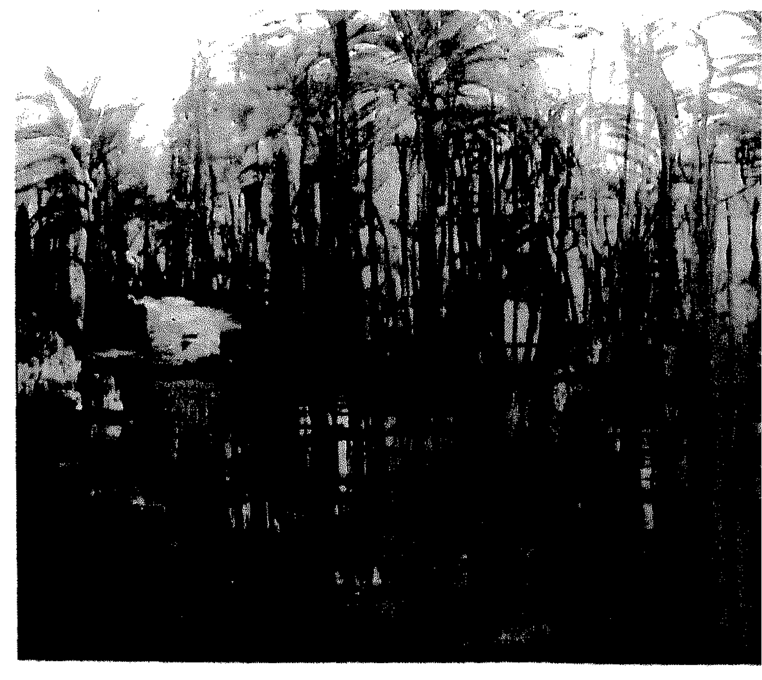
.. وتكتمل الرؤيا، فنصل إلى حالة الوجد الصوفى، إذ يتجلى نور الله للفنانة وسط كتل الظلام..

تختفى كل الكائنات المادية، ولايبقى ثمة شىء غير خيمة من نور، تنبجس فيها أطياف العاشقين..

وثمة مايشبه البوابة، أمامها يقف شبح ينتظر الإذن بالدخول.. من قمة مثلث الضوء، يتجه خط أسود، صاعداً فى الظلام، من نهايته تنطلق بقعة رمادية، فى اتجاه وهج نورانى يبدو فى أعلى الركن الأيسر.

وفى المحيط السرمدى الأسود، تتبدى غيمة فى خط مائل، تشف عن قبس من نور يوشك أن يبزغ..

هل حسبت الفنانة بعقلها كل هذا؟.. لاأظن..! فما شأن العقل المفكر، المدقق الحاسب، بالروح وتجلياتها؟



النخــــيل



كـانت أيــام ١٩٨٠

تنتمى هذه اللوحة إلى مجموعة كبيرة ركزت فيها الفنانة على قيمة «الملمس» داخل نسيج اللوحة، بما تحدثه المعالجة التقنية من تآكل وتنميش، حتى يبدو السطح وكأنه تعرض لتفاعلات كيماوية. نرى التآكل هنا ـ خاصة فى أوراق الشجر وصفحة النهر ـ وقد ترك تأثيراً بالذبذبة الضوئية المنعشة وطزاجة النهار الوضىء. يؤكدها ذلك التلاشى الحالم للشجر الأزرق فى امتداد صفحة سماء باهرة النور .

هذا مايجعلها أقرب إلى المدرسة الانطباعية تتبدى جرأة بناء اللوحة فى رسم شريط الأشجار منحدراً بعنف من أعلى يمين اللوحة إلى أسفل يسارها، كشلال هادر أزرق، لكنها تسارع بإقامة التوازن ـ عند ميل اللوحة ـ بكتلة من أوراق الشجر ذات سيقان رشيقة على اليمين، عند نهاية خط الشاطىء، وبجوارها بقعتان من الأبيض الرمادى لفتاتين تحملان الجرار، وخلفهما يتصاعد ضلع هرمى يحدد مساحة شاسعة من لون «السيبيا» الساخن، تمثل ربوة عالية، تطل على الشريط الأزرق لصفحة المياه البللورية.

التقابل بين البنى الساخن والأزرق البارد. والتضاد بين القمة المضيئة والقاع المعتم،حيث يصل بينهما شلال الشجر الأزرق، إذ يضئ فى انحداره ليلتقى مع تيار النهار المنساب فى غموض.. كل هذا يكسب اللوحة توهجاً باطنياً لنفس شفافة تستعيد الذكريات.



فى القـــرية





إدفــــو ١٩٨٦

ماء النيل والفلاحة.. عنصران يتلازمان فى عدد لايحصى من لوحات الفنانة فريدة.. لاتخفى الدلالة الرمزية الكامنة فيهما لمصر .. للخير والعطاء.. دلالة لم تتعمدها، لكنها تنبعث بالسجية من تكوين مصرى صميم، حيث تربت فى اللاشعور الجمعى عبر آلاف السنين.

كتلة الفلاحات بملابسهن السوداء (باستثناء فلاحة واحدة باللون الأبيض) وهن على شاطىء النهر يحملن الجرار.. تشكل منظومة إيقاعية رأسية الخطوط سامقة إلى السماء المتلألئة بالنور.

تتناقض البقعة السوداء بصرياً مع لون السماء الأبيض المشوب بدرجات الأزرق والوردى، فتبدو محور الارتكاز الصلب للوحة، وقد تبدو ـ فى لحظة أخرى ـ كأنها تذوب وتتلاشى فى المحيط الضبابى الأبيض.. هكذا تتذبذب فى وميض ضوئى يعلو ويخبو مثل الشهيق والزفير.

بقعة اللون الأزرق على اليسار، تشبه الرجل الجالس، لكنها تكمل قاعدة مثلث قمته البقعة الزرقاء فوق جرار الفلاحات.

يكتمل استقرار التكوين بعد وقوفه على قاعدة من شاطىء النيل الذى صنعته ضربات رأسية من فرشاة خشنة سريعة الإيقاع، ومن تحتها شريط أفقى أزرق من ماء النيل.

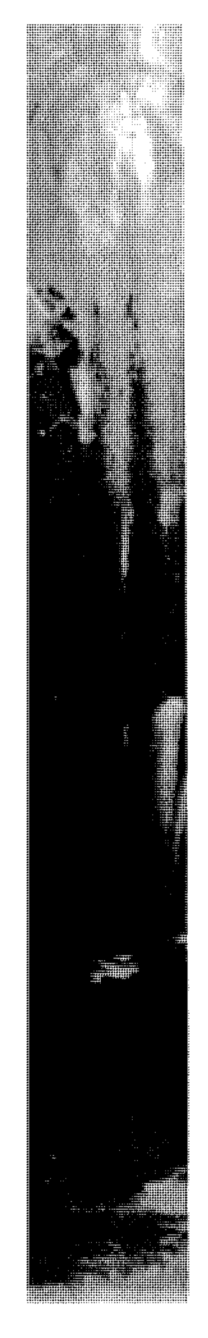
إن طابع الحلم الغامض يسرى فى أوصال هذه اللوحة الرقيقة، ويمثل أحد معالم أسلوب الفنانة فى الرسم.



شمس الأصيل

... ويحتدم الصراع وتزداد الهواجس مع اتجاه الشمس إلى المغيب وفى لحظة احتشاد أخيرة، تتلاحم القوارب وتقتحم الفضاء صاخبة الإيقاع.. عنيفة اللمسات قاتمة الخطوط.

وبالرغم من توازى الخطوط الأساسية المستقيمة للقوارب على مستوى أفقى واحد، فهى لا تتسم بالرتابة أو التكرار، بل تضج بالحركة والتنوع. والحق أننا نستطيع أن نتغاضى بسهولة عن أن مانراه مجرد أشرعة فإنها يمكن أن تكون أشخاصاً أو أشجاراً أو أشباحاً، ويمكن ألا تكون مشخصات من أى نوع، فهى المقابل التشكيلى لحالة شعورية فى مواجهة لحظة الغروب، وكأنها المعركة الأبدية بين النهار والليل، حيث تبدو أستار الظلام وهى تزحف من أعلى إلى أسفل، فيما تقاومها آخر أضواء الشمس الغاربة.



الغـــابـة

كثافة الغابة لاتخفى وهج النور الوردى المنبعث خلفها .. سيقان الأشجار المتطاولة .. المتوازية.. الغليظة والنحيلة .. لاتشكل دهليزاً معتماً، مليئاً بالمخاوف والهواجس، كما اعتدنا أن نرى الغابة.

إنها ـ فحسب ـ هدأة لنفوس حائرة، أو «دروة» للتأمل والتواصل مع الذات.

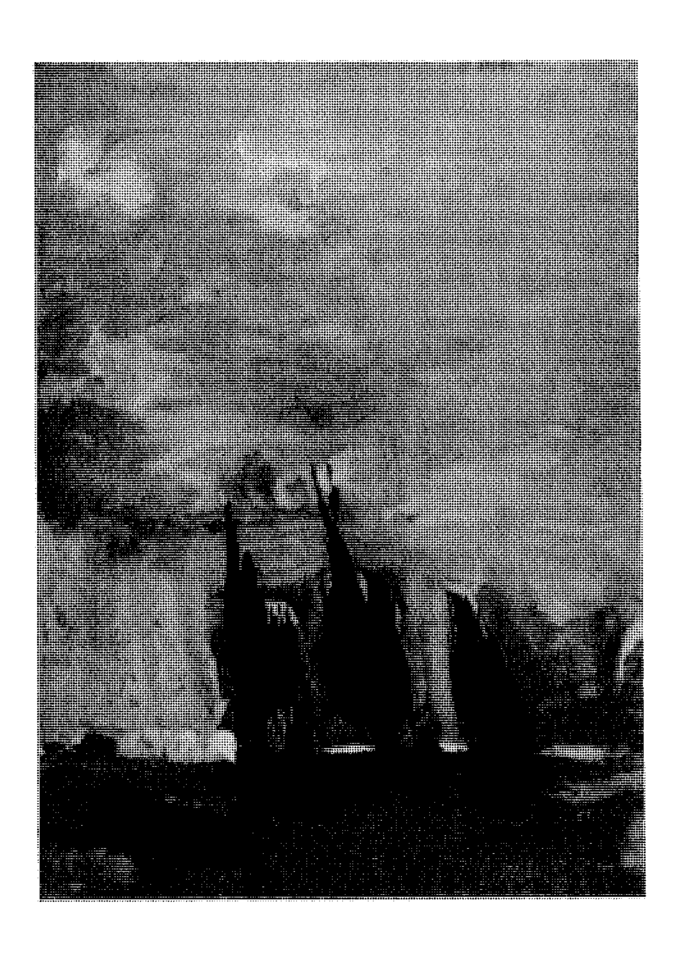
شبكة الأغصان والأوراق الكثيفة، المركبة من مزيج غنى بالألوان المختلفة، تسمح لفيض النور باختراقها، فيومض من الركنين العلويين وميضاً أرجوانياً خافتاً حيناً، أبيض مشعشعاً حيناً آخر.

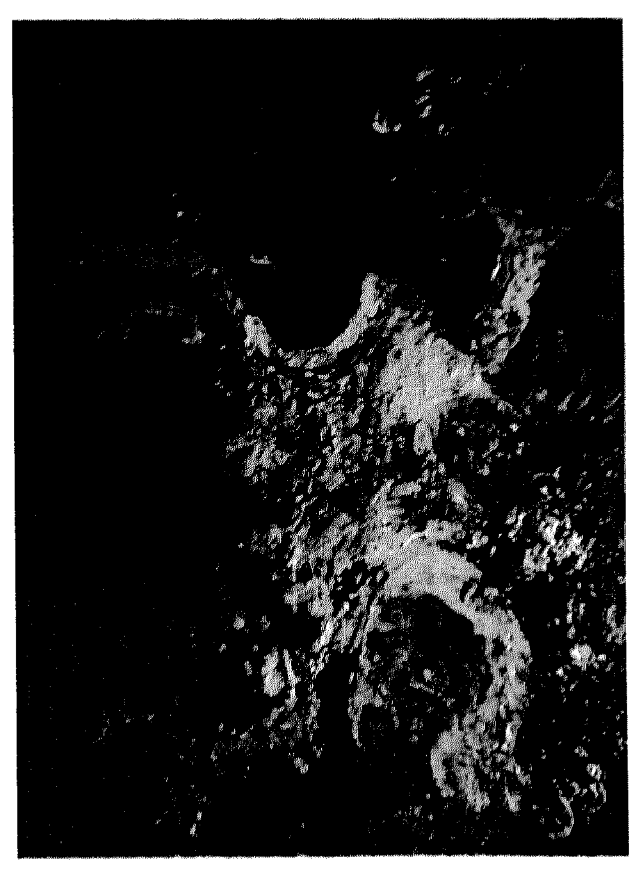
ثمة حوار صامت بين الخارج والداخل.. بين الطيف الأبيض على اليمين، والطيف الرمادى الكامن بين جذوع الأشجار، يتردد أسفل اليسار صدى هذا الحوار، فى بقع متناثرة من الضوء.

بينما يجلس على اليسار طيف برتقالى أمام جذع غليظ، فيلين من غلظته وجفافه.

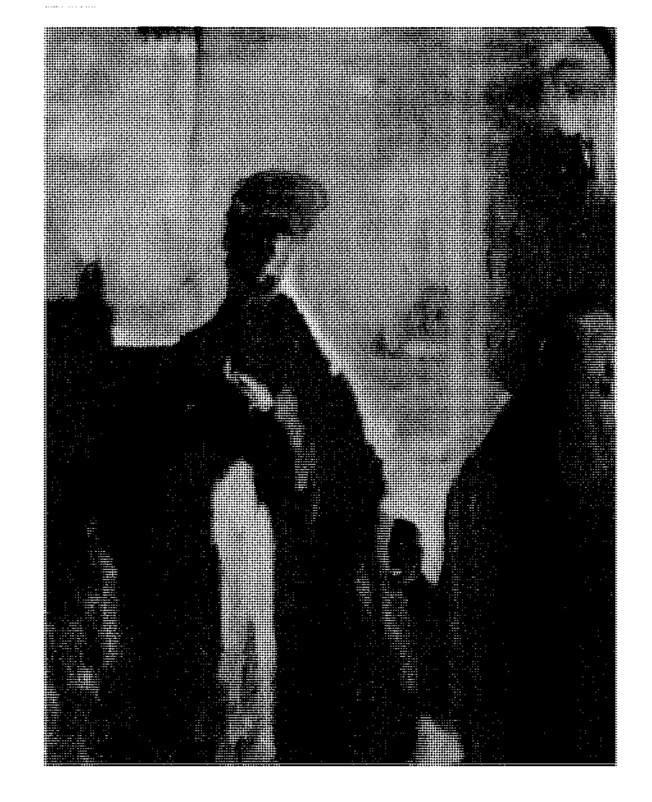
والأرض من تحت كل أولئك مشبعة بالظلال الرطبة والخضرة المظلمة.

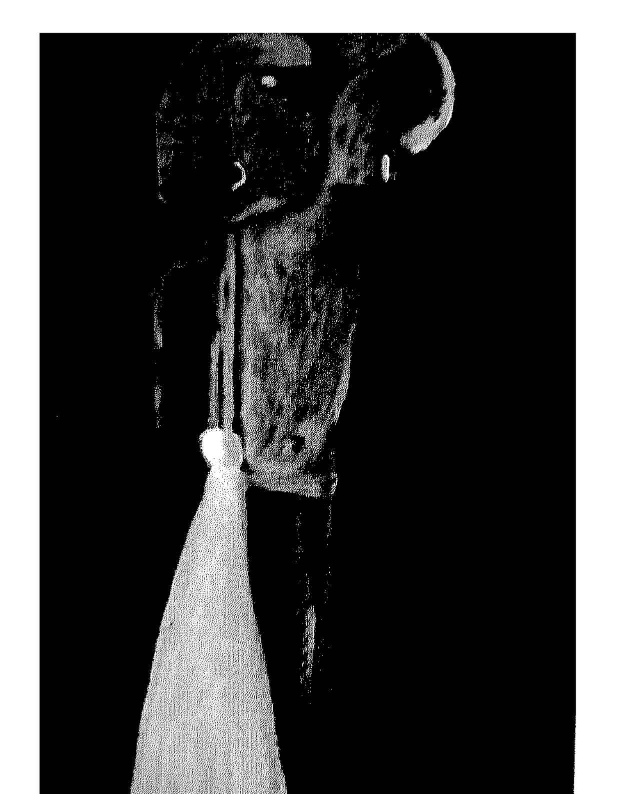
النور فى جوف الغابة والظلام خارجها!.. هل أدركنا الآن أن الفنانة لم تفعل إلا أن أطلت إلى داخل نفسها.. شأن كل الرومانسيين؟..






فرعون ۱۹۸۷







يـوم عيـد

وتمر العاصفة بسلام..
ثم تشرق الشمس من جديد وتحتفل الأشعة بالنور فترقص رقصة مرحة فى مهرجان بهيج الألوان.

هنا تختفى البقع السوداء المتناثرة وضربات الفرشاة العنيفة التى رأيناها من قبل، وتمتزج الألوان الساخنة بالألوان الهادئة فى شفافية ثم تسيل أسفل اللوحة صانعة حركة عفوية نشطة فوق سطح الماء.

أما الخطوط الرأسية المترادفة للأشرعة فإنها تغمق عند ذؤاباتها بلمسات سوداء قوية لتؤكد رقصة النصر لتلك الخطوط وهى تغزو الفراغ الوضىء معلنة عن انتصار الحياة.



النميمة ١٩٨٠

الرؤوس تتقارب وتتلاصق وهى تتبادل الهمس، كتلة مختلطة الملامح مختلفة الاتجاهات. إن جواً من الريبة والوساوس والإثارة يخيم على اللوحة دون تصريح أو تفصيل، يبدو ذلك فى الوضع التآمرى للرؤوس المتلاصقة التى تكسوها هالات من الظلال، وفى الألوان القاتمة الممتزجة فى غموض، وفى الأضواء الضبابية التى تنبع من خلفية اللوحة، فتجعلها عاملاً مسكوناً بالأسرار. يمتد قوس الظهر للرجل الأوسط مائلاً بحذاء خط المرأة الواقفة خلفه، أما قوس صدره فيتلاشى فى الضوء المنبعث من خلفية الأشخاص، ويمكن للعين أن تمد قوساً وهمياً آخر، يبدأ من قمة رأس المرأة على اليسار، لينتهى عند رأس الرجل على اليمين.

هذه الحركة القوسية ـ المتوالية والمتقابلة ـ تعمل على تأكيد حسن الانكفاء والتلصص، كما تزيد البناء ترابطاً وإحكاماً.

ركـــود

لم تكن فنانتنا تمل رسم القوارب والزوارق، على صفحة النيل أو فوق أمواج البحر، رسمتها بمشاعر ومعان ومترادفات شتى، حسب حالتها النفسية. تبدأ رحلتنا النيلية معها من خلال هذا القارب، ينساب على صفحة النهر الساكنة فى إيقاع بطىء يكتنفه ضباب الصباح المشبع بالرطوبة.

تتوحد على سطح اللوحة وتتداخل صفحتا النهر والسماء، لايفصلهما إلا خط الأفق النحيل، الذى يظهر ويختفى فى غموض عند مجموعة من الأشرعة البعيدة، وتضاعف الدرجات الرمادية الممتزجة بمشتقات الأزرق والبنى من شفافية الرؤية حتى تصبح أقرب إلى الحلم .

تتعالى سارية القارب فى منتصف اللوحة تماماً متعامدة مع الأفق فتقسم صفحة السماء إلى قسمين متساويين، لكن ذلك لايخلق الملل المتوقع من مثل هذا التماثل، إذ أنهما يختلفان فى الإضاءة وضربات الفرشاة.. فعلى حين يشع النور وينتشر مشرقاً فى الجانب الأيمن، يكتسى الجانب الأيسر بالقتامة والهواجس، التى تعكس الظلال الطولية الممتدة، وربما تحاول أن تبددها بقعة دائرية بيضاء تعلو الشراع المتماوج.

تظل السارية باعتدادها المتسامى ليوم شاهداً على مولد النهار، أما جسم القارب الذى تشكله بقع هرمية قائمة متوالية ـ فيربض فوق الماء مستقراً بلا حركة، إلا مايبدو فوقه من رؤوس راكبيه ومايبدو أسفله من مجاديف أو ظلال. إنه لحن الصباح الناعم ليوم جديد..





الرحيــــل

من الأسود والرماديات تنسج الفنانة عالمها المسائى المقمر، مسكوناً بالغموض والهمس..

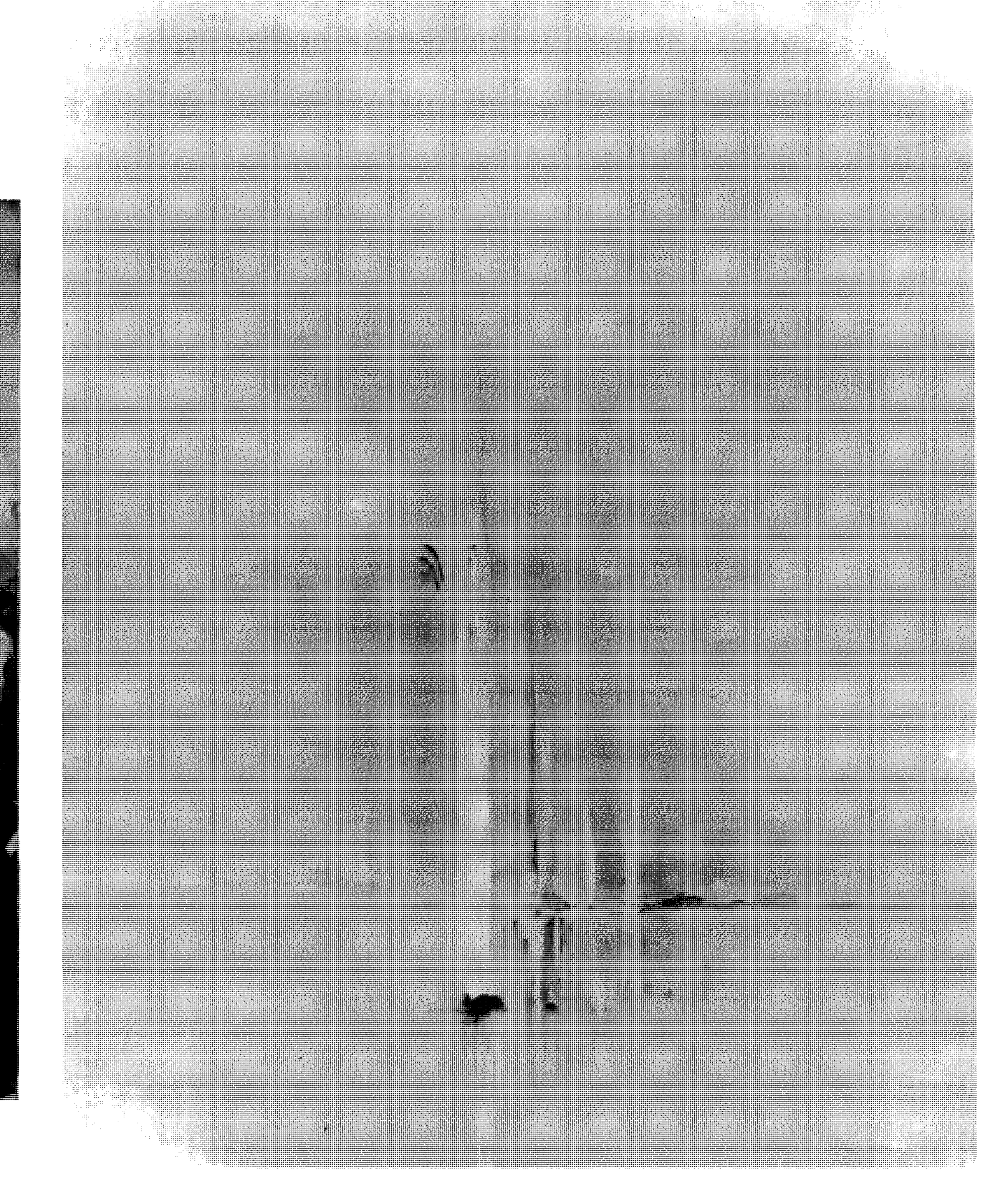
أشباح بلاملامح، متسربلة بالأسود، تتجه إلى درجات سلم المعدية على شاطىء النهر..

فوق السلم شبحان أسودان يواجهان الشاطىء الآخر فى انتظار المعدية على يمينهما أكمة رمادية من الهيش، يبدو وسطها شبح ثالث أطول قامة ينحنى على الهيش..

على الشاطئ المقابل ـ بأعلى اللوحة ـ تمتد مجموعة أكثر غموضاً من أشباح قد تكون أشخاصاً أو أشجاراً أو صخوراً، تنتصب فى خطوط متوازية، يقطعها شكل بيضاوى هائل لسمكة أسطورية..

ينتفض سطح اللوحة ويتذبذب بارتعاشات لمسات الفرشاة العصبية بألوانها الرمادية، التى تكتم تحتها ألواناً أخرى وتشف عن بعضها بين الفينة والفينة : لمسة حمراء هنا، زرقاء هناك، بينما ترشح من كل مكان آثار لون بنفسجى مفضض..

تنبجس ومضات النور على نحو فجائى، وسط جذوع الأشجار أو أشباح الراحلين، لتؤكد إيقاعاً درامياً حزيناً، لعالم فى طريقه إلى الرحيل...



سـباق الـــزوارق

هاقد ظهر للقارب الوحيد إخوة كُثْر والصبح يشرق بنور فضي.. تنساب القوارب فى طابور ممتد بأشرعتها النحيلة الباسقة فى نعومة وغموض، قبل تلاشى خط الأفق فى خط السماء وسط الضباب الأزرق.

لعلها دعوة إلى السفر فى المجهول، أو حنين إلى أرض الوطن.

لمسات الفرشاة ناعمة أقرب إلى الهمس، تتخلى عن الضربات الخشنة والألوان القوية والتضاد بين الدرجات، مما تتسم به كثير من لوحات الفنانة، وبدلاً من ذلك نجدها تعزف على لون واحد هو الرمادى الضارب إلى الزرقة، لكنه يتلون بعديد من الدرجات، وتنبثق من داخله الأضواء فيتخذ سمتاً نورانياً حالماً .

فكرة التسامى إلى النورانية تبدو واضحة فى الاستقامة المتطاولة للأشرعة البيضاء، وفى الارتفاع الشاهق لرقعة السماء، التى تحاول التخلص من كتل الظلام وتزداد توهجاً بالنور كلما صعدنا إلى أعلى، حتى تصبح الاستطالة الواضحة فى التكوين شيئاً ضرورياً، برغم أنه فراغ ممتد..

لعلها تذكرنا على نحو ما، بالفنان الإنجليزى «تيرنر» الذى جعل للفراغ الهائل معنى ينبض بالضوء ويهمس بالشعر.



الخليـج
١٩٨٠

معزوفة اللون الأزرق.. عناق الأزرق للأزرق.. السماء للبحر.. رغم وجود فاصل هش من لسان رملى ..

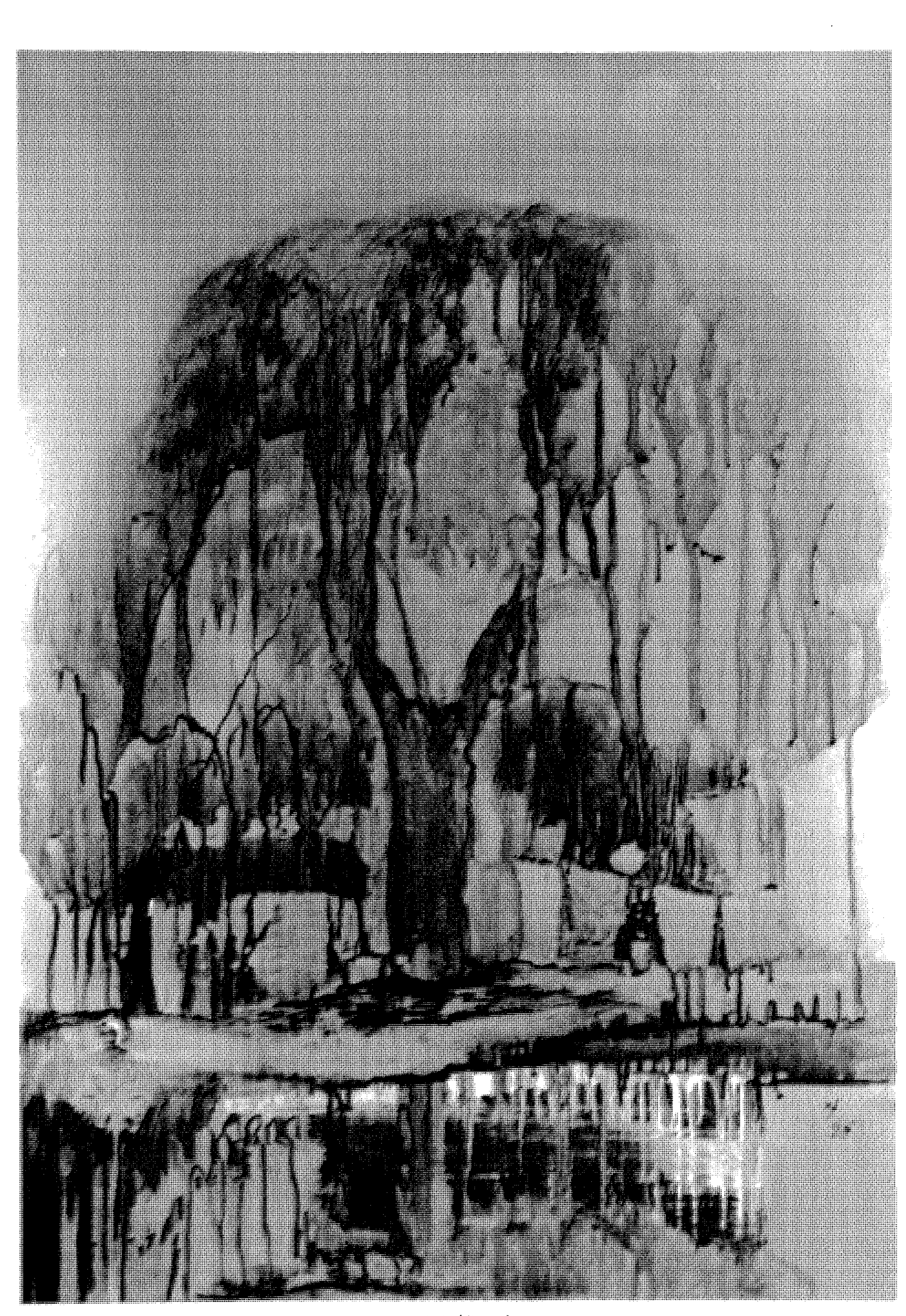
تلعق الموجات البيضاء الواهنة قدمى المرأة ذات الوشاح الأحمر على اليمين، وهى غائبة بروحها وراء المجهول..

يساراً يتجه هذا الرجل صوب البحر مولياً ظهره للمرأة، غائباً فى سحر المشهد.

وفى السماء تهيم غيمات ضبابية فى بحر علوى من لون الفيروز، تطاردها موجات من لون بنفسجى.

هذا الهمس الشعرى ليس إلا تجلياً صوفياً، ومناجاة حميمة بين الفنانة والوجود...

إنها واحدة من أعمالها التى كانت فيها تزداد قرباً من بحر الصفاء الأبدى.



شجرة أم الشـــعور

القريـــــة

كانت القرية المصرية هى الاكتشاف الأعظم لفنانتنا فى سنواتها العشر الأخيرة أطلت عليها للمرة الأولى عبر رحلاتها النيلية بنظرة السائح العابر المنبهر.

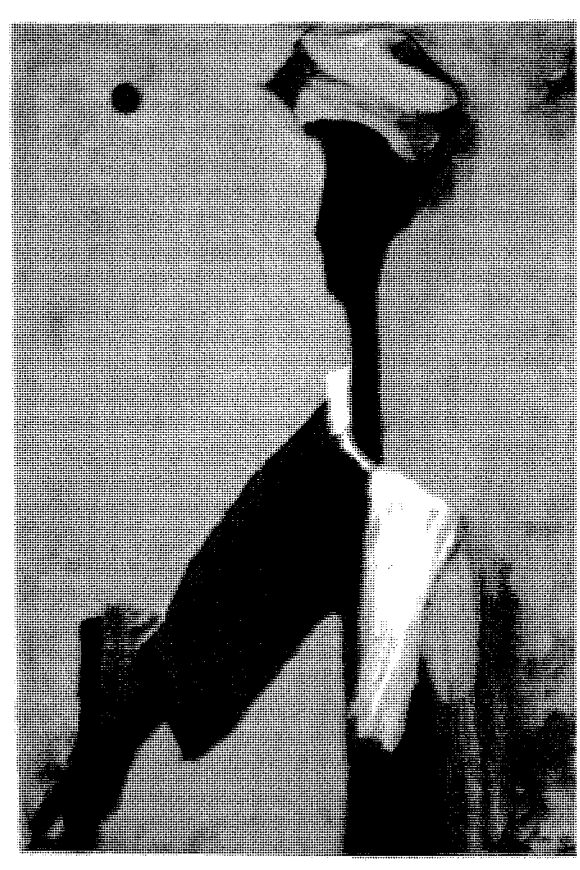
لكنها حين رسمتها تجاوزت هذه النظرة إذ جعلت من القرية مسرحاً تسقط فوقه مشاعرها الذاتية.. مخاوفها .. هواجسها.. أمانيها فى الطمأنينة والسلام.. رغبتها فى السمو والتعالى فوق المحن .

ارتبطت القرية عندها دائماً بالنخلة وبالأشخاص المتطاولين فى سكون وشموخ كتماثيل فرعونية.

ومع ذلك لاتشعر فيها بالسكونية.. إذ تتقاطع وتتعانق الخطوط الرأسية مع الخطوط الأفقية، وتتباين وتتجانس الألوان الساخنة مع الألوان الباردة، وتتضارب وتتلاحم لمسات الفرشاة الخشنة مع الناعمة.

تختلج الحركة المروحية فى جريد النخلة المهتاجة ـ وهى تطل على بيوت الطين المنخفضة ـ حتى تصل إلى العنف ويكتسى بعض الجريد بأضواء غامضة كأنها تنبع من داخل كل جريدة إن لم تكن تنبع من الشبح الأبيض الرابض أسفل جذع النخلة .

تعبير فطرى وعفوى طازج لايتم إلا فى ذروة من الانفعال!



الفـــــــلاح

النيل في النوبة ١٩٨٦

فى كثير من لوحات الفنانة فريدة يرتبط نهر النيل بالمركب الشراعى والنخلة .

إنهما يقفان هنا متوازيين .. فى شموخ لم تنل منهما قوة العاصفة .

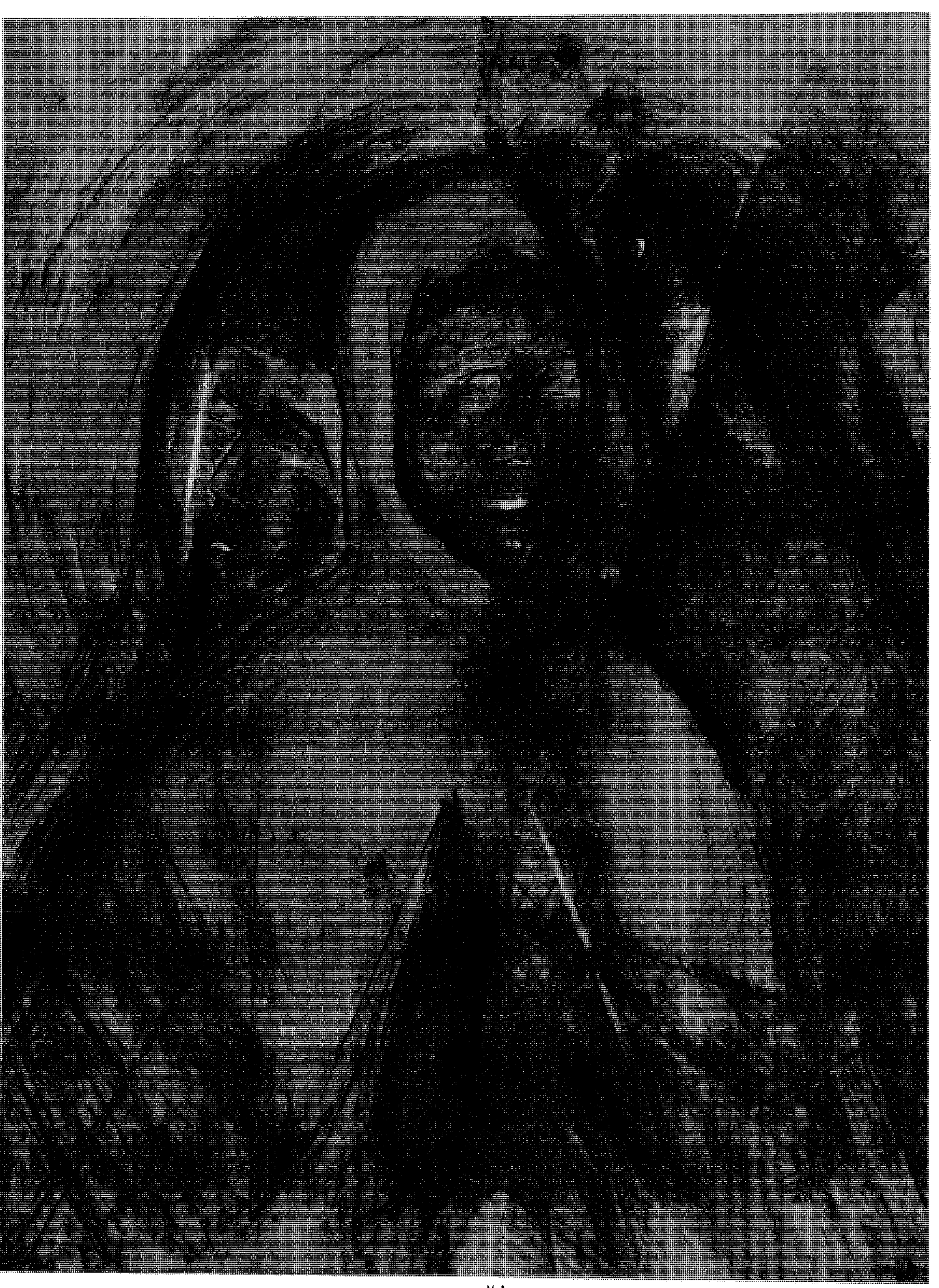
عنفها يبدو فى رفرفة قماش الشراع الأبيض وسط ألوان السماء ، حتى تخال وكأنه قد تمزق، كما يبدو هذا العنف فى جريد النخلة، إذ يدور دورة مروحية عكس اتجاه حركة الشراع، فيشبه رأساً أشعث الشعر.

ولكى تزيد الإحساس بقوة العاصفة، تركت الفنانة جزءاً من السماء الزرقاء باللون «الأوكر» خلف النخلة، فصنعت خطاً متذبذباً مائلاً ينحدر بقوة نحو الشاطىء والشراع، لتخلق نوعاً من عدم الاستقرار، ضاعف الشعور بهبوب الرياح .

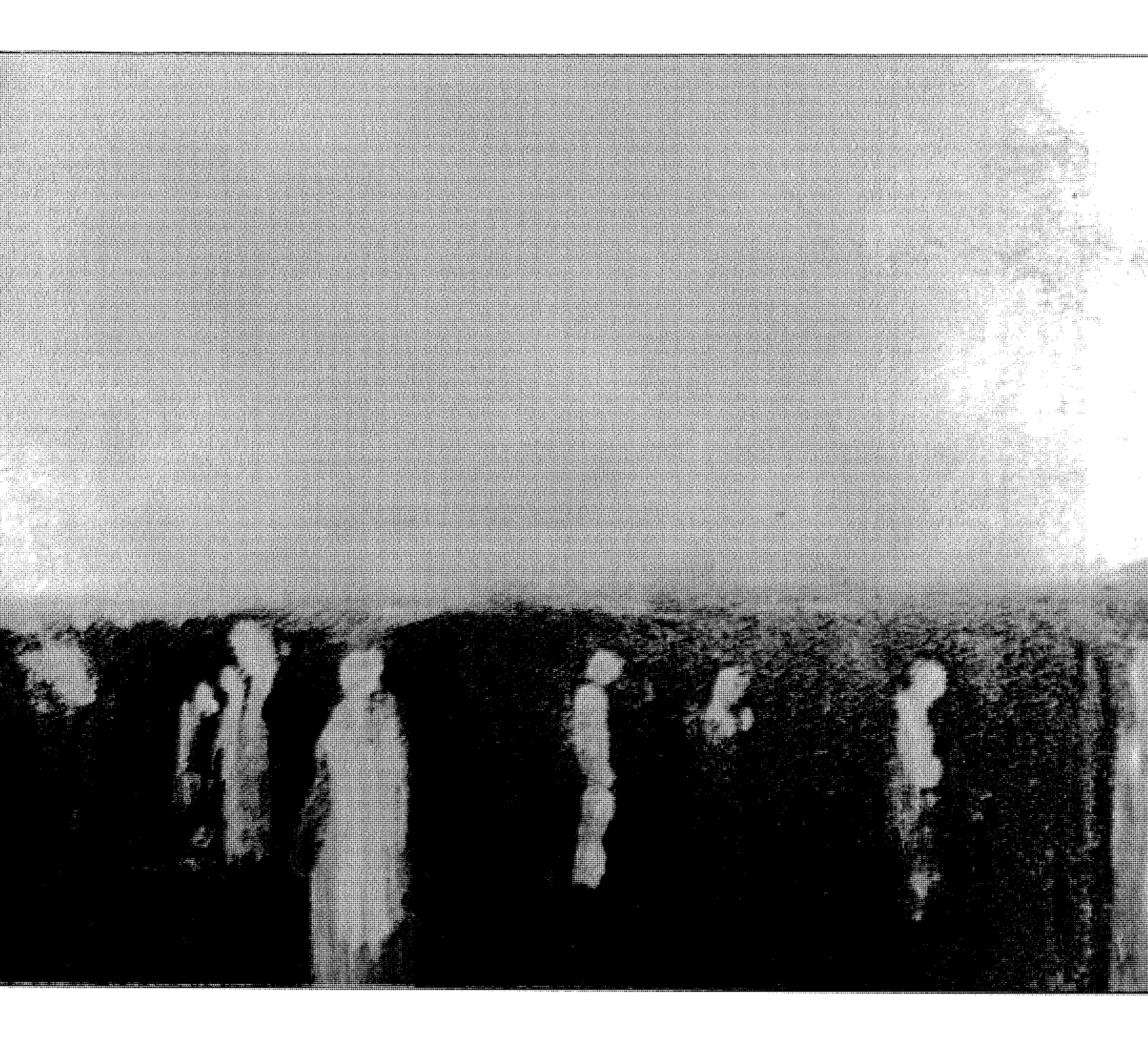
تبدو ضربات الفرشاة واضحة التلقائية، حتى أن الفنانة تتركها تسيل على سجيتها فوق صفحة السماء المتماوجة الزرقة، بعكس النخلة والقوارب التى اتسمت ضربات الفرشاة فيها بالاندفاع والعنف .

المسـيرة ١٩٧٩





فى الديـــــــــــــر



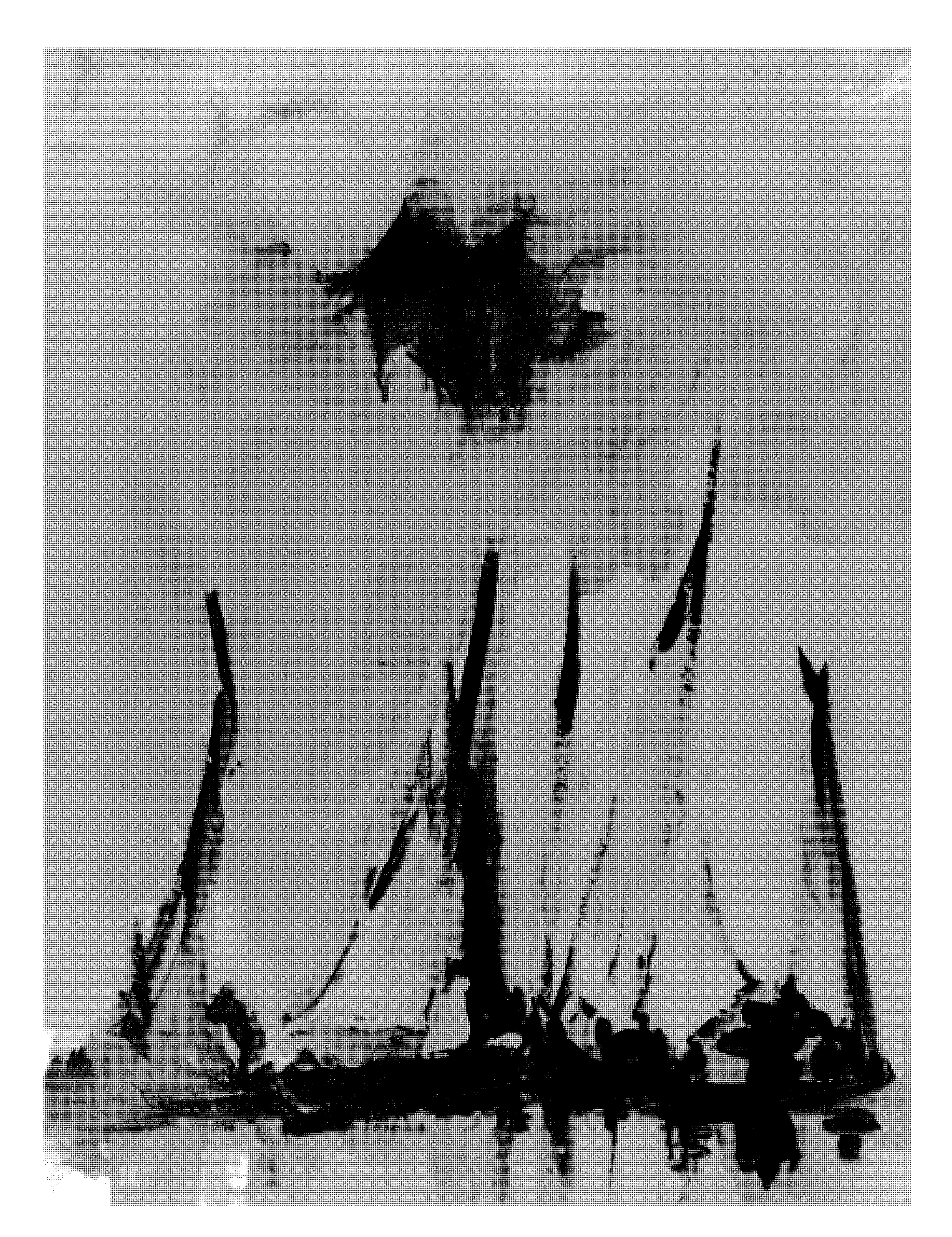
جني القطن ١٩٨٠

قد تذكرنا هذه اللوحة بلوحات الواقعية السحرية فى أوائل هذا القرن، بما فيها من جو حُلمى غامض، لكنها قد تتخذ هنا سمتْ المدرسة الواقعية القديمة فى القرن الماضى، فى اهتمامها بمشاهد العمل وسط آفاق الطبيعة الرحبة، مع وضع خط الأفق قاسماً للوحة، بما يجعل السماء تحتل المساحة الأكبر.

لكن الفلاحين هنا يكتسبون شيئاً لايتوافر لفلاحى الواقعية باتجاهيها : وهو الحس الميتافيزيقى بكائنات طيفية بلا ملامح أو تفاصيل، تنبعث من داخل حقل القطن، وتتخذ أوضاعاً ساكنة ثابتة فى خطوط رأسية متوازية، أقرب إلى قطع الشطرنج التى تحركها أصابع خفية !

هذا الحس بالقدرية في أوضاع أولئك الفلاحين، يؤكده الامتداد الفسيح لرقعة السماء، بما تموج به من أضواء مجهولة المصدر، ومن سحب نورانية لها مهابة الأقدار..

هنا تصبح هذه السكونية عنصراً تعبيرياً مبرراً ومطلوباً، كى يبدو فى تسليم الإنسان بما يأتى به المجهول.



شراع في العاصفة

... وماأسرع أن تتلاشى النعومة وأحلام السفر والحنين، حين ينقض على القوارب المسالمة هذا الهول الأسود الغامض من أعلى السماء، ويقترب منذراً بعاصفة هوجاء، وتدب الحركة فى أشرعة المراكب، وتشرئب أطرافها السوداء فى محاولة مستميتة للدفاع عن نفسها.

إن العين لاتملك إلا أن تنتقل فى قلق بين الجزء العلوى والجزء السفلى من اللوحة، بين دوامات السحب فى حركة انقضاضها على القوارب، وبين انتفاضات هذه القوارب النحيلة وظلالها المرتعشة على سطح الماء .. لكن الألوان بدفئها الوردى تكسب قواربنا أملاً يجعلها قادرة على اجتياز العاصفة.

أما الضربات القوية المتعارضة الاتجاهات للفرشاة فتلعب دوراً أساسياً فى تجسيد هذه اللحظة الدرامية النادرة، التى يبدو أنها كانت تدور داخل نفس الفنانة، وإن جعلت مسرحها هو البحر والسماء!



وجه من الصعيد

لم يكن إنتاج الفنانة من البورتريه (الصورة الشخصية) بكثرة إنتاجها فى الأغراض الأخرى. لأن مايشدها هو «التعبير الباطنى» وليس التسجيل الخارجى، فكانت تجد فى مشاهد الطبيعة مسرحاً مفتوحاً تسقط عليه مشاعرها العفوية، وتتخلص فى رسومها من التفاصيل الواقعية .

وعندما ترسم البورتريه ترسمه بنفس أسلوبها الفطرى فى رسم مشاهد الطبيعة ..

إنها هنا لاتركز على ملامح الوجه ولاتسعى إلى محاكاة الواقع (التى لاتجيدها فى الحقيقة)، بل تهتم بالجو النفسى العام للوحة، فتضفى عليه نوعاً من الغموض، وقد نقول من الألم أيضاً، وهو مايبدو هنا فى العينين المترقرقتين بسحابات أشبه بدموع تنضح بلون الدم..



إلا أن وضع الشخص يبدو ـ مع ذلك ـ تعبيراً عن الكبرياء، الذى يتمثل فى الرأس المرفوع والرقبة المنتصبة فوق الصدر العريض، وتبدو العمامة البيضاء مثل هالة نور فوق الرأس، مما يذكرنا بطابع الأيقونات القديمة، وليس هذا وحده مايذكرنا بذلك الطابع، بل كذلك حس القدم والتآكل الناتج عن عوامل الزمن، والإضاءة الذهبية المنبعثة من باطن اللوحة، فى إطار من السكون الثقيل .

لكن ضربات الفرشاة، بتوترها وتشابكها، تزيل أثر هذا السكون، محققة ملمساً شديد الثراء، ينتقل من الكثافة إلى الشفافية، ومن الخشونة إلى الرقة..

وكشأن لوحاتها المسائية، تمتلىء خلفية هذه اللوحة بالهواجس النفسية التى تنبثق من محيط الظلام.



القريـــة في المســـاء

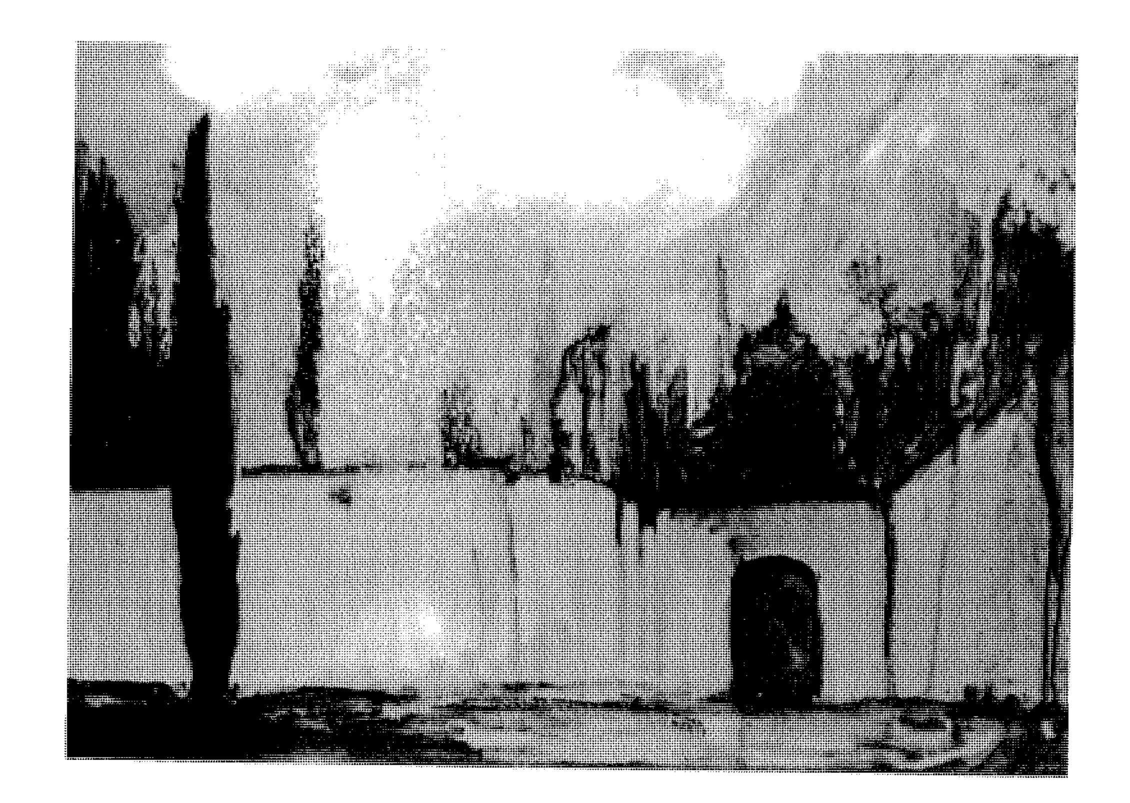
... ويحل المساء تبتلع الدور الطينية الخفيضة أهلها - وكل ماهو حي - بعد يوم هدَّه التعب ..

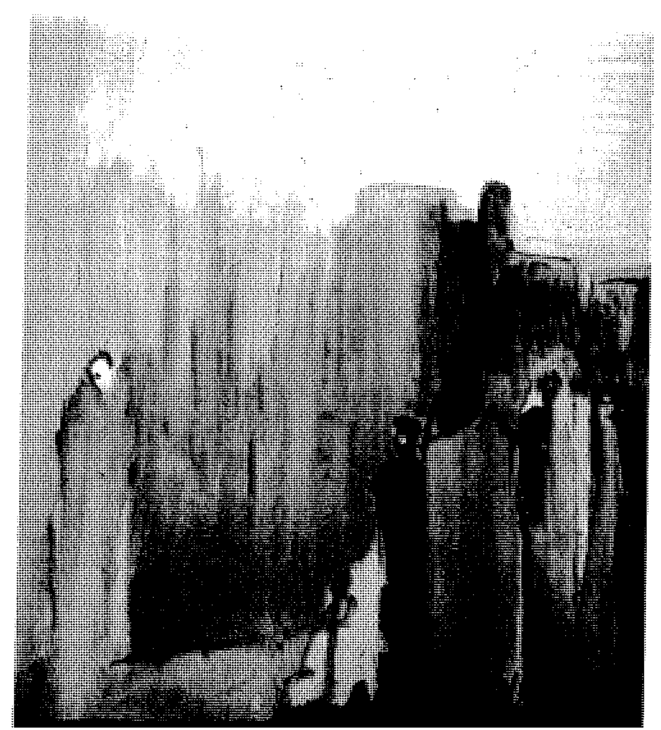
يتسربل الوجود بالصمت، تطل عليه رقعة عريضة من الأزرق العميق، وتنبثق منه غيمة قمرية نحيلة وإن كانت الليلة بلاقمر..

وبحيرة المساء ساكنة معتمة لاتعكس حتى ظلال البيوت.. كل شيء يشعرنا أننا أمام مشهد مسرحي يترقب - بين فينة وأخرى - ظهور الممثلين حيث ينتظر أن تدور أحداث جسام !

إن مذاق «الاسكتش» السريع - الذى يميز كثيراً من أعمال فنانتنا - يناسب هذه اللحظة الزمنية والنفسية المتقلبة .

وهنا يطغى «الشعر» على «التكنيك» والإتقان..







السمـــــــوات والأرض

إذا كـان لـلـتـسـامـى أن يتجسد فى شكل فنى فهو يتجسد فى هذه اللوحة ..

يبدو لنا هذا التسامى (من الأرض إلى السماء) كمحاولة للخلاص من الجاذبية الأرضية ونوازع النفس السفلية ثم الإقلاع نحو المطلق ..

محاولة عسيرة مليئة بالألم الذى تشى به هذه المساحة العريضة من اللون الأرجوانى السائل فى طبقات أو مراتب متتالية.

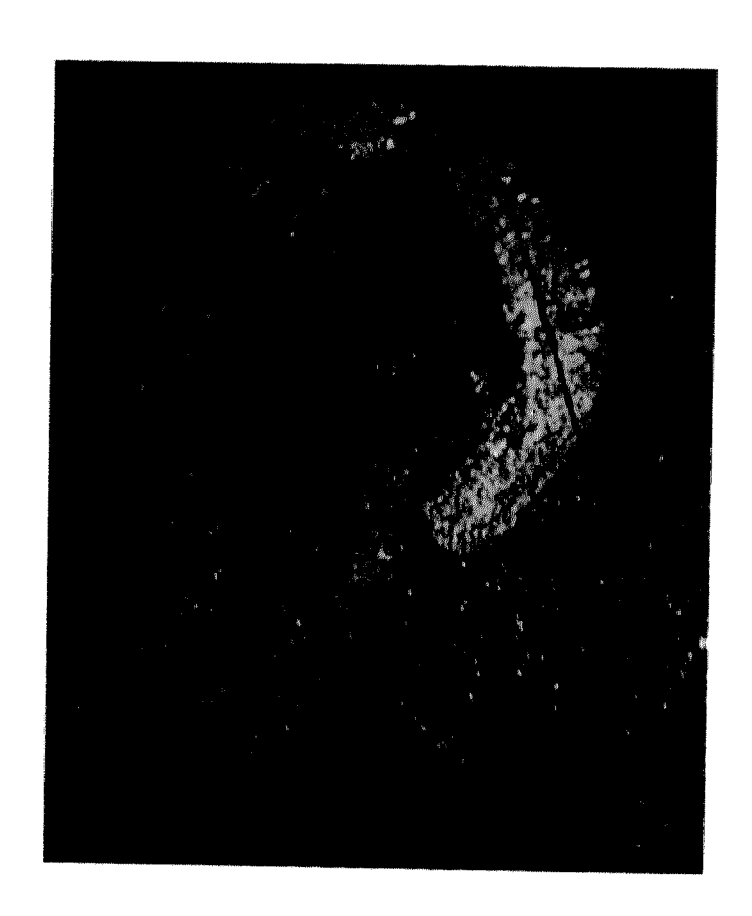
لكن الأرض تبدو وكأنها تتمسك بما تملكه ..

فمازالت النفس وأشواقها تنجذب إلى أسفل برغم أن قوة الاندفاع تستميت للصعود فى شكل هذه الوشائج أو الخيوط الرأسية من الضوء الشفيف .

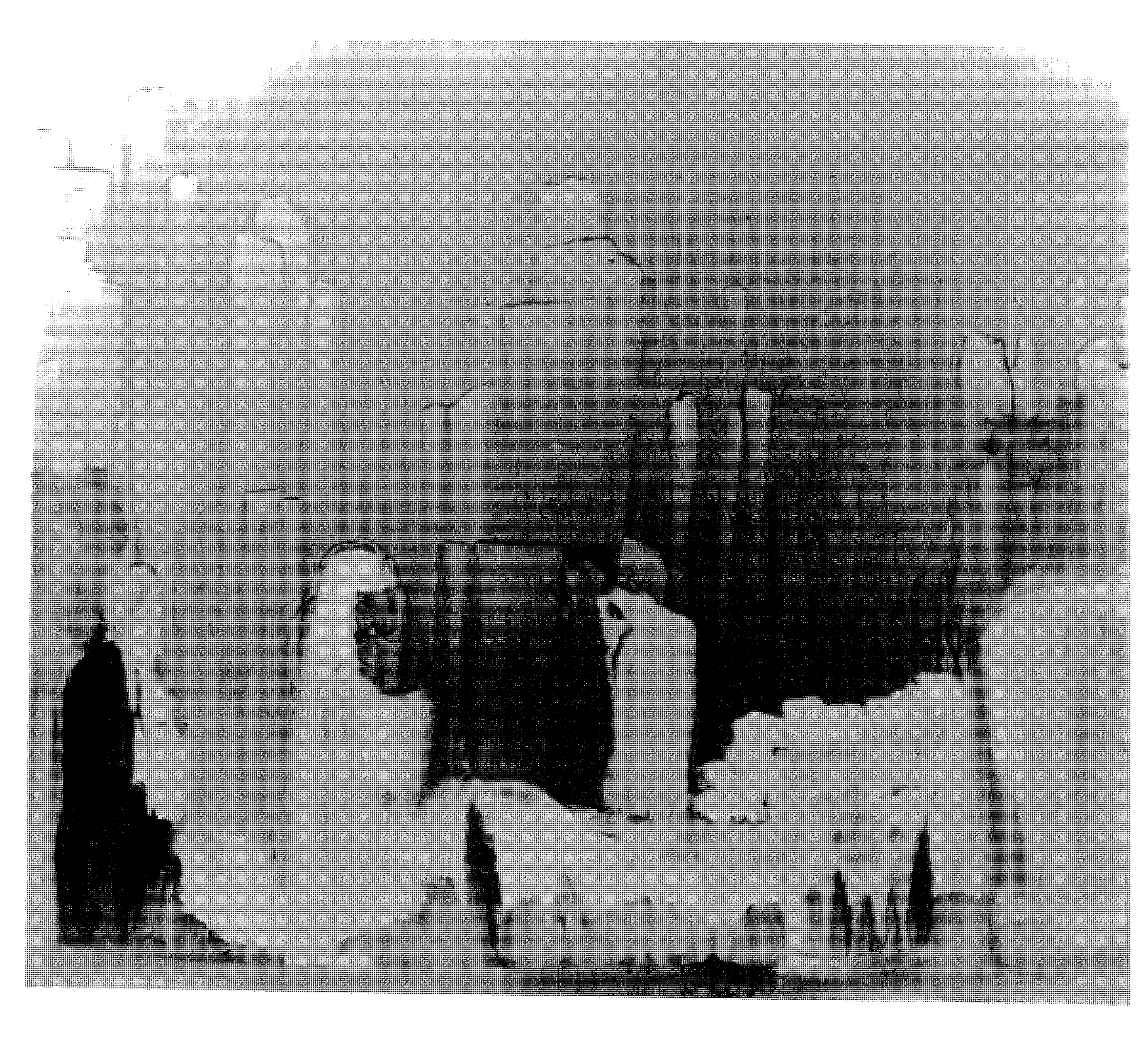
ويبدو خط مجوف ومليء بالدفء والإعزاز، وينتهى قاع اللوحة بما يشبه الجنة الأرضية فى شكل هذه الأشجار على حافة النهر .

وثمة جسم أبيض وآخر قاتم الاخضرار أسفل يسار اللوحة يربضان كأسيرين لجاذبية الأرض، وينتظران اللحظة المتواتية للانطلاق فى الفضاء اللامحدود مع الكائنات النورانية التى نجحت فى الانسلاخ من الجاذبية الأرضية.

هذا التفسير يمكن أن يكون انعكاساً للنزعة التأملية الصوفية التى اتجهت إليها فنانتنا فى سنواتها الأخيرة وعبرت عنها من خلال هذا الأسلوب (التجريدى التعبيرى)



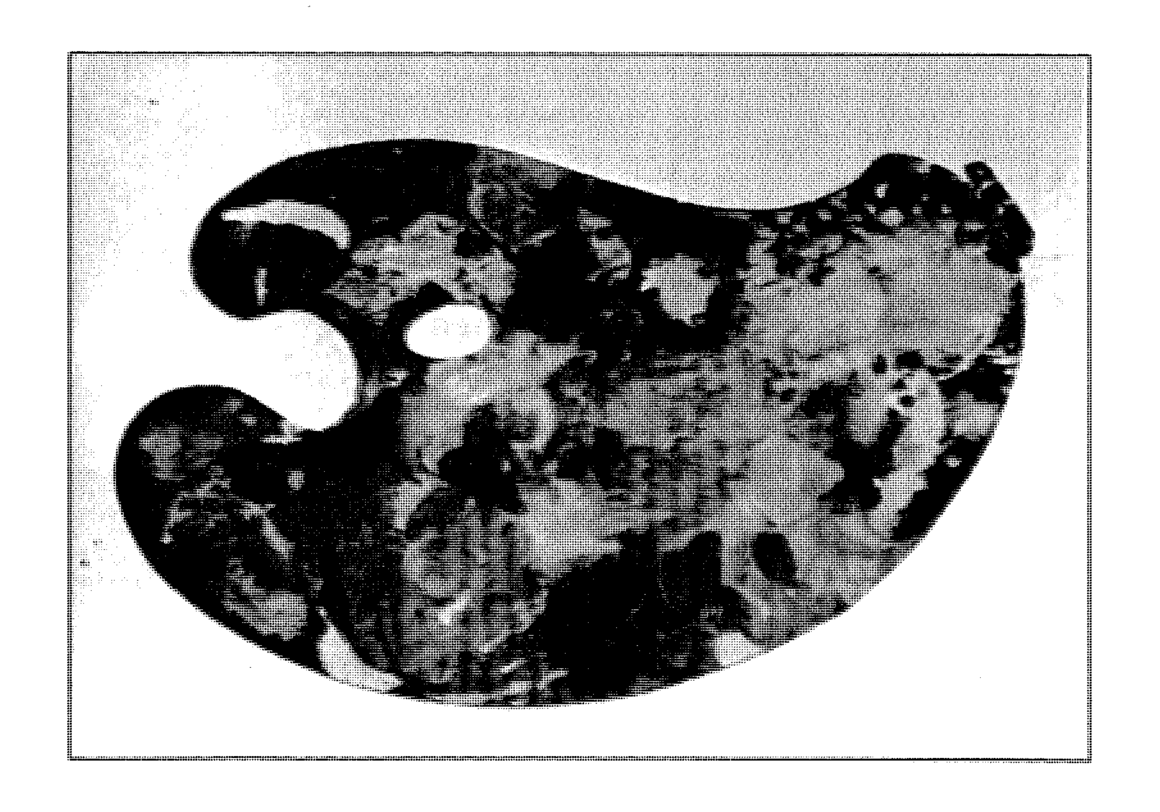




بعد الطــوفان ١٩٨٦



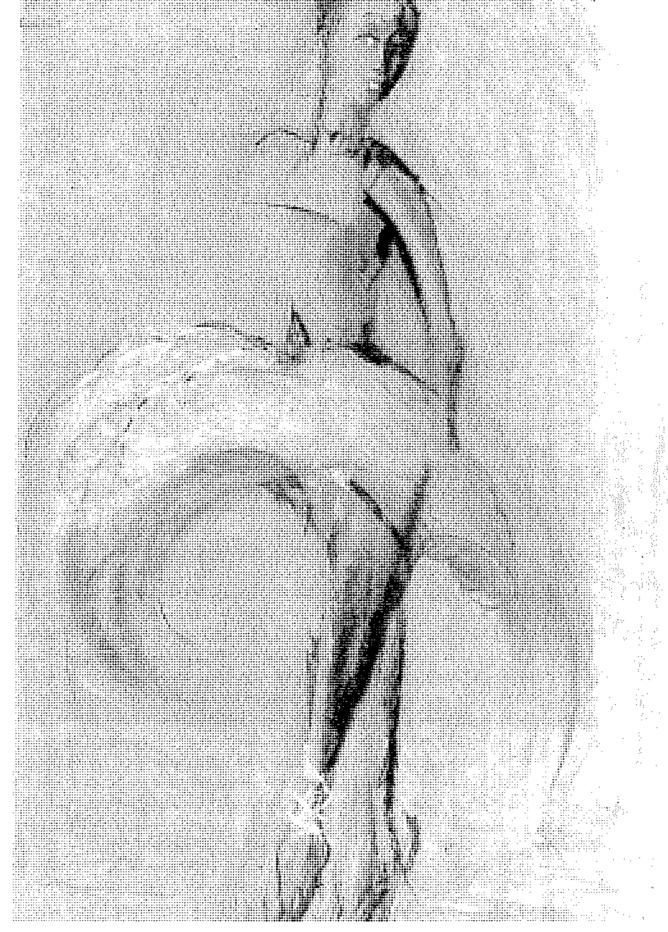
المنقــــــــــــذ



قاهـــرة المعـــز



جبل ســـيناء ١٩٨٦



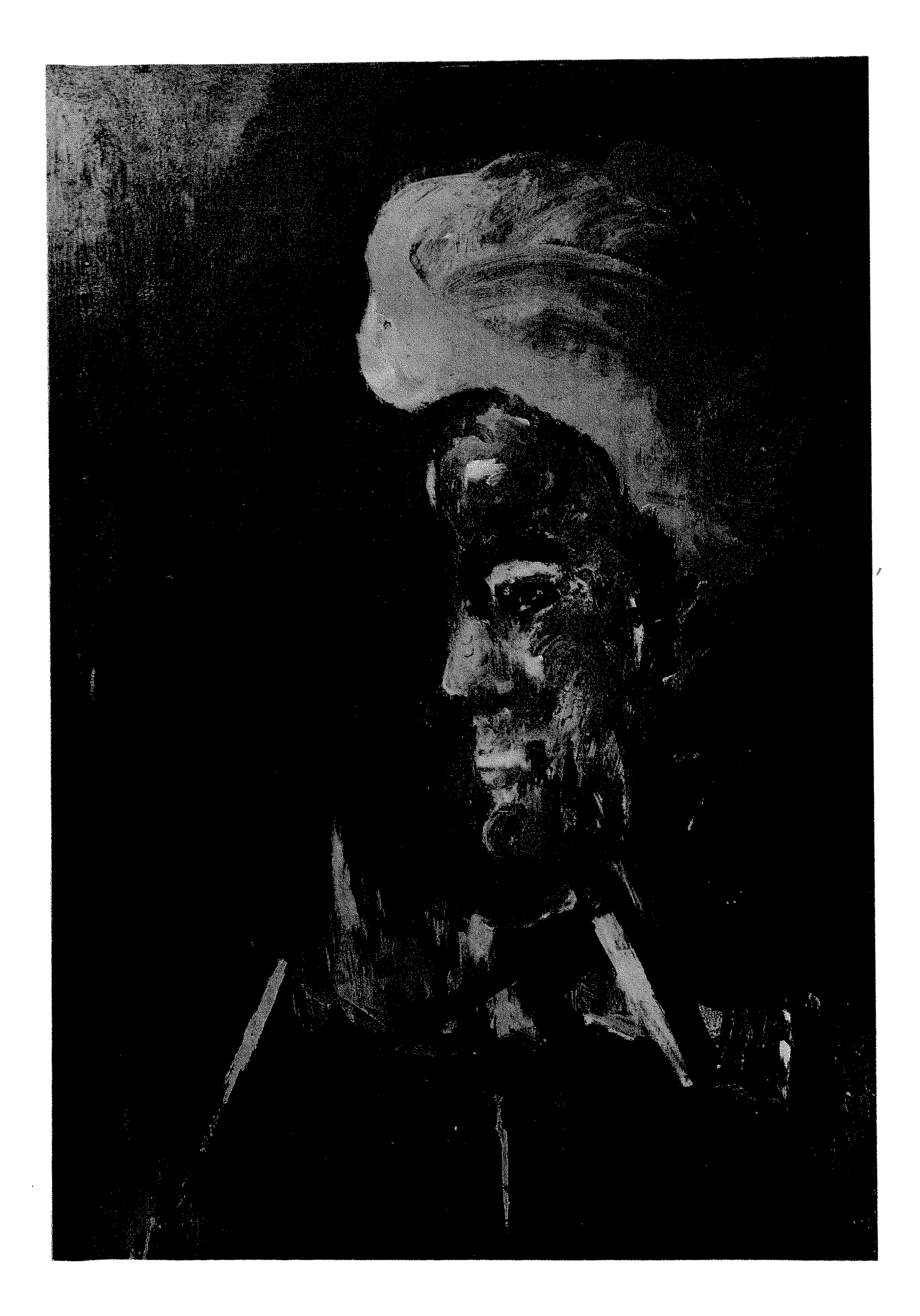


التميمة ١٩٧٨

كم يذكرنا هذا الوجه بالوجوه المصرية القديمة، فتقاطيعه أقرب إلى تقاطيع وجه نفرتيتى، لكن اللون الأحمر الذى اقتصرت عليه، يبعد به عن الطابع الفرعونى بنفس الدرجة التى يبعد بها عن الوجوه الواقعية، فيبدو غريباً خارجاً عن المألوف، ويصبح منتمياً لذاته وللفنانة فحسب.. لكنه يظل يدهشنا بغرابته، وبالعدمية التى تطل من عينيه.

وتكمل الخلفية المحيطة بالوجه طابع الغرابة، سواء بواسطة القوس الرأسى الموازى لخط الوجه على اليسار، منتهياً فى قمته بتلك البقعة الحمراء، ومرتكزاً فى نهايته على قاعدة عريضة حمراء تتصل عند طرفها الآخر بالعنق، محددة الضلع الأسفل من اللوحة، أو بواسطة البقع الخضراء المتآكلة فى الخلفية، كنشع فى جدار قديم.

وتبدو اللوحة فى مجملها كتميمة سحرية مغلقة على سرها الخاص.









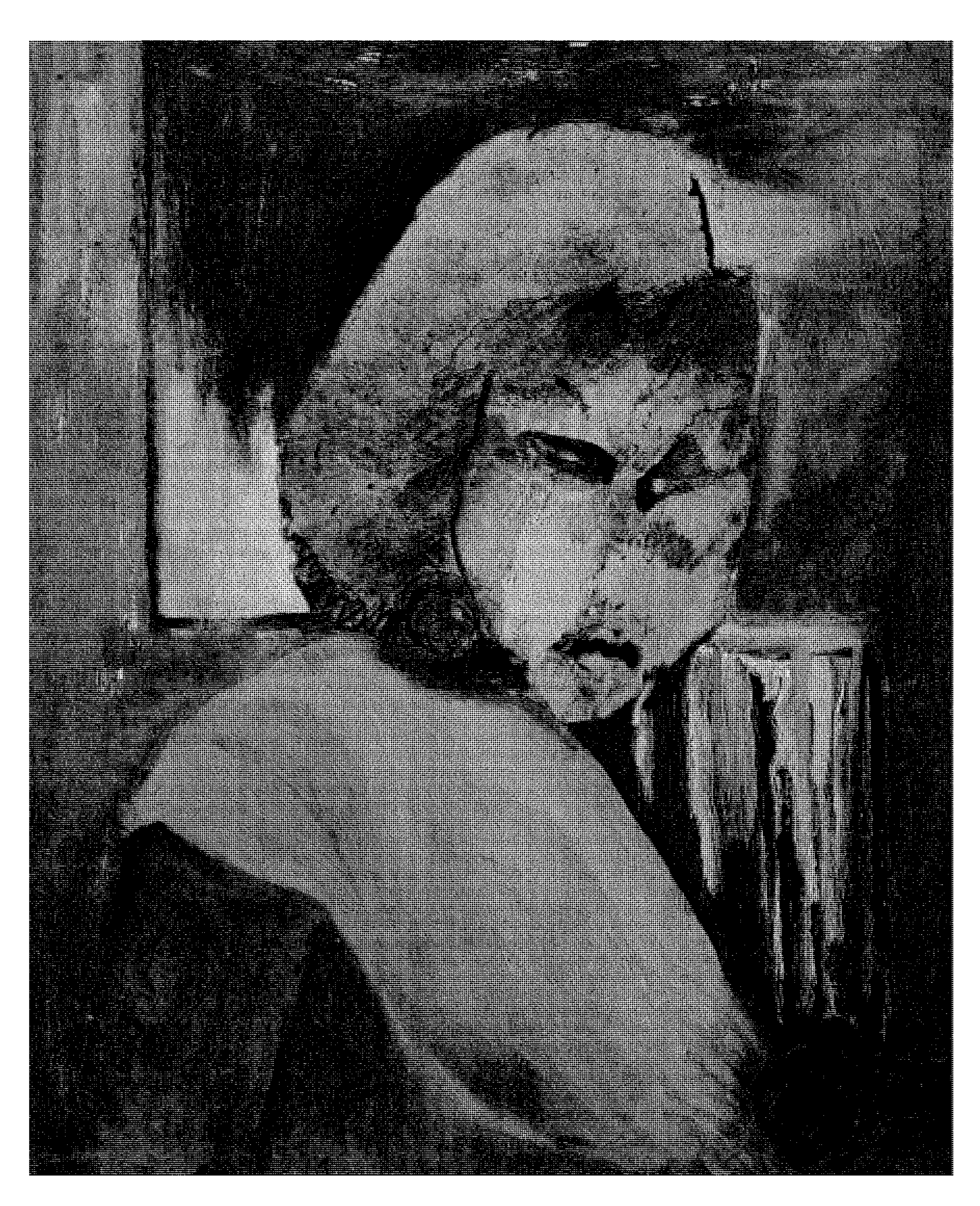
الزمن ١٩٧٥

. . . مازلنا مع منظومة الوجوه . .

إن هذا الوجه - بتآكله العائد إلى حقب غائرة فى الزمن، وامتزاج ملامحه وتفاصيله، وانفصاله عن الجسم، حيث توشك الرقبة أن تتلاشى فيبدو الرأس معلقاً مشدوداً إلى أعلى - هذا الوجه ينضح بحزن عميق ممزوج بالصبر، يذكرنا بـ «أبو الهول» حتى فى بسمته الغامضة اللامبالية، فيصبح معادلاً لوجه الزمن !

وبينما تؤكد هيئة الرجل وتعبير وجهه استسلاماً قدرياً للمصير، يعج سطح اللوحة - فى جانبها الأيمن - بحركة عنيفة من ضربات فرشاة صاخبة وألوان بنية دافئة، فيما يظل جانبها الأيسر رمادياً محايداً مشعاً بالنور، وتتخذ ضربات الفرشاة فيه اتجاهاً رأسياً منتظماً، وتبدو البقعة السوداء أسفل الرقبة نقطة ارتكاز تجتذب إليها الرأس الطائر.

هذا النسيج المتوتر فى كل جزء من اللوحة، وتلك الحرية الجياشة فى التعامل مع السطح، يؤكدان أننا أمام فنانة تعبيرية مرهفة الشعور.



الغجرية ١٩٧٧

فى هذا الوجه تباغتنا العينان وجلسة الفتاة برأسها المائل - بنوع من التحدى والغواية معاً . وسواء كانت المساحة الأرجوانية فوق رأسها هى شعرها أو غطاء له، فإنها تخلق فى اللوحة حضوراً غير مألوف، يتقابل مع حضور الوردة الحمراء على صدرها، ويزيد غرابة الوجه.. ذلك الضوء المسلط عليه من أسفل، منسكباً على مساحة اللون الأزرق فى ملابس الفتاة، محدثاً تبايناً قوياً بينه وبين الأحمر النارى.

يزداد هذا التباين حدة بين النور والظل فى خلفية اللوحة، عبر مساحة المستطيل خلف رأس الفتاة. ولاتكتفى الفنانة بحركة الضوء والظل، فتضيف إليها - فى المثلث بالركن الأسفل - حركة من نوع آخر، من خلال شرائط رأسية متفاوتة الطول والألوان، بين زرقاء وخضراء وسوداء، تمتد حتى تلتقى بالوردة الحمراء .

هكذا تبدو اللوحة سلسلة من النقلات الفجائية بين الألوان الساخنة والباردة، وبين الضوء والظل، فتحدث وميضاً نابضاً بالقلق، مشبعاً بالغواية.. وهو ماتراه الفنانة من سمات الفجر!

رتوش فى بورتريه
فريدة ذو الفقار

- المولد والنشأة
- العلاقة مع الملك
- بعيداً عن القصر
- مناخ الطفولة الفنى
- ارتقاء عرش الفنون
- سنوات الغربة
- العودة إلى مصر
- فريدة كانت ملكة على مصر .



سعيد باشا



الملك فؤاد

بريشة الفنان : محمود سعيد


شجرة
أسرة
ذو الفقار



جلالة الملكة
نازلى
فى طفولتها
تحتضن
عروستها



الملكة نازلى
فى نضارة
الشباب



فريدة فى السنة الثانية من حياتها السعيدة تنظر فى ابتهاج للطفولة ومرحها .



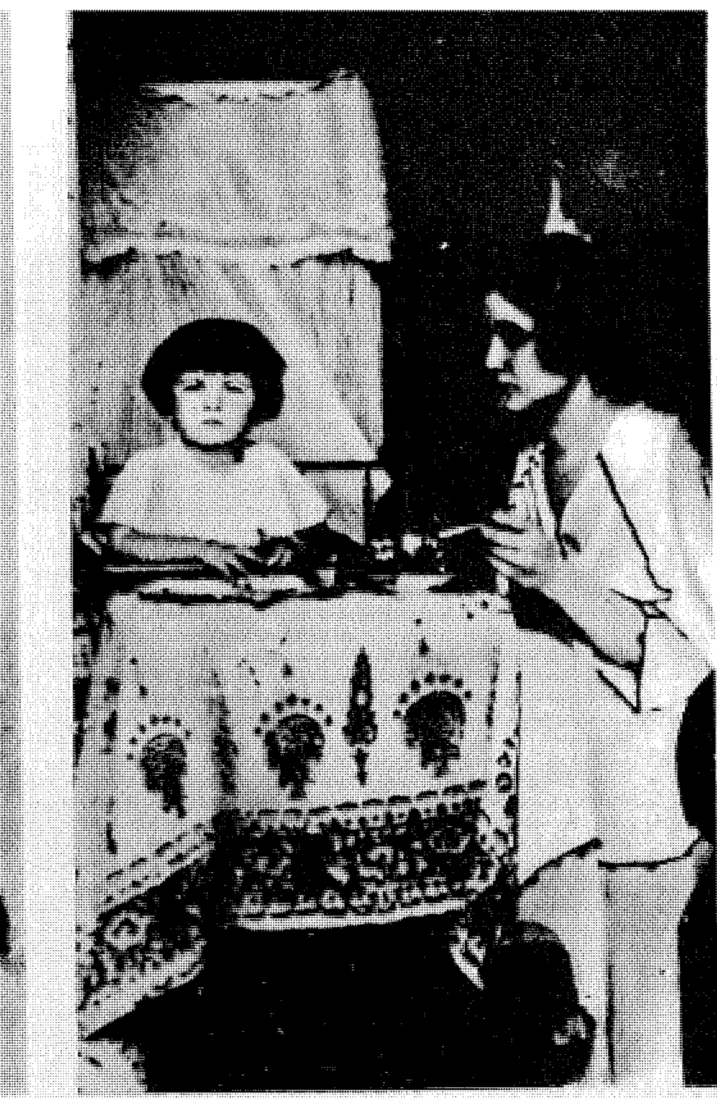
فريدة واقفة إلى جوار والدتها وهى فى سن الثالثة وقد حملت الوالدة الشقيق



فريدة فى طفولتها وقد أخذ والدها يوسف بك ذو الفقار يداعبها

فى اليوم الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ وفى قصر محمد سعيد والد الفنان محمد يوسف بمنطقة جناكليس برمل الأسكندرية .. رزقت السيدة زينب ذو الفقار حرم يوسف ذو الفقار بطفلة بديعة التكوين هى أول مارزق الله هذين الزوجين الكريمين من ذرية فأطلقا عليها اسماً تركيا جميلاً كما كانت عادة الأسر العريقة هى : (صافى ناز ـ أى الدلال المحصن) .

ويرجع نسب الملكة فريدة إلى أصول تركية ـ فقد جاء جدها لوالدها إلى مصر من تركيا وعمره سبع سنوات، رباه محمد على وأدخله الجيش فأظهر مواهبه العسكرية خلال فتوحات إبراهيم باشا.. وتولى عام ١٨٥٤ قيادة الجيش المصرى لمساعدة تركيا فى الحرب الروسية التركية، وسمى ذو الفقار نسبة إلى سيفه.



فريدة في الثالثة من عمرها تجلس مع السيدة والدتها إلى المائدة .

الملكة فريدة في السنة العاشرة من حياتها بملابس الطالبات وعلى وجهها ابتسامة لطيفة .

وقد انتقل هذا اللقب إلى أسرته فحمله نجله «علي» جد الملكة فريدة ـ علي ذو الفقار الذي صار محافظاً للقاهرة وأنجب ثلاثة أنجال وكريمتين منهم والد الملكة فريدة الذي تدرج في مناصب القضاء حتى اختير مستشاراً في محكمة الاستئناف المختلطة بالأسكندرية.

أما والدة الملكة فريدة فهي السيدة زينب ذو الفقار كريمة المغفور له محمد سعيد باشا، الذي رأس الوزارة المصرية غير مرة، واشترك للمرة الأخيرة في وزارة المغفور له سعد زغلول، الذي وجد في الرجل أحد الساسة المصريين المشهود لهم بالذكاء وبعد النظر والتبصر بعواقب الأمور.

وللملكة فريدة أخوان هما سعيد وشريف ذو الفقار ـ هكذا.. لم تكن فريدة قبل زواجها من أميرات البيت المالك، وراق لأوساط القصر وصفها ـ إبان الزواج من الملك ـ بأنها من صميم الشعب رغم أنها كانت من أرستقراطيات مصر آنذاك..

وطالما تطرقنا إلى الصورة التي أشاعها القصر لها إبان الزواج من الملك فلابأس من أن نقتطف سطوراً من التعريف الذي قدمه القصر للشعب يومها :

«وقد جبلت جلالة الملكة منذ حداثتها على الميل إلى البساطة التامة في ثيابها وزينتها، فلم تكن ترتدي إلا ماهو أقرب إلى الحشمة بعيداً عن



فى طفولتها كما هى ملكة فى شبابها وقد جلست جلالتها أمام لعبها فى سرور وابتهاج.



جمال وبراءة، هو جمال طفولة الملكة وبراءتها وهى تنظر نظرة جميلة فى السنة الأولى من عمرها.

الملكة فريدة والأميرة فتحية تنزلقان على الجليد فى سان موريتز بسويسرا أثناء الرحلة الملكية إلى أوروبا فى شتاء ١٩٣٧.

الكلفة، ولهذا فإن معظم فساتينها طويلة الأكمام تغطى الصدر حتى الرقبة ـ وفضلاً على ذلك فهى لاتميل إلى استعمال المساحيق وأدوات الزينة.. وكان مأثوراً عن جلالتها فى عهد التلمذة أنها مقلة فى اختيار الصديقات، لاتميل إلى الاختلاط كثيراً..» والمهم أن الملكة فريدة تلقت دروسها فى «نوتردام دسيون» بالأسكندرية، وانتظمت فى سلك التعليم ثمانى سنوات فأتقنت اللغتين الفرنسية والإنجليزية. ولما لاحظ والدها حاجتها إلى الاستزادة فى اللغة العربية أحضر لها مدرساً خاصاً، وكان يعطيها ـ علاوة على ذلك ـ دروساً فى اللغة العربية والدين، بحضور من كن يذكران معها من زميلاتها وصديقاتها.

ومن المصادفات التى شاعت عن فريدة أنها انتخبت وهى فى المدرسة لتمثيل دور إحدى الملكات فى حفل من الحفلات.

العلاقة مع الملك





الملك فاروق والملكة فريدة يوم الزفاف في سراي القبة العامرة

وذات أمسية من شهر أغسطس ١٩٣٧ - وكان الملك فاروق فى مصيفه بالأسكندرية - قصد بسيارته الخاصة سراى يوسف ذو الفقار وحدث ذلك فجأة ـ ودون إخطار سابق، فلم يجد بالمنزل إلا كريمة رب البيت الآنسة «صافى ناز» ذات الخمسة عشر ربيعاً، لأن والدها كان قد سافر إلى بورسعيد ليبحر منها إلى لبنان، وكانت السيدة والدتها قد ذهبت إلى سراى شريف صبرى باشا لتقضى سهرتها مع أسرته ـ وما أن استقر المقام بالملك حتى راح يسأل الآنسة «صافى ناز» إن كانت تقبله زوجاً لها.. وكانت مفاجأة سارة لم تملك الفتاة إزاءها إلا أن تحنى رأسها وتتمتم فى صوت حبسه الخجل والسرور: «هذا شرف عظيم يامولاى».. وعندئذ صحبها الملك فى سيارته إلى سراى خالة حيث



الملكة فريدة بلغ عمرها يوم القران السعيد ١٦ سنة وءا شهور وتسعة أيام





الملك فاروق ملك مصر يكبر الملكة فريدة بسنة وستة شهور

أفضى إلى والدتها بما كان بينه وبين صافي ناز، فطفرت من عينيها دمعة الفرح وقالت لجلالته: «تلك نعمة من الله وشرف كبير».

وقصد الثلاثة بعد ذلك إلى سراي المنتزة حيث زف نبأ خطبته إلى والدته الملكة نازلي وقدم لها خطيبته.

لم تكن الخطبة مفاجأة، فقد كان الملك يعرف صافي ناز منذ زمن .. ذلك أن زينب ذو الفقار والدتها كانت كعادة العائلات الأرستقراطية من وصيفات الملكة نازلي الأم، ولما حان وقت تقديم الابنة حين كبرت إلى العائلة المالكة طلبت أمها منها أن تلبس أجمل ثيابها وأن تحرص على إبداء خصالها الكريمة وعاداتها الأرستقراطية لأنها ستدخل عالماً كل شئ فيه محسوباً، ترصد كل وجه جديد فيه آلاف العيون.

ومن يومها دخلت صافي ناز ذات الخمسة عشر ربيعاً دائرة الضوء، فتعرفت على الأميرات فوزية وفايزة وفتحية شقيقات الملك فنسجت الصداقة خيوطها حول قلوب الفتيات.

ولعب القدر لعبته حين وقع بصر الملك فاروق على وجهها الملائكي الجديد بمعنى اسمها (الدلال المحصن).



كعكة القران السعيد التى بلغ طولها خمسة أمتار

وحين تلاقت العيون خفق قلب صافى ناز.. فمن لايخفق قلبه للملك الصغير الوسيم القوى! ولم تكن الخطبة أمراً مفاجئاً أيضاً فقد تعرف الملك على فريدة عن قرب أثناء مرافقتها والسيدة والدتها ـ بطلب خاص منه ـ للملكة والملك والأميرات فى رحلة كان قد قام بها للتو إلى أوروبا.

كان والد صافى ناز يوسف ذو الفقار قد سافر كما أسلفنا إلى بورسعيد ليبحر منها إلى لبنان فطلب الملك إلى خطيبته والسيدة والدتها أن يظل أمر الخطبة مكتوماً حتى يفاتح الأب .

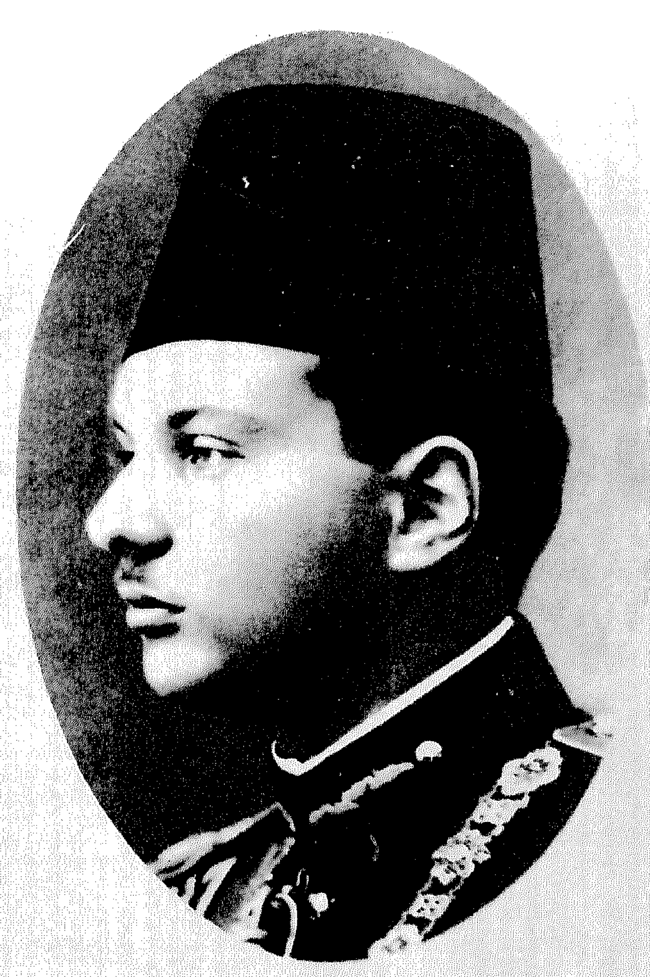
وأرسل برقية إلى يوسف ذو الفقار فى بورسعيد

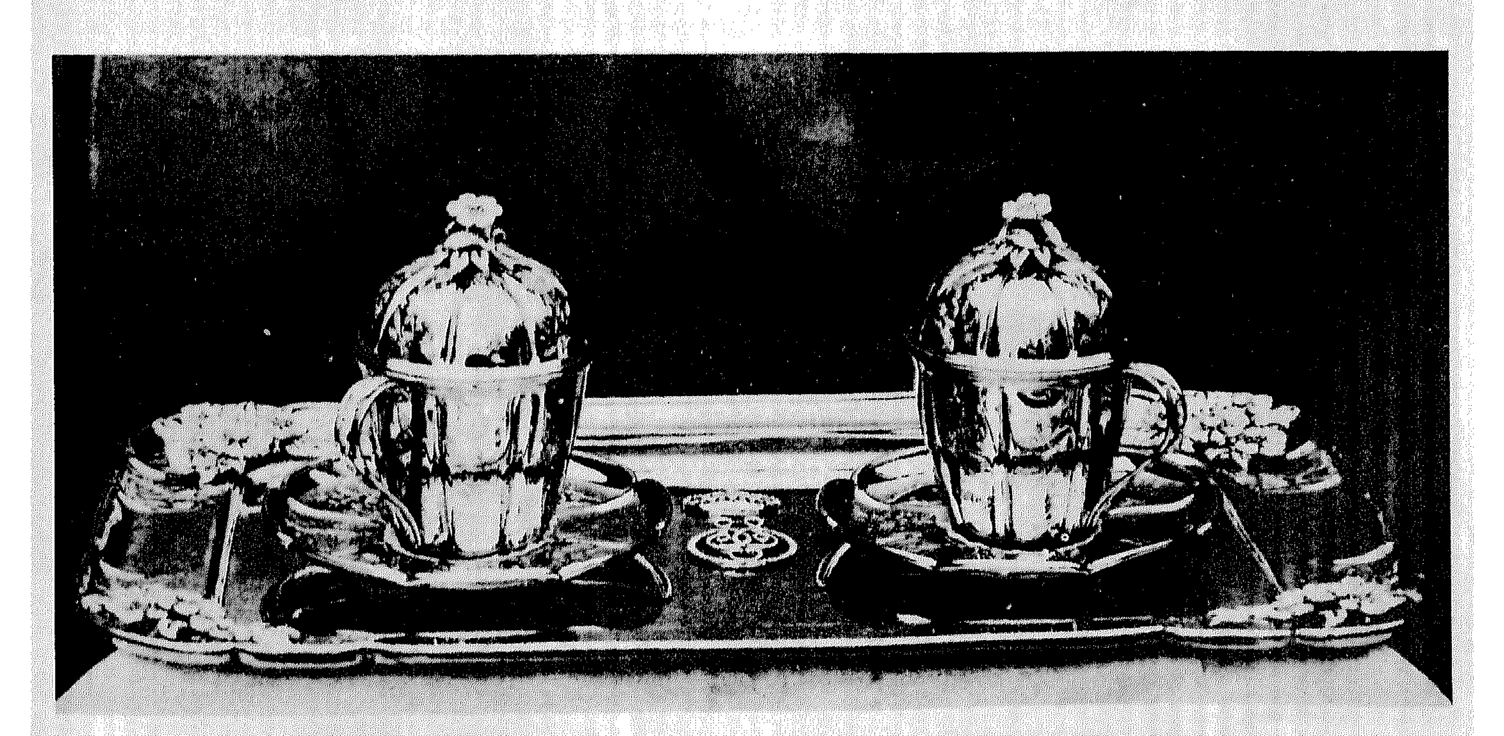
الملكة فريدة في ثوب الزفاف وقد تحلت بالتاج والعقد وزينت صدرها بنيشان الكمال .











صينية وكوبان من الذهب الخالص هى هدية البيت الملكى وقد طرزت أركان الصينية بالألماس ونقش فى وسطها التاج الملكى واسم المليك.

تجمع الجماهير فى ميدان عابدين ساعة إطلاق المدافع إيذاناً بعقد القران الملكى وهتفت الجماهير بحياة الملك والملكة.

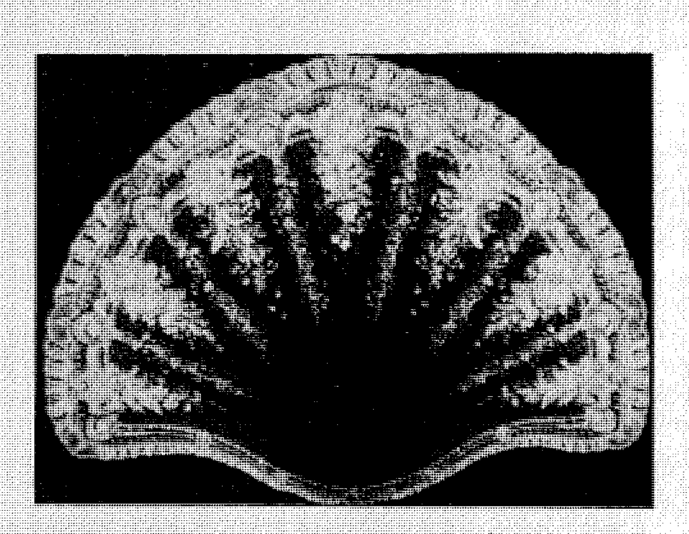
يطلب إليه أن يلغى سفره ويعجل بالعودة إلى الأسكندرية، فذهبت بالأب الظنون كل مذهب دون أن يخطر بباله أن القدر كتب لكريمته أن تكون ملكة على مصر .

ونزولاً على رغبة الملك تم تغيير اسم صافى ناز إلى اسم عربى ولما كانت الأسرة الملكية تتفاءل بأن تبدأ أسماء أفرادها بحرف (الفاء) فقد استقر الرأى على اختيار اسم فريدة لأنه اسم شعبى كما أشاع القصر فى حينه.

وتم الزفاف الملكى فى ٢٠ يناير ١٩٣٨ وكانت مناسبة كشف الشعب فيها عما يكنه للملكين الشابين من حب وود .

كانت ليلة الزفاف ليلة من ليالى ألف ليلة ..

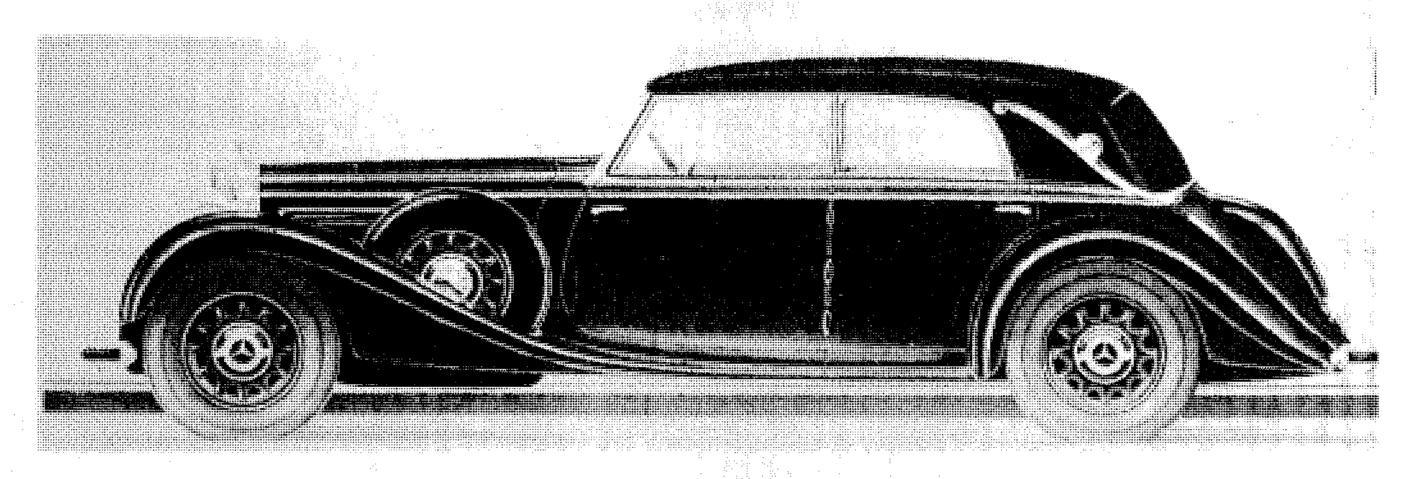
وقد ازدان بهاء العروس بالثوب الأبيض المزركش بالفضة الذى صنع خصيصاً لدى أشهر وأغلى



نقاب نادر أهداه الأمير محمد على إلى العروس الملكية

مصممة أزياء (وورث) فى باريس عاصمة الأناقة.. ووصل طول ذيل الثوب خمسة أمتار وحمله ثمانية أطفال منهم شقيق الملكة شريف ذو الفقار.. وحملت العروس فى يدها مروحة بيضاء من الريش الأبيض .

العروسان على المائدة الملكية يوم الزفاف



السيارة الفخمة التى أهداها الهر هتلر

بينما كان يتلألأ على رأسها تاج الملك الماس.. وقد بلغ طول الكوشة ٣٢ متراً من الخشب المغطى بالحرير الأبيض والأخضر الذى تعلوه فراشات ذهبية.

واستمرت احتفالات مصر كلها بالزواج الملكى أياماً وليالى وما أن انتهى العرس حتى وجدت الملكة فريدة أو الحمامة الصغيرة نفسها داخل القصر الملكى فى حياة كلها بذخ وأبهة من الظاهر لكنها تحمل باطناً شرساً . ولم تكن ظروفها قد سلحتها بالتحلى بما يناسب هذه الحياة من دهاء وروح شيطانية، كما لم يكن بالإمكان أن يجدى القلب الطاهر المفعم بالأمل ومروحة ريش النعام شيئاً مع دهاليز القصور وألاعيب الحاشية.

عاشت فريدة رفاهية مادية تذهب بعقل أى





طابع تذكارى للزواج السعيد يجمع بين صورتى الملك والملكة .



أسم الملكة فريدة من تصميم
المرحوم مصطفى غزلان بك

إنسان، ولكنها كانت تدفع الثمن غالياً فقد عزلت عن الحياة نفسها ـ ظلت تراقب مايدور فى العالم من خلال حائط عازل يغربل كل خير قبل أن يصل إليها.

ودارت حياتها فى دائرة محسوبة الخطوات والمسافات وعاشت جواً من المؤامرات والدسائس ـ وتصورت أن فى مقدورها تغيير زوجها وتغيير

العقد الثمين الذى أهداه الملك إلى عروسه الملكة فريدة بمناسبة قرانهما السعيد وهو حلية نادرة المثال ذات ثلاثة فروع من الماس الأبيض وتنتهى الفروع من الناحيتين بمساكين ذات ماستين نادرتين.

التاج الذى أهدته الملكة نازلى إلى الملكة فريدة بمناسبة زواجها . وفى وسطه زمردة نادرة.



في زيارة المرضى في أحد المستشفيات





في مناسبات نسائية مختلفة



الملكة فريدة
في زيارة
لمعسكرات الكشافة

حاشية الفساد..

لكنها كانت واهمة إذ سرعان ماجاء الشيطان «بول» ليأخذ زوجها إلى حياة الليل وبينما كانت تواصل إنجاب البنات زين للملك مصادقة الراقصات والخليلات اللاتي انهمك الملك في اجتذابهن إلى جناحه الخاص، بينما تحاول فريدة تبرير تصرفات زوجها بصغر السن وإغراء وإثارة التجارب الجديدة وحب استطلاعه الذي لن يلبث أن يخفت..

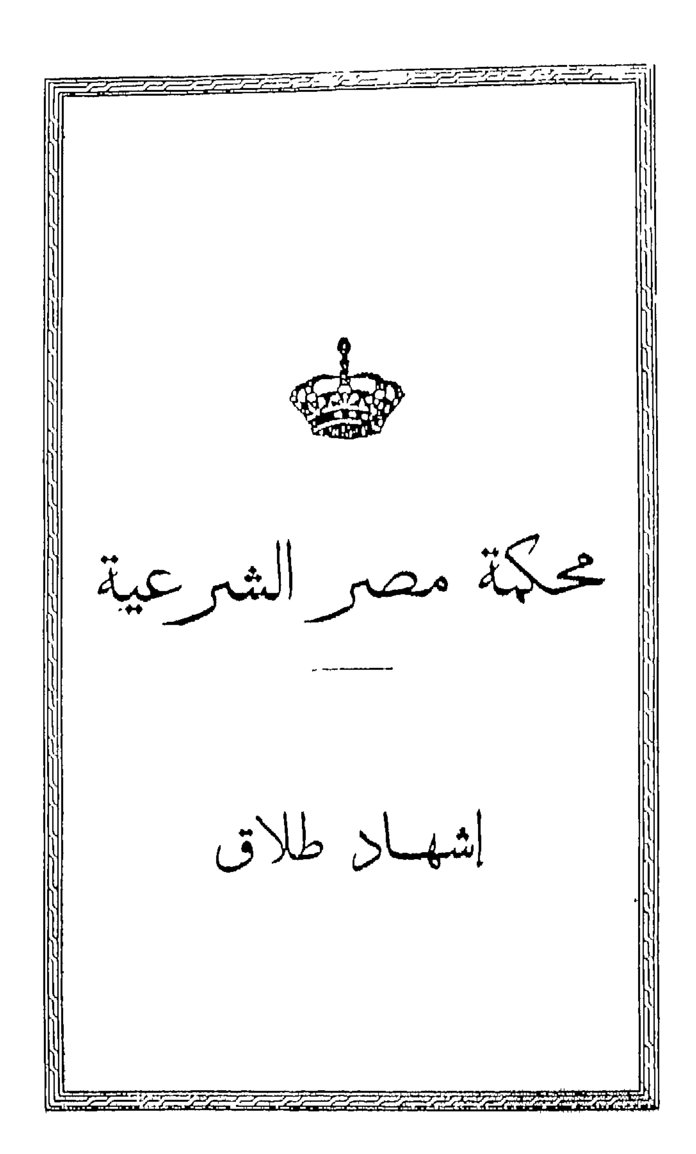
لم تملك فريدة طويلاً أن تعترض إذ كان يشيع





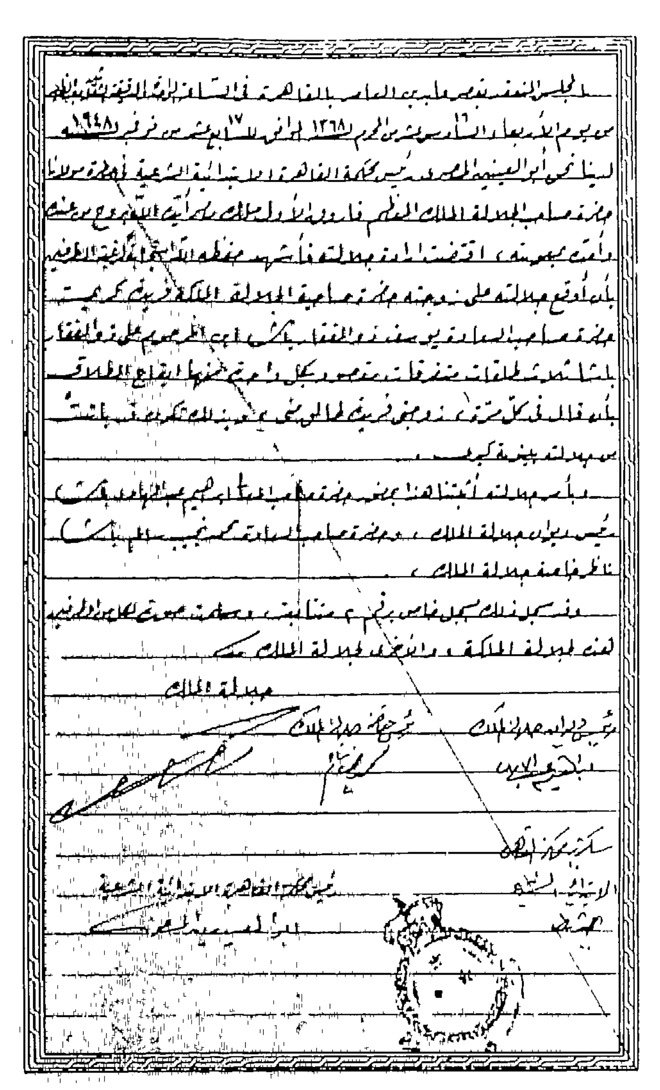
رئيسة الكشافة

أثناء بعض الزيارات



محكمة مصر الشرعية

إشهاد طلاق



وثيقة الطلاق من محكمة مصر الشرعية

إحساس بأحقية الملك فى أن ينال مايريد.. أليس ملكاً؟ لهذا كانت الملكة تنزوى فى جناحها مع بناتها الأميرات فريال وفوزية وفادية اللاتى أنجبتهن تباعاً، متصورة أنها تحمى بناتها من الفضيحة والعار.

وكثيراً ماكانت تسمع : «كفى الملكة أن تختال بالتاج على رأسها وتتمتع بالملك».. ولكن هل يعوض الترف والجاه الإحساس بدفء الحياة الأسرية السوية واستقرار العلاقات فى جنباتها؟.

رفضت طبيعة فريدة الملائكية التحول إلى شيطان مادى يحول كل شىء إلى حسابات .. يحول الحلم إلى رصيد من الذهب ويقتل فى نفسه كل شعور إنسانى.

هكذا راحت ثورة عاتية تتفاعل فى نفس فريدة.

ثورة امرأة مطعونة فى الظهر، عليها أن تختار بين مشاعرها وكبريائها كإنسانة وبين مصلحتها فى أن تستمر كملكة.

واختارت فى النهاية أن تعصم إنسانيتها من العبث.

وتشبثت بطلب الطلاق الذى تم عام ١٩٤٩، بعد زواج دام إحدى عشرة سنة، وهكذا خرجت فريدة من القصر وودعت الحاشية والأبهة.

وتضاعفت عواطف الشعب نحو الملكة فريدة بقدر ماتضاعفت مشاعر الاستنكار لسلوك الملك وأسرته فى الأربعينات حين كانت المظاهرات تهتف



مع محمود خليل فى قصره ولوحاته الفريدة

ضد الملك وفساده وتمزق صوره وتدوسها بالأقدام، كما كان صوتها يرتفع أيضاً بما معناه أن فريدة هى رمز الطهارة وليس مكانها فى قصر الدعارة.

وكان قد اشتهر عن فريدة أنها نصيرة الشعب وبخاصة المرضى والفقراء لما دأبت عليه من نشاط اجتماعى منذ الصغر حيث كان يشيع عنها أنها لاتكف عن حض زميلاتها على الإحسان للفقراء.

وقد واصلت فريدة هذا الدأب بعد اعتلائها العرش فاستحوذ عليها النشاط الاجتماعى، وعملت على مساعدة المرضى والفقراء وكثيراً ماكانت تطالع الناس فى ملابسها البيضاء وموكبها يتجه إلى مستشفى قصر العينى ، كما كان لها نشاط واسع بين تلميذات المدارس حيث تكونت جماعات المرشدات (الكشافة).

بعيداً عن القصر

عادة عند الطلاق تستحوذ على عقل المرأة فكرة واحدة تدور حول أطفالها، وهل تستطيع الابتعاد عنهم؟ ولم تكن فريدة تتصور أن يستخدم فاروق سلاح الأطفال فى الانتقام منها، فإلى جوار تحريمه نشر صورها أو ترديد اسمها فى الصحف والمجلات جهد فى حرمانها من بناتها، إضافة إلى تخلى الأصدقاء والأقارب عنها خوفاً من انتقام الملك.

وجدت نفسها فجأة منزوية فى بيت أهلها «تتلصص» على أخبار بناتها من مربيتهن الأجنبية.

انزوت فريدة وابتعدت وصممت فى إباء وكبرياء وظلت تنزف شوقاً لأطفالها.. كان فاروق مستمتعاً باللعبة يتعمد أن يخترع أي مناسبة لأخذ الأطفال بعيداً عن أمهن يوم الزيارة المخصص لها.. كما كان يمنع المربية من الاتصال بفريدة لطمأنتها على أخبار البنات..

تماسكت فريدة وهى تخوض المحنة وفيها انكشف معدنها إذ عمدت إلى تحويل المأساة إلى حياة نابضة طالما افتقدت بين أعمدة القصر.

بدأت تشارك فى كل كبيرة وصغيرة عند بناء بيتها (فى الهرم) الذى صممت ألا يشبه تصميمه القصور، حتى أن مصمم الفيللا كان قد وضع عمودين رخاميين وسط صالة الاستقبال كنوع من الديكور لكنها طلبت منه إلغاءهما قائلة «كفانى أعمدة رخامية».

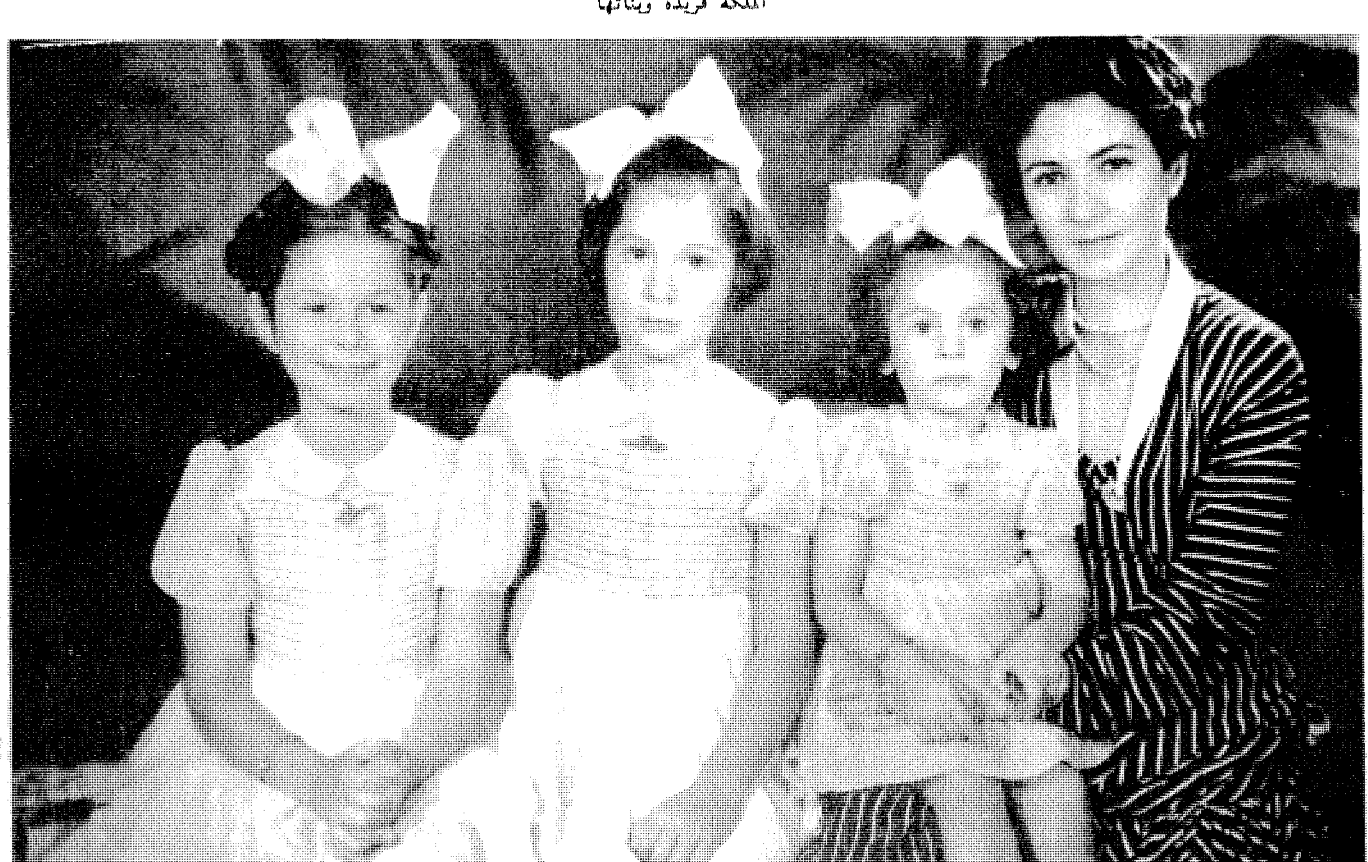
اختارت كل شىء فى الفيللا بذوقها الخاص الذى حرمت من ممارسته سنوات كثيرة، وأصرت على أن تحوى الفيللا ساحة انزلاق وملعب تنس لبناتها، لكن كل ماخصص لهن ظل خاوياً ينغص عليها حياتها..

حين تم بناء الفيللا حاولت أن تلتزم بنظام خاص لمعيشتها فهى تستيقظ فى الصباح تركب حصانها ثم تتناول طعام الإفطار ثم تجلس وحيدة مع كلابها، تمد بصرها عبر الصحراء والأهرام.

لم يكن يزورها أحد إلا والدها ووالدتها يوم الجمعة من كل أسبوع.. كانت تستمع إلى الموسيقى وتقرأ الكتب وفى بعض الأيام تشاهد الأفلام على شاشتها الخاصة..

لكنها ظلت تحس أن حياتها على هذا النحو ينقصها الكثير

الملكة فريدة وبناتها





المناخ الفنى للنشأة

يحسن أن نقطع سير الأحداث هنا لنعود إلى طفولة فريدة ونشأتها لنلتقط بداية الخيط الذى شكل جانباً أساسياً فى نسيج حياتها بعد ذلك.

ويهمنا فى البداية التأكيد على أنه كان لفريدة هوايات كثيرة فى صباها ، لعل أولى هذه الهوايات الموسيقى وبنوع خاص العزف على

البيانو الذى أجادته إلى حد كبير. ويرجع الفضل فى ذلك إلى والدها الذى يعتبر من مجيدى العزف والذى أشرف على تعليمها إياه حتى أتقنته ونبغت فيه.

ولم يكن يوسف ذو الفقار عازفاً ماهراً على البيانو فحسب بل كان رساماً بارعاً أيضاً حتى ليجد الداخل إلى سرايته صورة زيتية كبيرة لفريدة قد زين بها المدخل بعد أن رسمها بنفسه. ولاغرابة بعد ذلك أن تكون فريدة قد تتلمذت على والدها فى الرسم وقتاً غير قصير.

وإلى جوار البيت نشأت فريدة فى مناخ فنى بالغ الثراء فعمها حسين ذو الفقار كان مشرفاً على تنسيق الحدائق بالقاهرة، ويرجع إليه الفضل فى إقامة حديقة الأندلس، تلك التحفة الفنية التى شيدت على الطراز العربى .. أما شقيقها «شريف ذو الفقار» فقد اشتهر كمصور فوتوغرافى متميز.. ناهيك عن أن ابن خالها سعد الخادم كان رساماً وأستاذاً للفن وكان يعد مرجعاً موثوقاً به فى الفنون الشعبية.

وإلى جوار هؤلاء وقبلهم جميعاً، يأتى بلا شك خالها محمود سعيد الذى كان صاحب الفضل الأول فى ممارستها الرسم. ومحمود سعيد أحد الأعمدة الذين قامت على أكتافهم نهضة الفنون الجميلة فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين .

كانت فريدة تتردد فى طفولتها على خالها فى مرسمه، وقد رسم لها لوحة شخصية عام ١٩٣٣ أطلق عليها اسم «ابنة اختى» واللوحة التى تصور فريدة وهى لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها بعد، جالسة فى حديقة قصره تحت الأشجار، تعد من أهم الروائع المعروضة فى متحف «محمود سعيد» اليوم، والمتحف تشرف عليه وزارة الثقافة المصرية، ويشغل قصر محمود سعيد نفسه.. ولابأس من الإشارة هنا إلى أن محمود سعيد أصبح مقراً للجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم، الذى شكلته الثورة بعد قيامها، كما أن محمود سعيد كان أول فنان منحته الدولة جائزتها التقديرية فى فن الرسم تقديراً لموهبته وجهوده فى ميدان الفنون الجميلة.

ومايهمنا التأكيد عليه هنا قبل العودة إلى سياق سيرة فريدة هو أن ميولها قد وجدت أيام الصبا تشجيعاً كبيراً من أسرتها، ذلك فضلاً عن المناخ الثقافى المنتعش الذى عاشته الأسكندرية فيما بين الحربين عندما كانت المدينة تحتفى بالفنون التى تصلها عبر البحر المتوسط وتضم عدداً كبيراً من مراكز الإشعاع الثقافى وتعج بالشخصيات اللامعة فى مجالات الأدب والفن من المصريين والمستوطنين الأجانب..

لكن الفن قد خرج من دائرة اهتمام فريدة عند زواجها من الملك..

ومع الانفصال.. مع الوحدة والمعاناة بدأت الصلة تنسج خيوطها من جديد..

وهنا لابأس من العودة أدراجنا إلى تسلسل حياة فريدة بعد التأكيد على أننا أسهبنا فى الحديث عن أزمة فريدة مع الملك لأن هذه الأزمة هى ماأملى على فريدة كل خطواتها اللاحقة ومنها اختيار الفن كوسيلة للتعبير عن نفسها، تلك النفس التى أجج من إضرامها اختيار فريدة النبيل أن تصمت فى كبرياء.. ألا تقول كلمة واحدة ضد فاروق سواء بعد طلاقها أو بعد خروجه من مصر بل إنها كانت تمنع المحيطين بها من ترديد مايعرفونه عن أخطاء الملك وخطاياه : «لاتنسوا أنه والد بناتى والإساءة إليه هى إساءة إليهن».





كما ذكرنا كانت الملكة فريدة تعانى وحدة قاتلة فى فيللا الهرم ـ حاولت أن تشغل نفسها ببعض الهوايات، تعلمت هواية التفصيل من الكتب وإجادتها لدرجة باتت معها تصنع ملابسها بنفسها، حاولت أن تشغل نفسها بالقراءة، وبزيارة والديها فى الزمالك، لكن كل ذلك لم يشف غليلها، وواصلت بحثها عن مخرج جديد .

أتاحت لها وحدتها فرصة التأمل فبيتها يطل على حقول الفلاحين المجاورة، ووجدت ضالتها هناك فى يوم مشرق .

نظرت إلى اللوحات التى تغطى جدران منفاها الاختيارى وأشرق شىء فى وجدانها سرعان ماكبر وكبر وتجسد فى صورة فرشاة وألوان استعادت عوالم طفولتها .

جاءت بقطعة قماش أبيض وشدتها على اللوحة ووقفت تتأمل :

«هذه حياتى صفحة بيضاء وعلىَّ أن أُوقع عليها تفاصيل محنتى ومعاناتى وأحلامى الخاصة .. دموعى وآهاتى ورغباتى وآمالى .. لأشكل دنياى بيدى ولتمسح فرشاتى الدموع عن عينى وتخفف الألم عن قلبى»..

كانت فريدة تعيش كما قلنا قرب أهرام الجيزة عام ١٩٥٤ لايفصلها عنها سوى المزارع والحقول.. فرسمت



لقطة للملكة فريدة بجوار بعض لوحاتها

الحصاد والعمل فى الحقل كما رسمت الأهرامات.

وشاهد محمود سعيد هذه الرسومات ولما سألته المشورة ناشدها أن تخرج كل مافى داخلها وبيّن لها أن رسوماتها تنتمى إلى نوع من الفن الفطرى الذى يمارسه الكبار ... وأبدى لها إعجابه بتجربة المربى الرائد حبيب جورجى الذى أجرى تجربة تربوية حول الفن الفطرى عند الأطفال المصريين بين عامى ١٩٣٩ و١٩٥١ ـ ووجهها خالها لمشاهدة هذه الأعمال والتعرف عليها حيث إن لرسوماتها نفس الروح والمذاق .

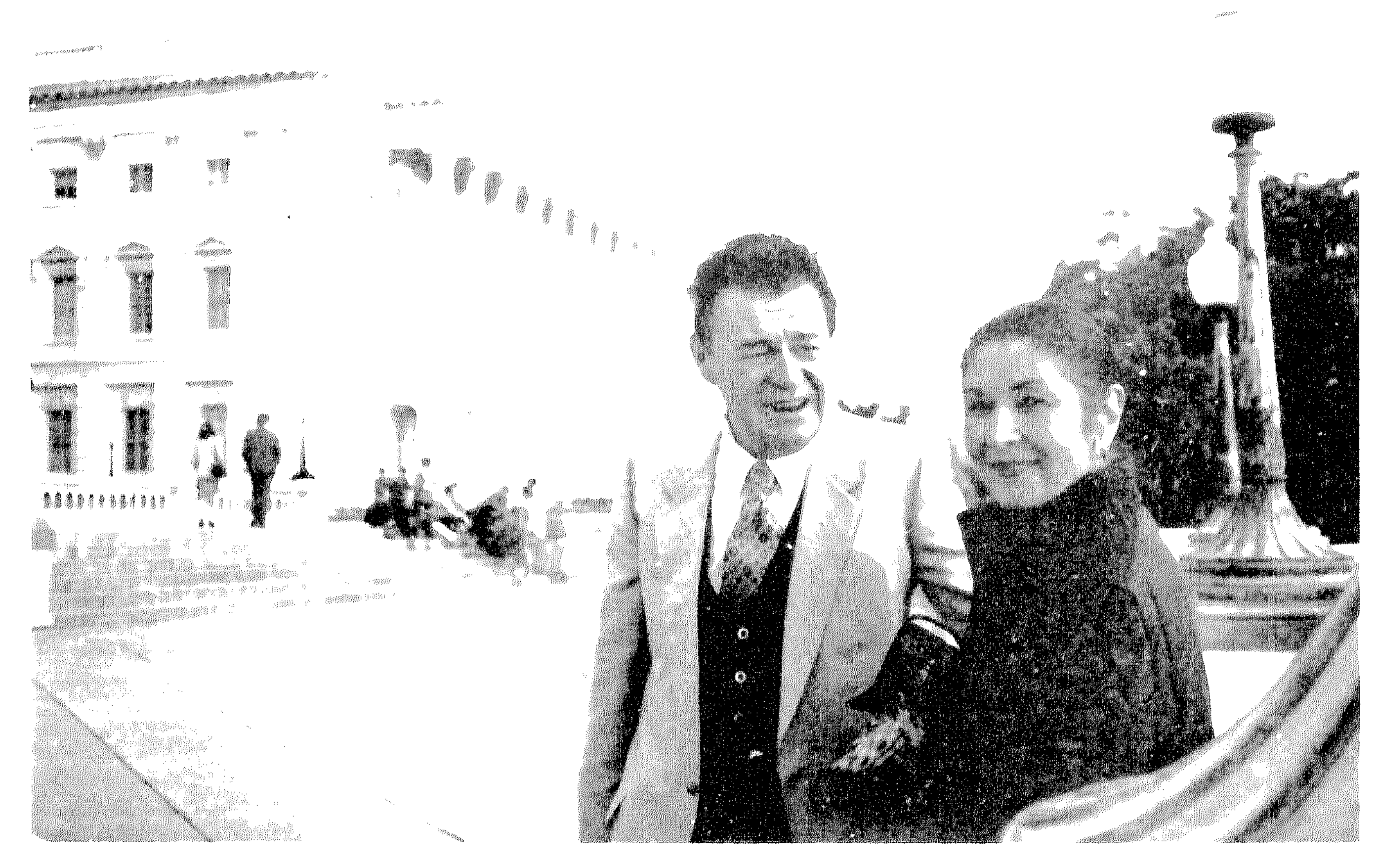
وبعد فترة دعاها خالها لتشغل مرسمه الموجود فوق سطح قصره بالأسكندرية، وهناك راحت ترسم الوجوه بنفس الطريقة البدائية التى طبعت أعمالها ..

هكذا عشقت فريدة الرسم والتلوين ولم تتعلم على يد أحد ومضت على فطرتها بإحساسها وثقافتها منذ صغرها وتفجرت مواهبها الإبداعية بعد سن الثالثة والثلاثين وأصبحت تنتمى إلى طبقة الفنانين الفطريين. وهم الذين بدأوا إبداعهم فى سن متأخرة وغالباً لم يتلقوا قسطاً كافياً من الدراسة الفنية ويطلق عليهم اسم فنانى (القلب الخالى) أو فنانى (يوم الأحد) لأنهم كانوا يمارسون هوايتهم أيام العطلة.. ولايدفعهم إلى عملهم الفنى سوى الموهبة والفطرة دون أى هدف مادى أو شهرة..

ودخلت فريدة عالم الفن فى ظروف نفسية صعبة وكان الانغماس فى الرسم يمثل محاولة للهروب من المشاكل والظروف المحيطة بها وعاملاً على تفريغ الشحنات النفسية الضاغطة عليها .

ومع الرسم كان الحرمان من أطفالها يسرى فى دمها كالسرطان، ينخر فى عظامها ويمتص منها رحيقها رشفة رشفة فلقد حرمت نهائياً من رؤيتهن بعد أن خرجن مع الملك فاروق .

استمر مسلسل المعاناة وكانت الدولة تأذن لها فى الاتصال ببناتها تليفونياً ، ولكن خمس سنوات كاملة مرت قبل السماح لها بالخروج لرؤيتهن.



مع شقيقها سعيد ذو الفقار

سنوات الاغتراب

حصلت فريدة على إذن السفر عام ١٩٦٣ فسافرت إلى لبنان أرض غربتها الأولى حيث واصلت رسم وجوه الشخصيات الاجتماعية والمحيطين بها لكن الأمر لم يكن أكثر من هواية لتمضية أوقات الفراغ.

وبعد أن تحقق الحلم ورأت بناتها بعد غياب، شعرت أنهن يستقبلنها استقبال الغرباء، الأمر الذى عمق معاناتها ودفعها إلى محاولة دفن هذه المعاناة المؤلمة.

وبعد أن عاشت فى لبنان أربع سنوات انتقلت إلى سويسرا لتعيش بالقرب من بناتها كان ذلك عام ١٩٦٧، وهناك استغرقت فى العمل الفنى كل الوقت فقد انتقلت من الدفء والمحبة والحنان التى أحاطتها بها لبنان العربية إلى البرودة والجفاف والشتاء والثلوج فى أرض غربتها واستمرت إقامتها فى سويسرا ثلاث سنوات كانت تتردد خلالها على باريس ولبنان.

وفى باريس أقامت معرضها الأول الذى غلبت عليه سمات الفن الفطرى. النقاء والبراءة والسذاجة التى تقرب النتاج الفنى إلى رسوم الأطفال.. تلك السمات



فى زيارة أحد المعارض بباريس

التى استمرت مع فريدة حتى النهاية فناً وسلوكاً على حد سواء.

الأيقونات والمنمنمات والقدم

وفى عام ١٩٧٠ انتقلت فريدة لتعيش فى باريس وتعمق إحساسها بالحاجة إلى دراسة تاريخ الفن فأنفقت عاماً كاملاً فى زيارات منتظمة للمتاحف والمعارض الفرنسية كما التحقت بمدرسة متحف اللوفر لتاريخ الفن.

ولكى تتعمق فى دراسة الفنون القديمة نقلت بفرشاتها بعض الأيقونات الروسية والبيزنطية ثم حاولت أن ترسم على منوالها. وكان لجذورها الأرستقراطية وثراء طفولتها أثر فى اختيارها للأسطح المذهبة والفضية مستلهمة المنمنمات الإسلامية فى رسوم الكتب وزخارف الأطفال.

كما حاولت إضفاء طابع العراقة والقدم على إنتاجها فكانت تعرض ألوانها الزيتية للحرارة لتبدو محترقة وكأنما رسمت منذ زمن طويل أو لتبدو كالصور القديمة والأيقونات كما كانت تطلى أعمالها بطبقة من الورنيش السميك فتلمع كالأوانى الخزفية .

السنتيسزم

واستخدمت أجهزة إضاءة الكترونية على لوحاتها تخفت وتسطع للحصول على تأثيرات الغسق والشفق والظهيرة ثم الليل فى فترة لاتزيد على دقيقة واحدة. أما الهدف الجمالى فكان تحقيق نوع من الحركة التى يطلق عليها السنتيسزم.

الليتوجراف

وبعد ذلك التحقت بمرسم متخصص فى تعليم الطباعة اليدوية الفنية على الحجر المعروفة باسم «الليتوجراف» وفيها يرسم الفنان تصميماً على سطح

صلب كالحجر ثم يطبع منه عدداً محدوداً على الورق، وإذا كانت لوحته ملونة تحتم عليه أن يرسم كل لون مستقلاً على سطح الحجر ليطبعها تباعاً على لوحته، الأول فالثانى وهكذا.. فهو يطبع لوحته عدة مرات ليضيف فى كل مرة لوناً جديداً ..

وقد أتقنت فريدة هذا النوع من العمل حتى أخرجت أعمالاً بها ستة ألوان. لكن رائحة الأحبار وكيماويات المطابع أثرت بالإضافة إلى المجهود العضلى الذى تتطلبه عملية الطباعة ـ على صحتها، لهذا توقفت بعد فترة عن إنتاج هذا النوع من الفن لتستمر فى الرسم بالألوان الزيتية. وزاد نشاطها الفنى بعد معرضها فى بيروت عام ١٩٧٤، أقامت فى ١٩٧٥ معرضاً فى مدريد وآخر فى جزيرة (بالمادى مايوركا) بأسبانيا ثم أقامت فى العام التالى معرضاً خاصاً بقاعة المركز الثقافى المصرى بباريس ثم توالت معارضها فى فرنسا ١٩٧٨ وفى القاهرة عام ١٩٨٠ ثم جنيف ١٩٨١ وفى بلغاريا ١٩٨٢ وفى تكساس بالولايات المتحدة ١٩٨٣ ثم بالقاهرة ١٩٨٤ و١٩٨٦ .

التجريد الإيهامى

استخدمت الإضاءة الخارجية ١٩٧٦ وكانت تواكب بها موضة التجديد والتجريب التى غمرت أوروبا وأمريكا فى السبعينات وكان أبرزها (التجريد الإيهامى) الذى يستخدم أشعة الليزر فى إيهام المتلقى بأنه يرى تركيبات غير موجودة على الإطلاق.

ورغم ذلك احتفظت فريدة ببكارة إبداعها شكلاً وموضوعاً بطابع النقاء والصدق لاترسم إلا ماتريد وبالطريقة التى تراها بقيت نسيجاً فريداً بين الفطريين والخريجين والمدربين.



فى باريس

فريدة حتى فى إبداعها ترسم وتلون وهى واقفة لاتحمل لوحة الألوان والفراجين فى يدها ككل الرسامين بل تضعها أمام حامل الرسم على منضدة ما، لاتجهز ألوانها قبل بداية العمل بل تخرجها من الأنابيب الواحد بعد الآخر كلما احتاجت إليه. وهى طريقة غريبة وغير منطقية، لم تتعلم من أحد كيف تنظم الألوان على «الباليته» أو كيف تعد تصميماً لموضوعها. فهى ككل الفطريين طراز خاص بين الفنانين حتى فى أسلوب العمل.



فى البحرين أثناء معرضها

ولأنها لاتتبع مدرسة بعينها، لذا نلتقى بكثير من الأساليب مجتمعة على صفحة لوحاتها التعبيرية، فى النسب التأثيرية فى إشاعة الجو الضبابى وكأن أشخاصها خارجون من حلم.

الإيقاع الموسيقى

وأحياناً مايكونون أشباحاً بلاملامح ولاتفاصيل.. الإيقاع الموسيقى له دخل كبير بين ألوانها وظلالها وهو تأثير دراستها للبيانو فى الصغر، تسقط أحاسيسها وأحلامها على اللوحة.. ترسم من الذاكرة بالتصميم - كما يفعل اللاشكليون - تسترجع ماضى حياتها فتتلاحق صور الطبيعة فى الحقول المترامية، القوارب والمراكب والنخيل وشواطىء النيل والفلاحات بجرارهن وثيابهن القروية، صورت النيل كما شاهدته فى رحلاتها التى قطعتها من القاهرة إلى أسوان مرات عديدة طافت فى لوحاتها بقراه وبيوت الطين والمآذن وأبراج الحمام.

النزعة الصوفية

وعشقت فريدة فى لوحاتها الحياة المصرية الصميمة وتغنت بها ورأت آيات الله فى مياه النيل فصورت لفظ الجلالة يسبح مع القوارب وفى الآفاق وكتبته بصور عديدة بإحساس صوفى عميق.

هكذا كانت فنانة صوفية تمزج بين حب الحياة والإيمان العميق، الحقيقة بالخيال والواقع بالأساطير.. وظل الحزن والقلق والشتات طابع ألوانها.

وخطوطها ترمز إلى الدموع، تسيطر على التكوين العام لكل لوحة وكأن فريدة كانت تبكى فى لوحتها غربتها أو تنسج على منوال الكلمات الشعبية (وهى السمكة تسيب الميه.. داحنا من غير مصر نموت).

مصر وعشق مصر كان موضوع لوحات الملكة فريدة.



مع أحد المسئولين فى البحرين



فى حوار مع الشيخ عيسى بن راشد وكيل وزارة الإعلام البحرينى فى معرضها الذى أقيم فى البحرين .



فى باريس مع الوزير فاروق حسنى ومحمد مصطفى غنيم وكان فاروق ملحقاً ثقافياً وغنيم مستشاراً بالسفارة المصرية أثناء معرضها.



فى باريس مع الصديقات

أنا وسط بين التجريد والتعبير

تقول فريدة :

- خطوطى سريعة ولا أعرف ماذا سأرسم وأنا أمام (التوال) اللوحة البيضاء، ولذلك لاأتبع مدرسة معينة فى الرسم ولابرنامجاً معيناً ولكننى أعبر عن ذاتى بحرية.. أنا وسط بين التجريد والتعبير.

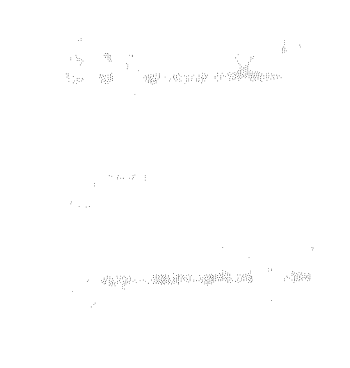
التجريد لغة العقل والتعبير لغة العاطفة.

وبين الاثنين كان طريقى.

- اللوحة الزيتية ليست مجرد رسم ولكنها نغمات متناسقة من الألوان تبدو وكأنها سلم موسيقى.. وهذا التناغم هو التعبير عن مزيج العقل والعاطفة فى روح الفنان.

- الألوان هى الأحاسيس المختلفة المتبادلة بين الرسام والمتفرج ـ ومن الألوان ماينقل الانفعال بالدهشة أو الخوف أو الغضب أو الهدوء أو الحزن أو الفرح أو السرور.





كانت فرحة فريدة فريدة غامرة بعد انتصارات أكتوبر..

وكانت تعترض كل مسئول فى السفارة المصرية بباريس حيث كانت تعيش يومها . وتقول له فى فرحة غامرة :

رفعتم رؤوسنا .. رجعتم لنا الابتسامة وفخرنا بمصر.

وكانت فريدة من أوائل من ذهبوا إلى السفارة المصرية ليعبروا عن فرحتهم بالعبور ومن أوائل من تبرع لأسر جنودنا البواسل، لكن قصة عودة فريدة بدأت بمقال نشره الدكتور لويس عوض فى جريدة الأهرام عن حياة بعض أفراد الأسرة المالكة فى أمريكا.. وأحدث المقال دوياً فى جميع الأوساط وكان ذلك تمهيداً لأن تفتح مصر أحضانها لكل من يريد العودة إلى الوطن.

ويوماً تلقت جيهان السادات رسالة من الملكة فريدة تشكو فيها من تصريحات أدلى بها على أمين للتليفزيون البريطانى فى برنامج تاريخى عن مصر قال فيه : إن فاروق أصيب بالجنون بعد حادث القصاصين .

وعلقت الملكة فريدة فى رسالتها بأن قول على أمين قول غير لائق لأنه كان عليه أن يراعى أن لفاروق ثلاث بنات ستضار مشاعرهن عندما يسمعن

مع شقيق الرئيس الراحل محمد أنور السادات بمعرض المريديان



مع حفيدها ألكسندر، ومستر نيفل فى أسوان

أن الأب كان مجنوناً وعن غير حق .

وردت جيهان السادات على فريدة مبلغة إياها بأن على أمين قد أبلغ بملاحظتها وتضمنت الرسالة ترحيباً بأن تعود فريدة إلى أرض وطنها فى أى وقت تشاء .

وفى باريس كان الدكتور عاطف صدقى (رئيس الوزراء) مستشارنا الثقافى - بينما كان فاروق حسنى ملحقاً ثقافياً ومشرفاً على المركز الثقافى المصرى فى باريس .

والتقى فاروق حسنى بفريدة عام ١٩٧٥ فى المركز الثقافى حيث استقبلها الدكتور عاطف صدقى وقاما بتشجيع اتجاهها إلى الفن وقدما إليها دعوة للاشتراك فى (معرض الفن المصرى المعاصر) الذى أقيم فى القصر الكبير (الجراند باليه) ذلك العام وكان المعرض يضم أعمالاً لكبار الفنانين المصريين.

وفى العام التالى استضاف المركز الثقافى بباريس معرضاً خاصاً لفريدة . وقد شكلت هذه اللقاءات نهاية لعزلة فريدة وبداية لمرحلة العودة لعناق أرض الوطن من جديد . وسرعان ما عادت



فى زيارة أحد الأماكن فى النوبة



مع يوسف صبرى أبو طالب وكان محافظ القاهرة وعبد الأحد جمال الدين وكان وزير الشباب وماهر أباظة وزير الكهرباء فى أحد معارضها .

إلى أرض الوطن بالفعل .

وفى عام ١٩٨٠ أقامت فريدة أول معرض لها بالقاهرة فى فندق المريديان وكان يضم ٧٧ لوحة وقد أطلقت على معرضها اسماً متصلاً بأساطير الشرق هو : ألف رؤية ورؤية.

وقد أثار هذا المعرض اهتماماً عاماً، ووصف الناقد الراحل كمال الملاخ لوحاتها قائلاً : (إنها تسكب فيها أحلامها ورؤى الماضى من أيام الطفولة والصبا والشباب، تجتر فرشاتها صوراً تتتابع مع البراءة المناظر الطبيعية الواقعية التى عاشتها أو زارتها. سواء عند زرقة شاطىء البحر أوخضرة الأرض أو الرمال المترامية عند أبو سمبل أو سيناء وجبل موسى وسانت كاترين).

وتبقى كلمة لها علاقة بهذا العمل الذى نطالعه.

لقد سئلت فريدة يوماً : ماذا أعطاك الفن؟

فكانت إجابتها :

أعطانى الأمل والرغبة فى الاستمرار.. كنت فى الماضى أخاف الوحدة، اليوم أحتاجها لوقفة تأمل.. لتفجير معاناتى فناً .. باللوحة والفرشاة والألوان، لم تعد وحدتى وحدة بل صارت حياة وضجيجاً .



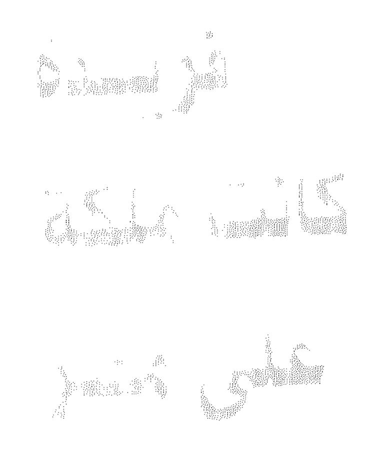
مع الدكتور عبد القادر حاتم فى أحد المعارض



مع المايسترو يوسف السيسى



تنحى لها الدكتور حاتم لتفتتح بدلاً منه معرض راغب إسكندر

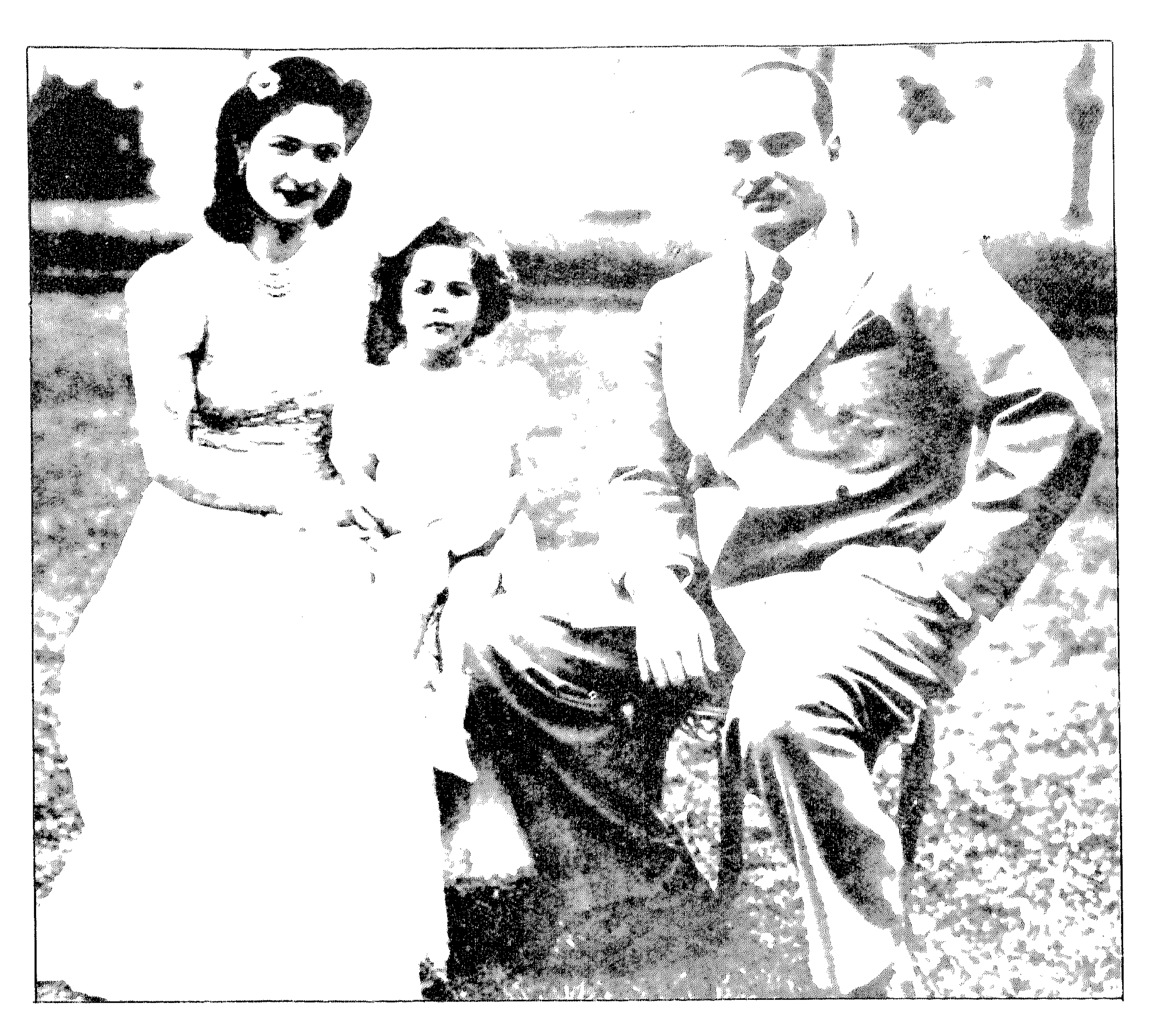


بقلم : دكتورة نعمات أحمد فؤاد

كتبت الإنجليزية ونفرد هولمز Winifred Holmes كتابا باسم (كانت ملكة على مصر) بضم ترجمة حياة (حتشبسوت نفرتيتى كليوباترا شجرة الدر) هذا عن مصر القديمة ومصر الإسلامية.

أقول فى مصر الحديثة ملكات ولكن واحدة فقط نستطيع أن نسلكها فى هذا العنوان، فريدة.. بما كان لها من مواقف وأسلوب حياة.

كانت من أسرة عريقة ثرية بالمال والعلم والفن ولكنها حين رفعت إلى عرش مصر رأت بلاشك مايروع من الثراء والبذخ الباذخ، ولكن الصغيرة ذات السبعة



صورة عائلية لفاروق وفريدة مع فريال ابنتهما الأولى - فبراير ١٩٤٢ م .

عشر ربيعاً لم تفقد توازنها أمام هذا البهرج.. أمام ملك مصر الذى افتخر به الملوك منذ منبتاح فى وجود موسى .. بل أخذت تتفهم الأوضاع المحيطة بها مرفوعة الرأس لاتداجى ولاتتطامن .

وتكبر معها قدرتها على الفهم والتمحيص .

وفى البداية نعمت بالحب .. حب من؟ حب ملك مرموق تهفو القلوب إليه وتتطلع العيون تكاد تحيط بأهدابها .. ملك جميل ممشوق يحبه شعبه حباً دافقاً وينتظر الناس موكبه فى الشوارع التى يمر بها.. فى النوافذ والشرفات المطلة عليها. وكانت هى بالانتساب إليه صاحبة موكب وحشم وحراس وتكريم وتعظيم وأقبلت فريدة على الحياة المصرية ترعى وتنتمى .

وفى كل مكان كانت تقابل بالإعزاز .

لم تشب سيرتها شائبة

ودخل هذا فى رصيدها

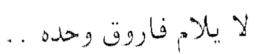
فلما وقعت الواقعة فيما بعد، انحاز الناس إلى جانبها، بما وقر فى نفوسهم لها .

على كل حال لم تأت هذه المرحلة . نحن لانزال فى البداية وأصداء العرس الأسطورى على كل لسان ...



لقطة للملكة فريدة على ضفاف النيل





مع صديقتها سعاد حمدى

وكان فاروق ملكاً ولكنه كان فى الثامنة عشرة من عمره بالحساب الميلادى أى أقل من هذا بالحساب الهجرى فهو فى عين الشعب المصرى فى فجر العمر.... لولا هالة الملك لقال «صبى» .

كان فاروق ملكاً ولكنه فى عين الشعب المصرى يتيم فأخذ يحبه بمجامع قلبه وكأنه ابن لكل رجل فى مصر .

أحببناه أغلى الحب .. حب أثمن من كل ماضمه قصر عابدين على نفاسته ولكنه لم يحافظ على الاثنين: الحب والقصر .

وفى الحقيقة إنه لم يلق الذى يراعى الله فيه ، صفحة بيضاء نقية.

ويرعى الله فى مصر التى تدفع فى كل مرة ثمن نفاق المتسلقين وجرائمهم .

لا يلام فاروق وحده ..

ففى كل عصر نبتلى بأقوام يعيشون بيننا مهمتهم صناعة الصنم.

وبدأ تحول غير منظور .

وبدأ معه الهمس الخافت .

وأخذ الهمس يعلو رويداً رويداً .

ولكن الحب الكبير الذى كان يكنه الشعب لمليكه كان يتغلب على الشائعات أو يغفرها مادام المظهر الملكى محفوظاً ومحسوباً .

وفى هذه الفترة كان الملك يغشى المساجد فيفرح به شعبه المؤمن من قديم الزمان. ولهذا يأسره المنحى الدينى.

وكان الملك يزور مراكز الإنتاج فى كل موقع.



مع فاروق حسنى وزير الثقافة - حالياً - فى باريس

وبارك الناس اتجاهه وأطلقوا عليه الصانع الأول والفلاح الأول.. إلخ.. إطراء الأمراء والملوك وأصحاب الصولجان.

ولكن الأمور كانت تسير فى غير بطء إلى منحدر.

وبدأ الناس يتنفسون فى حزب الأغلبية : حزب الوفد، وهى نقطة لكهنة القصور يوغرون فيها صدر الملك.

وكان النحاس باشا فى نظرهم الراعى الصالح.

ومع هذا حين طلب الإنجليز إلى الملك أن يعهد بالوزارة إلى النحاس باشا رفض، أحاط الإنجليز قصر عابدين بالدبابات فثار الناس لأن كرامته من كرامتهم.. مهما كان ومهما قيل. إنه ملك مصر.

وتولى النحاس باشا الوزارة فلم يفرح بها الناس لأول مرة فى حياتهم ولم يستفد فاروق من هذه الفرصة.

لم يراجع نفسه .

لم يقبل على شعبه الذى غفر وأقبل عليه .

وسارت الأيام.

وسارت فريدة أماً بعد عام .

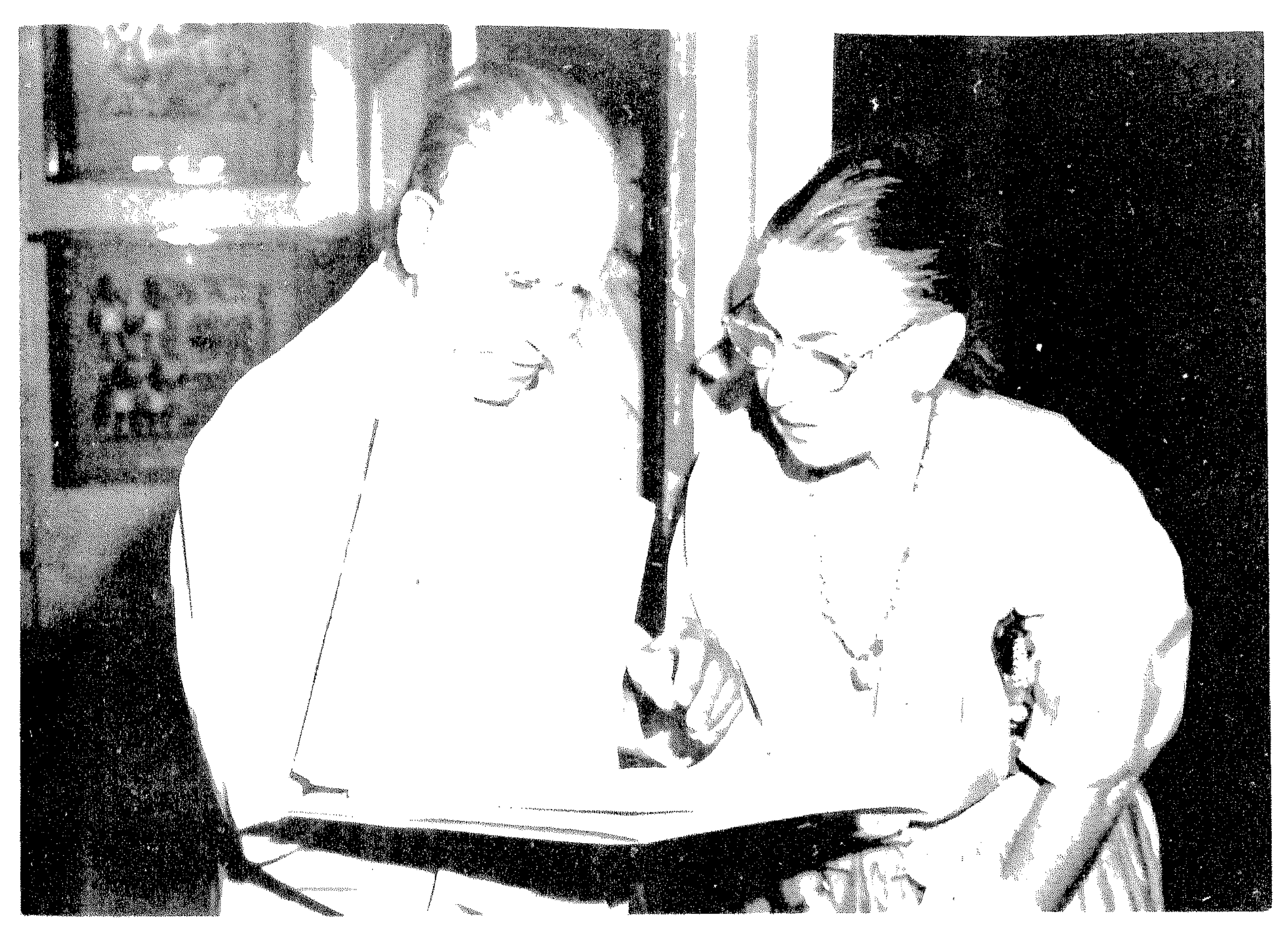
وكانت الباكورة أميرة.. الأميرة فريال.

واستقبل الناس ميلادها استقبال الطفل الأول فى حياة كل أسرة. تكفى بشرى الإنجاب والخلف.

ولكن فاروق كان ملكاً فدعا الناس الطيبون فى بلدنا أن يعطيه الله ـ ملك الملوك ـ أميراً تقر به عينا الملك .

وصارت فريدة أماً للمرة الثانية.

وكانت المولودة أميرة.. الأميرة فوزية.



مع الدكتور حسن رجب

فكتب أحد الكتاب المصريين عزيز فهمى مقالاً فى مجلة الرسالة بعنوان «عشت للجمال ياأميرتى فوزية» واستمد عنوانه من أن المولد وقع فى فصل الربيع فصل الأزهار والرياحين فهو أليق بزهرة ملكية.. حسن تعليل.

كان الناس الطيبون فى بلدنا لايزالون يحبون «فاروق» و«فريدة» حباً يرى أو يريد الجانب المشرق فى كل شىء يتعلق بهما.

لكن فاروق بدأ يقلق على وريث للعرش . وقلق الملوك يجد من يؤججه.. وأطلت رؤوس تستغل هذا القلق فتتظاهر بالرغبة فى امتصاصه بإغراق الملك فى الملذات.. وهنا بدأ طريق النهاية.

وتمادى فاروق فى أخطائه التى كان يزينها له رفقاء السوء وبوللى الإيطالى واعتزلته الملكة الغاضبة، والحزينة على واقع منذر.

ووقعت له حادثة القصاصين.

فهرعت إلى المستشفى الذى يرقد فيه وكانت حاملاً وفى شهور متقدمة.

وكانت فرصة للتصافى وللإصلاح..إصلاح الأخطاء على مختلف الساحات ولكن فاروق ماكاد يفيق من كبوته أو رقدته حتى عاد إلى ماكان عليه.

ووضعت فريدة مولودها الثالث.. أميرة. الأميرة فادية.

ويبدو أن فاروق تأزم إلى درجة اليأس. وفى هذه الحالة كان يرى فريدة كأنها مذنبة وهى حبه الكبير بشهادة من اقتربوا منه فى ذلك الوقت ومن كتبوا عنه بعد هذا.

وازدادت الفجوة بينهما اتساعاً .





مع دكتورة نعمات فؤاد ولوتس

وفي يوم صدمته مفاجأة لم يكن يتوقعها.. فقد وجد حوله من قالوا له إنه ملك وله أن يفعل مايريد.. ملك من حقه أن ينال مايشاء والكل رعاياه، والملكة وإن شاركته أريكة الملك إلا أنها إحدى رعاياه ويتحتم أن تتقبل كل ما يأتيه.

ولكن الملكة كانت تعتز بإنسانيتها امرأة وزوجة. وتعتز بكرامتها إنسانة وملكة.

ورفضت فريدة.

واهتز فاروق الذى لم يبرح حبها قلبه وإن ران عليه ركام من الدسائس والمؤامرات والأفعال.

واهتز فاروق ملكاً .. فقد خشي على عرشه وقع الطلاق على الشعب.

وحاول فاروق استرضاء فريدة وأرسل الرسل ولكنها أصرت. هنا موقف.. لقد كانت فى ذلك الوقت تملك قصر الطاهرة بعقد تمليك فقد وهبه لها فاروق وسجله باسمها.

وكانت فى ذلك الوقت تملك مخصصات ملكية باذخة ستسقط عنها بالطلاق وكانت تملك تاجاً على رأسها.

وكانت تملك القصور والضياع وكل مايملكه الملك الزوج والأب.

وزهدت فريدة فى هذا كله! ونذر يسير منه يسيل له لعاب الرجال ولو كانوا وزراء وأصحاب سلطة فى مواقعهم.

وهو موقف لفريدة.

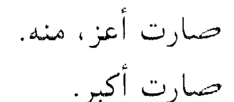
موقف فريد.

وموقف صعب لايقدر عليه إلا أولو العصبة.

موقف ارتفعت فيه فوق أطماع وطموحات الإنسان.

موقف غال.. نبيل .. شامخ.

موقف ارتفع بها على ملكة.. حين زهدت فى الملك ارتفعت عليه.



صارت أعز، منه.

صارت أكبر.

وحين أخذت فريدة فى الارتفاع أخذت ملكة أخرى أكبر سناً فى الهبوط وقارن الناس.

ولكن فاروق لم يقارن فقد كان فى دوار.

وأصرت فريدة.

فعالج فاروق الموقف بمضاعفته!

استدعى أخته الإمبراطورة فوزية من طهران وكان زوجها يعشقها ويحيطها بالإعزاز والتدليل.

وقرر أن يحمل شاه إيران على تطليق الإمبراطورة فوزية! تسويفا لطلاقه من فريدة!!

بل أعلن الطلاق فى خبر جامع أو بيان واحد صدر من الديوان الملكى.. وإن كانا اثنين.

وفى نبل وكبرياء لم تند عنها كلمة واحدة فى حقه بعد الطلاق أو بعد العزل.

ثم تزوج فاروق للمرة الثانية وأنجب أخيراً ولداً وريثاً للعرش ولكن الشعب لم يشاركه الفرحة.. وكان بينه وبينه جدار.

وتكاثف الدخان الذى يسبق الحريق.

وكان الحريق (الهول بعينه).

إنه «حريق القاهرة» أم المدائن، عاصمة التاريخ.

احترقت بعض المبانى، احترق الطوب ولكن بقيت أمجاد القاهرة، معابد ومساجد وكنائس وقيم.

بقى الأزهر والجامعة وبقى علماء القاهرة وفنانو القاهرة وأدباء القاهرة وأطباء القاهرة ومهندسو القاهرة، بقيت ريادات القاهرة فى المنطقة كلها. بقيت أعمدة القاهرة.. الإنسان والقيمة.

إنها القاهرة.

حدث هذا ولم يكن مضى غير ثلاث سنوات على طلاق فريدة، وتوالت الأحداث منذ يناير سنة ١٩٥٢ بداية السنة الرابعة وسقطت الوزارات تباعاً ومالبث أن اندلعت ثورة ٢٣ يوليو ونزل الملك من كرسى العرش مضطراً مجبراً فى حين نزلت فريدة باختيارها وإرادتها



فى احدى المناسبات

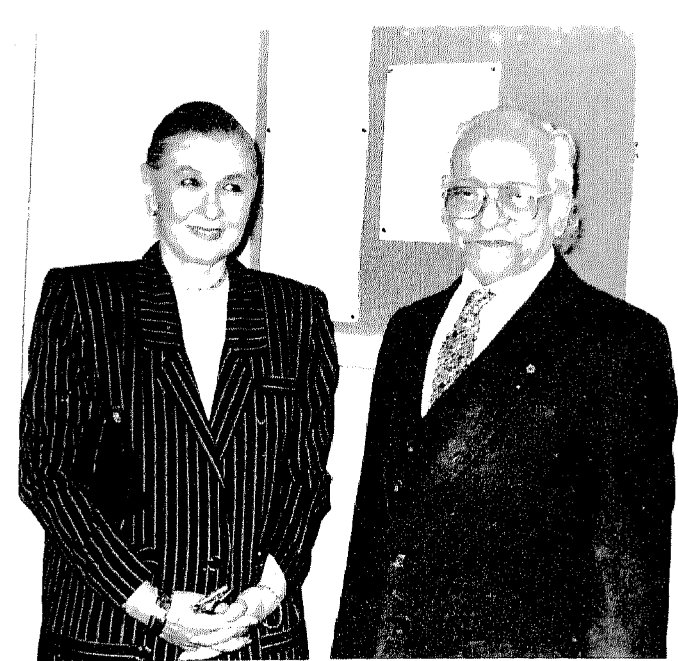
والفرق كبير شاسع بين الصورتين ولهذا ظلت فريدة ملكة فى عيون الناس ووجدانهم وبلغ الطفل الملكى مبلغ الرجال ولكنه لم يرث العرش لأن الحكم غدا جمهورياً بعد أن ألغيت الملكية.

وتقدرون وتضحك الأقدار.

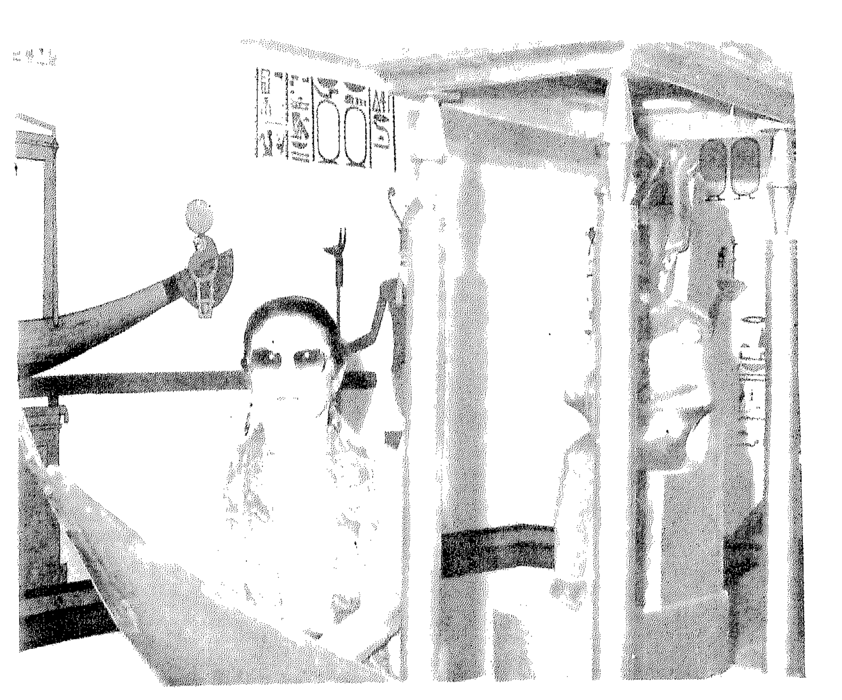
وحان الرحيل ..

وخرجت أميراتها مع الملك وخرجت خمس سنوات من عمرها معهن هى سنوات الفراق بلا تلاق، وعادت إلى مصر سنة ١٩٨٠ تحمل لوحاتها السبع والسبعين وعلى النيل فى إحدى قاعات الميرديان عرضتها فتذكر الناس وكان إقبالهم على المعرض سلاماً وعودة.

وتحية وطن ..



مع الفنان صبرى راغب



فى أحد المتاحف الفرعونية

كان المعرض لقاء ودعاء ووفاء .

وهكذا يسترد كل شىء من صنع البشر .. ومن هنا خلود عطاء السماء موهبة أو ذكاء أو سجية.

وحين أخذ البشر من فريدة، الكثير، أطلت عليها السماء وأعطتها الكثير.

أعطتها الفن بحلاه ورؤاه.

رسمت وصورت ولونت ونمنمت وولدت فى أعطافها من جديد «الفنانة».

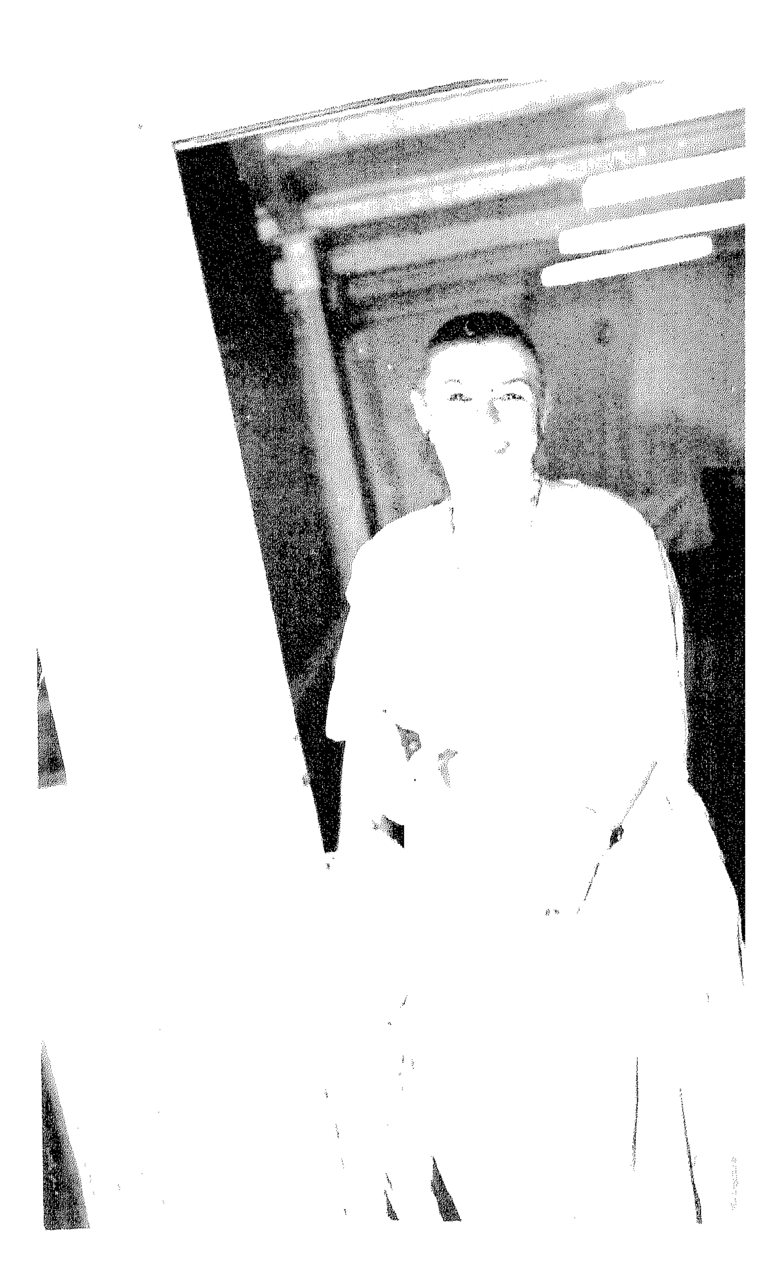
والفنان أكبر من الملك.

حين انتصر ملك مصر «حورمحب» وكون الإمبراطورية، أراد الفنان المصرى أن يصنع له تمثالاً فى هيئة الملك الإمبراطور ولكن «حورمحب» بوراثة حضارية من مصر الحضارة طلب إلى الفنان المصرى أن يصنع له تمثالاً على هيئة الكاتب المصرى .

وحسب فريدة الملكة أن تغدو ، فنانة.

وحسب فريدة الفنانة أنها كانت ملكة على مصر.

بدأت تكتب تاريخ حياتها بنفسها يوم شدت على اللوحة أول قماش أبيض لترسم عليه حياتها والقماش صفحة بيضاء.. وهنا بدأ التسجيل.





مع لوتس والدكتورة نعمات فؤاد ومحافظ القاهرة يوسف صبرى أبو طالب فى حفل وفاء النيل

فى إملاء الفطرة وبراءة العفوية، وعفوية البراءة بدأت خطاهاوخطوطها الأولى.

وقف منها خالها موقف حبيب چورچى من أطفال الحرانية الذين أخرجوا الروائع التى حاولت فرنسا أن تثانيها بإدخال التجربة فى مرسيليا فلم تصل إلى غاية.

الرسم عندها، لحظة اكتشاف.. ومضة على المنظور وتتحرك الريشة فى تلقائية بكارة الإحساس ترتشف اللون، وتسكبه على السفح.. وبعد زمن لاتدريه.. يولد شىء وساعة المولد ينبثق الحنان فتحنو على اللوحة إنساناً وأماً تعطى اللمسات الأخيرة.. وتكتمل .

للنقاد أن يقولوا رأيهم وفقاً للنظرية ولكن الفنان امرأة أو رجلاً .. الابن عنده أغلى مافى الوجود .

وهل أغلى عند الفنان المصرى من النيل والمراكب، والنخلة؟.

النيل وفى صدره أسرار السنين وقصة أمة. إنه ملحمة مصر والمركب.. المصير.. الوحدة.. ومن هنا يقول الشعب المصرى.. «يانعيش سوا يانموت سوا» فى انبثاقة من عالم المركب والشراع. وهى ابنة من بنات هذا الشعب يستقر فى قلبها مذخورة.

وقد انعكست صفحة النيل فى لوحات كثيرة رسمتها فريدة الفنانة تنتمى من خلال اللون والخط.

وقد كان إحساسها عارماً وعميقاً بالنيل.

وكلمتنى يوماً .. أقصد منتصف ليلة.. حمل صوتها الهاتف.. قالت لى فى التليفون بصوت حزين به من الألم ما به .. (على شاطىء النيل طوب وأحجار وحديد.. كل الظواهر تقول إن بناء فى الطريق يحجب النيل عنا.. اكتبى عن حماية النيل).

النيل هويتها وهواها، رسمته فى القاهرة ورسمته فى أسوان ورسمته فى النوبة.

كانت فريدة ظمأى ظمأ الذى ألف الرى وصفاء المنبع ثم حرم فجأة.. وكما هفا شوقى فى المنفى إلى السواد من عين شمس، هفت فى المنفى إلى زوارق النيل. إن زورقاً واحداً لايكفى..

القلب لايشبع على كثرة العب وتوالى الرشيف.

كان بداخلها مرجل يمور .. حتى شمس الأصيل رأت فيها الأفول حين رأى فيها بيرم ألوان الشفق الذهبى يتوج قوس النخيل «تحفة ومتصورة فى صفحتك



ياجميل».

وتمر العاصفة ولكن تعمقها اللحظة الفاصلة، لوحتان فى معرض فريدة وخطان فى حياتها : نيل وعاصفة ثم مرض لم تنس فى نهايته الشهادتين فى لحظة اقتراب من الله. وارتفاع عن الأرض تدنو فيها الروح من رحاب السماء.

وكما فى حياتها أسرار وظنون وإثارة، نجد نعكاسات هذا فى اللوحات.. فى الهيئة والصوت.. ى اللون والظل.. فى تجمعات الرؤوس وغموض لألوان لتكتم السر أو تغطى الحركة.

القصور ماأوسعها وما أضيقها أيضاً إذا قيست الحياة العريضة حياة الفن والعلم والطموح بل حياة بسطاء والكادحين ...

إن فى لوحة (حقل القطن) من السعادة والأمل الخوف والرجاء وإحساس القمة والحلم مايعز على قصور وساكنيها أحياناً ...

لقد اكتشفت الفنانة فى الملكة هذه المفارقات ...

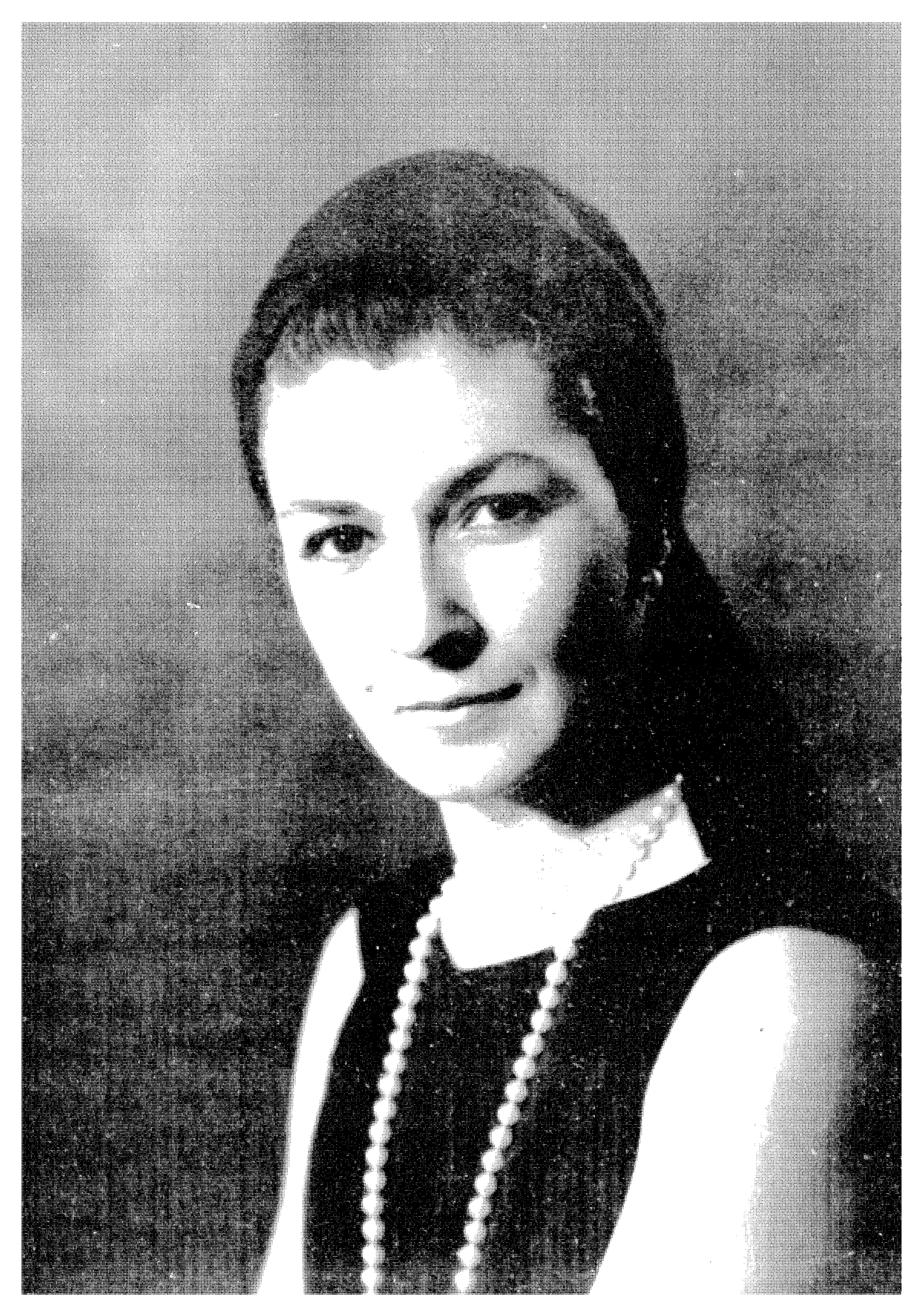
صورت الفنانة الصخور وقسوة النتوء، كما صورت النهر وعذوبة الانسياب وانبساطة التدفق ودماثة العطاء، وسخاء الكريم ...

صورت الصراع والطموح والانفعال والهدوء، وجهر اللون ونعومة الملمس، ورقة الهمس ووطأة الضغوط ولاتند عن شفتيها كلمة «آه».

كبرياء امرأة وحزن فنان ونبل ملكة.

لم تند عن شفتيها كلمة «آه» بالحروف ولكن لوحة «الزمن» قالتها ... ولكن فى كبرياء أيضاً ... حين اشرأب الرأس وكأنه نفض عنه السنين بما حملت وحفلت به رحلة السنين .

وتغوص الفنانة فى أغوار الحياة فلايفوتها فى الركب الزاخر تلك العفريتة بشقاوتها وتوثبها وحضورها... وترسم الملكة المترفة، التى رأت فى مطلع حياتها الأميرات فى قمة البهاء، الغجرية .



والملكة فريدة يبدو وأن السنوات العشر التى تفيأت فيها ظلال قصر عابدين، بعدت بها عن القرية المصرية... وهذا البعد نفسه رادها من القرية المصرية دنوا. بعد القصر فى (مقابلة) كما يقول البلاغيون...

مقابلة بين الفخامة والبساطة. مقابلة بين البذخ والتواضع... تواضع الأصيل، التفتت إلى الريف فالقرية أم النخلة الشامخة التى ولدت المسلة والمئذنة .. الخط الرأسى بالتسوق إلى فوق

وهذا التسامى من خلال الخط واللون نجده فى لوحة الفيوم حيث النخلة والفلاحة حاملة الجرة، صحبة .. وتعزف الألحان .

وتندمج اندماج الفنان فى حياة القرية وأصحابها فترسم المعدية من عمق إحساسها (بالعودة) .. والعودة غالباً ماتكون بالليل حيث يستريح المتعب ويخلد إلى السكون خارجه أو داخله.. فيما حوله أو فى أعماق النفس وقد مرت الملكة فريدة كثيراً بهذه اللحظة ..

ولم يتخل عنها الله فى هذه اللحظة فكم أشرق عليها ، فيها نوره وغمرها النور ... «نور الله» فتهتف اللوحة حاملة هذا الإسم .

الله .. لفظ الجلالة. . مازالت الفنانة في استشرافه واستغراقه تلف كيانها كله فتنجذب فى حلقة ذكر لونية تردد : الله الله .

ويسمى المشاهدون اللوحة لفظ الجلالة . .

يعلو الإنسان حتى يصير ملكاً ولكنه صغير، صغير بالنسبة إليك أنت أنت الله .

والملكة الفنانة كانت فى لوحاتها كأنها تحكى صتها أو حياتها بالريشة وحياتها فى الحقيقة : نور ظل .... بريق ولمعان ثم تتبدل الأشياء ويغشى لليل...

وهكذا لوحاتها أضواء متوهجة أو عتمات داكنة.. طياف رمادية أو أشرعة بيض . . حوار وحوار بين أضداد فى الطبيعة والنفس .

كانت الملكة الفنانة تحب أمها حباً جماً تقبلها فى غف كأنها طفلتها ولكن أحزان نفسها التى تنوء بها كانت تشفق على أمها أن تطلعها عليها، ولاأحسبها تجهلها .. هذه الآلام كانت تلقى بها عند أم أخرى أكبر . الطبيعة : إن الطبيعة أم كبرى ولهذا كانت لوحات فريدة حديثاً موصولاً مع الطبيعة ... إذا هادتها الأيام رأت الجمال فى الطبيعه وإذا أرهقها العبء، رأت الجذوع الغليظة والأغصان الجافه ووحشة الغابة، وقسوة الرحيل ووحشة الغروب.

كانت قليلة الكلام فى الطبيعة وقليله التفاصيل أيضاً فى اللوحات ولكن شريط الذكريات كان حشداً كبيراً .. من البداية إلى النهاية

كانت أول عهد أسرة راقية بالبنين فاستقبلنها حياة رغدة مترفة بالفن وهو أكثر عمقاً وأصاله من ترف المال على أنها نعمت بالاثنين منذ نشأتها .

ولم تكد تخطو إلى منتصف عقدها الثانى حتى سلطت عليها، الحياة، الأضواء والبريق فقد أعدتها الأقدار لتعتلى أعرق عروش الدنيا منذ ايزيس ووتنسرى وحتشبسوت . .

وما إن تربعت على العرش حتى أحاطت بها العيون والقلوب أيضاً ثم خفت الضوء وانحسرت انعكاساته كلها... ثم أغطش الليل . ومع الليل الوحده وشريط الذكريات

وفى غسق العتمة أشرق فى قلبها نور جديد لايخبو: الفن .

ومع الفن : الأمل .

ومع الأمل : العمل .

ومع العمل : الرغبه فى مواصلة الحياة .

كانت ملكة على مصر .

كانت شديدة الإيمان بالله بينها وبينه لحظات صمت عميق .

والذى يتصل بالله يراه فى الكون كله .. فى صوت النبتة حين تنبت، يراه فى الهدير . وفى الخرير .. فى شموخ الجبل . فى بسطة السهل .. فى النملة الدقيقة، فى الأسد الهصور ...

في صفاء النبع ... فى زرقة «الخليج» ... «وحمرة

الشاطىء»، صفاء فى السماء وصفاء فى الماء تغدو الروح معهما شفّة . عفّة. . أطهر من قطرة ندى تطل على زهرة بنفسج فى هدأة السحر ... أو بسمة السحر ..

وتصلى الريشة وتتطهر النفس الفنانة فتعدو فى نقاء الياسمين .

ومع الغيمة المسافرة فى السماء، تسافر فريدة الملكة والفنانة السفر الذى لايؤوب منه الغائبون .

وداعاً فريدة .. آخر ملكة مصرية

هذه الإنسانة ذات الصفتين عرفتها فى سنيها الأخيرة طلبت من صديقة لها أن ترانى . خاطبتنى الصديقة فرحبت، لا ،لا لأنها ملكة، ولكن لأنها صاحبه موقف ... كانت كريمة على نفسها... فعدت كريمة على الحياه والناس .

زرتها وزارتنى .. كانت ترتاح إلى بيتى ... كانت تقف فيه طويلاً أمام لوحات النيل بريشة فناننا صلاح طاهر وتحيه حليم لأن النيل كان موضوعاً كبيراً فى وفنها .

حدثتنى ، مرة أخرى، فى الليل وهى تكاد تبكى لأن النيل عند المعادى ألقوا على شاطئيه أحمالاً من الطوب والرمل وهى تخشى أن يحجبوه عن الناس .
طلبت إلى أن أكتب .. واستجبت لها، ولكن قبل أن أكتب قمت بعملية مسح للشاطىء وهى عملية طالما قمت بها كلما استشعرت خطراً عليه. سرت من الزمالك إلى المعادى سائرة على قدمىّ إلى أن يدركنى التعب فأركب ثم أنزل ثم أركب وعرفت على وجه اليقين، الذين يستبيحون نهرنا... وكتبت المقال ولكن لم تنشره جريده .. الكل كان يعرف قصة الجرس والقط .

وكلمتنى مرة أخرى، فى صوتها استغاثة، أيضاً من أجل النيل، تزيدنى تقديراً لها. إنها تعرف حق مصر .

كانت ملكة مصر حين السلطان وظلت فى عين الشعب ملكة بعد السلطان .

وكم بين ملكة مصر وبين امرأة العزيز حين يكتب التاريخ.

وتأثرت كثيرا وازدادت تعلقاً بمصر التى اكتشفت حب أهلها لها ووفاءهم للوفاء ... وتطورت علاقتها حتى إلى درجة البت والإقصاء ...

احتملت الملكة فريدة ألواناً من الألم... ألمها الخاص من فقد وحرمان وألم مصر التى فقدت الكثير أيضاً وبعض الذي فقدته كنوز الملكية التى ذهبت نهباً .

عاشت الملكة فريدة المحنة فغلبتها المحنة حين اقتحمت مصر، العقبة بطاقاتها العديدة والمديدة والتليدة واستعلت كدأبها على المحنة.

وماتت الملكة فريدة الإنسانة وعاشت مصر النيل والتاريخ لأن مصر : قد تشقى ولكن تشفى . وقد تمرض ولكن لاتموت .

القاهرة مايو . ١٩٩٠

د. نعمات أحمد فؤاد

رقم الإيداع
٩٣/٣٤٠٥

الترقيم الدولى
I S B N 977 - 5441 - 00 - 5

الغلاف بريشة الفنان محمد طراوى

التعليق على اللوحات الناقد الفنى عز الدين نجيب

مراجع النشأة الفنية / الناقد الفنى : مختار العطار وصبحى الشارونى

طبع بمطابع انترناشيونال برس ٥ ش جمال الشاهد مدينة الصحفيين ت : ٣٤٧٤٢٥٩

